الضَّباب الأصفر

الضبـــاب الأصفر/ تأليف ألكسنـــدر فولكوف؛ ترجمة فيروز نيوف؛ رســـوم علي خليـــل. - دمشق الهيئة العامـــة السورية للكتاب، ٢٠١٣ .- ج٤ (٢٤٠ص) : مص ؛ ٢٤سم.

١-٨٠٨,٨٣ ف و ل ض ٢- العنوان ٣- فولكوف ٤- نيوف

مكتبة الأسد

الضَّبــاب الأصفــر

(الجزء الرابع)

تأليـف : ألكساندر فولكوف
ترجمة : د. فيروز نيُّوف
رســـوم : علي خليل

الهيئة العامة السورية للكتاب - منشورات الطفل

وزارة الثقافة - دمشق ٢٠١٣م



مقـدِّمـة

نومٌ دام خمسةَ آلافِ سنة

كان الـوادي الطويـل الضيّق في «جبال حول العـالم» ينتهي بمغارة دافئـة، أليفة، مرتفعة السقف، ملساءِ الجـدران ومستوية الأرضية. وفي زاوية بعيـدة من المغارة كان يقوم سرير ضخم عليه فراش وثير من الفرو تغطُّ فيه امرأة عملاقة الجسم في نوم عميق.

لم يكن نومها عادياً، فقد كان مستمراً منذ عشرات القرون. فمن ذا الذي، ياتُرى، استطاع التغلَّب على هذه العملاقة، من ذا الذي جعلها تغطُّ في سُباتٍ مسحور، وجزاءً على أية شرور؟

لكي نعرف كيف ولمـاذا وقع هذا الحدث العجيب، دعونا ننتقل في فكرنـا عائدين إلى الوراء عدة آلاف من السنـين، إلى ذلك العهد البعيد الذي ظهر فيه الساحر الجبّـار «غورّيكاب» [1] في بلادٍ أُطلِق عليها فيما بعدُ اسمُ البلاد العجيبة.

إن غورِّيكاب هو مَن فصل البلاد العجيبة عن باقي العالم بـ«الصحراء العظمـى» و «جبال حول العالم» ، وهو مَن منح طيورها وحيواناتها القدرة علـى النطق بلغة البشر، وهو مَن جعل شمس الصيف الحارَّةَ تسطع فوق غاباتها وحقولها على مدار السنة.

كثيرة هـي أعمال الخير التي قـام بها غورِّيكاب مـن أجل البلاد العجيبة، فهيّأ لساكنيها من قبائل البشر الصغار أن يعيشوا بسعادة ومرح، وهم يعملون بطمأنينة وسلام.

---

(١) انظر حكاية «ملوك العالم السفلي السبعة».

ولكــنْ بعد مرور ألف سنـــة، أو ربَّما كان ذلك بعد ألفي سنة، بدأت تنهال بين حين وحين على سكان البلاد العجيبة كوارثُ لم تكن بالحسبان. فتارة تهــبُّ على بلدة عاصفة عاتية وسط سمــاء صافية، فتهدم المنازل وتقتــل أو تشوّه كلَّ مــَن لم يتسنَّ له مغادرة مأواه في الوقت المناسب، وتارة يُغــرِق الطوفانُ قريةً ساحلية، أو تصاب الماشية بوباء فتّاك فتَنفق الأبقار والماعز بالعشرات.

وبعــد أن نظر غورِّيكاب في كتبه السحرية، عرف أن ساحرة تدعى «أراخْنــا» من العالم الكبير ظهرت في البلاد العجيبة. كان طولها لا يتعدّى خصر غورِّيكاب، غــير أن رأس هذا الساحر العظيم كان يوازي بارتفاعه قمــم أعلى الأشجــار. وهكذا، فإن أراخْنا أيضاً كانــت عملاقة، إلا أنها كانت أقصر منه بحوالي خمس عشرة ذراعاً فقط.

كانت أراخْنــا ساحرة شريرة جداً. فإذا ما مرَّ يومٌ لم تتمكن فيه من إلحاق الأذى بأحدٍ عَدَّتْ ذلك اليوم سُدى. أمَّا حين تنجح في إيقاع الأذى بأحدٍ، فإنها كانت تقهقه ضاحكة بصوت مرتفع يجعل الأشجار في الحرش القريب تهتز حتّى تتساقطَ عنها الثمار.

لم تكــن أراخْنا تتعامل مع أيٍّ من قبائل البشــر بتسامح إلا مع قوم الأقزام القليلينَ الذين جاءت بهم معها من وراء الجبال إلى البلاد العجيبة. كان الأقــزام يخدمونها بإخلاص ووفــاء، لأن أجدادهم كانوا قد أقسموا علــى ذلك قسماً عظيماً. علــى أن الساحرة لو أقدمت على إلحاق الأذى برعاياهــا لَتشتَّت الأقزام في أرجاء البلاد، ولَمَا عاد في وسعك أن تجدهم في الغابات الكثيفة وبين النباتات الطويلة في المروج، إذ كان طول الواحد منهم لا يتعدّى نصف ذراع، كما أنهم كانوا بارعين في الاختباء.

كان الشيوخُ الأقزام الصغار الحجــم ذوو اللِّحى البيضاء الطويلة، والعجائزُ القزمات النظيفات اللواتي يرتدين قمطاتٍ بيضاءَ يهتمّون بكلّ متطلَّبات سيِّدتهم بمنتهــى التفاني. فكانوا يشوون لها الثيران والخِراف،

لأنهم كانــوا يربّون تلك الــدوابَّ في المراعي الجبلية الغنيــة. كما كانوا يصنعــون الخبز المنفوش من القمح الذي يزرعونه في الأراضي الخصيبة من واديهــم النائي. وكانوا يصطــادون الحجَل وطيور الــدرّاج السمينة بواسطــة أقواس صغيرة، ويحيكون القماش ثــم يصبغونه باللون الأزرق، فيخيطون منه وشاحاً جديداً لها، ما إن يَبلى الوشاح القديم.

مقابل هذه الخِدْمات التي لا تُقدَّر بثمن كانت أراخْنا لا تبخل على الأقــزام برعايتها، إذ كانت بتعويذاتها تُطيلُ أعمارهم إلى مائة وخمسين سنــة، وكان أولادُهم يكبرون من غــير أن تصيبهم الأمراض، وسهامُهم لا تخطئ الهدف، أمّا شِباكهم فكانت تصطاد الأسماك الكبيرة.

إلاّ أن أراخْنــا لم تكن تفعل الخير إلا مُكرَهةً إلى أقصى حدٍّ. وكانت تكافئ نفسها على فعل الخير بالتسبُّب بمختلف أشكال المضايقات لباقي الأقــوام البشرية. وعندما علم غورِّيكاب بذلك قــرّر أن يضع حدّاً لأذى الساحــرة الشريــرة. ولكن كيف السبيل إلى ذلــك؟ كان الحل الأسهل هو أن يضربهــا على رأسها بملء قبضته الثقيلة. غــير أن هذا الساحر كان طيِّبــاً، إذ إنه لم يسبق له أنَ قتل أيّاً كان. فحتّى حين يعبر المرج كان يفتعل الضجيج، ويجرُّ قدميه جرّاً كي يتسنّى للضفادع والحشرات والصراصير أن تفرَّ من أمام حذائه العملاق.

لم يبقَ أمام غورِّيكاب ســوى أمر واحد يفعله، وهو أن يجعل أراخْنا تغرق في سُباتٍ طويل. ففتّش غورِّيكاب في كتاب تعويذاته، ووجد أن أطول مــدة يستغرقهــا السُباتُ المسحور الذي يمكن أن تغــطّ فيه المشعوِذة هو خمسةُ آلافِ سنة.

لعلّها مدّةٌ مناسبة، – تمتم غورِّيكاب ساهماً. – فقد تُقلِع خلال هذه المدة عن عادتها في اقتراف الشر... ولكنه مذكور هنا أن عليّ أن أستجمع كلَّ مــا أوتيتُ من قوة الإرادة من أجل إنجاح السحر، والأهم من ذلك هو

أنّ عليّ أن أكون على مقرُبة من أراخْنا عندما أتلو التعويذة. وإلاّ فإنها لن تكون فعّالة... وهذا أصعب شيء...

كان غورّيكاب يعلم من الحيوانـات والطيور الكشّافة أن مباغتة أراخْنا أمرٌ مستحيل. فالأقزام يُحيطون بها دوماً، وهم يُنذِرون سيّدتهم بـأيّ خطر كان. زِدْ على ذلك أن الساحرة كانت قادرة على أن تتقمّص الصورة التي تشاء. فقد تتحوَّل إلى ثعلب، أو بوم، أو شجرة تفّاح مزهرة، أو جُذْمـور[٢] أعجف. كان اصطيادها أمراً يحتّاج إلى مَكر بالغ.

هيّـأ غورّيكاب نفسه جيّداً من أجل تنفيذ فكرته. فحفظ عن ظهر قلـب تعويذتَه الطويلة المخيفة كـي لا يضيع الوقت في اللحظة الحاسمة وهو يَنقّل نظره بين سطور الكتاب العجيب. ثم دعا جميع حيوانات الغابة وطيورها لمساعدته.

وقـد لبّت الحيوانات والطيـور نداء الساحر دون تـردّد، إذ كانت أراخْنا قد بالغت في إيذائهم جميعاً.

وفي اليـوم والساعة المحدَّدَين، أحاطـت بالوادي قطعان لا تُعَدُّ ولا تُحصى من الحيوانات المختلفة. جاءت الثيران، والتيوس البرّية، والأُسود، والنمور، والضباع، والجقـلان، والذئاب والغريرات، والأرانب، والفئران، والجـرذان، وراحت السناسير والسناجب تتقافـز فوق أغصان الأشجار. وحلّقت في الفضاء أسراب من النسور، وطيور الكندور والبواشق. وأخذت العقاعـق تصيح، والغربان تنعق، فيمـا كانت طيور السنونو تشقُّ الأجواء بأجنحتها السريعة. وامتلأت الأرجاء بقدْرٍ عظيم من الضوضاء والصخب، وراح كل هـذا العدد من الجحافل التي لا تحصى يتقدَّم نحو مقرّ أراخْنا ويحيط به من كل جانب. كان على رأس هذا الجيش عملاقٌ أجعد الشعر، تتطاير مع الريح خصلات شعره التي وخطها الشيب، وعيناه تشعّان غضباً. وأعلن غورِّيكاب بصوتٍ جَهوريٍّ طغى على ضوضاء جيشه المتنوِّع الأصوات:

(٢) الجُذمور هو ما يبقى من جذع الشجرة في الأرض بعد قطعها. - المترجمة.

اخرجي، يا أراخْنـــا! لقد جاءت اللحظة التي يجب عليك فيها أن تتحمَلي مسؤولية كل ما اقترفتِ من شرور!

- ارتعــد قلب الساحرة خوفــاً. وخطَرَ لها في بــادئ الأمر أن تبقى مختبئة في المغارة. ولكنها أدركت أن أسهل طريقة للإمساك بها هي بقاؤها في هــذا المــكان. وسرعان ما انطلق من المغارة نســرٌ راح يحاول الاختباء بــين سرب النسور. ولكنّ عبثاً! لقــد كانت النسور متيقّظة، فتلقَّت الزائر غــيرَ المرغوب فيه بضربات ثقيلة من مخالبها وأجنحتها، ممّا دفع بالنسر الزائــف للتحوّل فوراً إلى سنونــوَّةٍ سارعت إلى الاختلاط بحشد من هذه الطيــور التي لا تكفّ عن الحركة. إلا أن هذه الطيور أيضاً لم تكن غافلة، فاكتشفتِ المحتالة بلمح البصر.

ولكنّ أراخْنا لم تستسلم. فبين فلول جيش الفئران الذي غطّى الأرض، كأنــه بساطٌ ثخين، اندسَّت فأرة أخرى قــد يكون رقمها مائة ألف، ولكنّ سرعان مــا انكشف أمرها أيضاً. إذ قبضت عليهــا قطة برّية بأظفارها القوية، وراحت تموء بصوت يختنق من الفرح:

- ها هي هنا! إنني أُمسِك بها، يا سيدي!

لم يُضيِّــع غورِّيكاب ثانية واحدة، فركع علــى ركبتيه وسط الفئران التي ولَّت هاربة في جميع الاتجاهــات، وبسرعة فائقة تلا التعويذة التي لا تخيب.

يــا لها من معجِــزة! لقد تمدَّدت المشعــوِذة أراخْنــا بكامل طولها العملاق على الأرض، وغطّت في سُبات عميق كان مقدّراً عليها منذ الآن أن تستغرق فيه مدة خمسين قرناً!

شكر الساحر الحيوانـــات والطيور على ما أبدته من مساعدة تليق بالأصدقاء، وسرعان مـــا تفرقت في الغابات والحقول. وفجأة، بينما كان غورِّيــكاب يقف ساهمـــاً فوق الساحرة النائمة، ترامــى إلى سمعه صوتٌ

خفيف. دقَّق الساحر النظر فرأى قزماً قد تسلّق صدر الساحرة. كان هذا أنتيرنو ذو اللحية الشائبة، فخاطب غورِّيكاب قائلا:

- أيهـا السيد العظيم! لقد غيّبتَ سيدتنـا في النوم، ونحن لا نجرؤ على معارضة مشيئتك. حقاً، كانت أراخْنا تقترف كثيراً من الشرور. ولكنها كانـت طيِّبة معنا، ونحن لا نريد أن يمزِّق الجقلان والضباع جسدها إرباً إرباً. فاسمح لنا بأن ننقلها إلى المغارة، وهناك نقوم على حراستها إلى أن يحين موعد استيقاظها!

ابتسم غورِّيكاب، وقال:

- إنكم أناس صغار طيبون. وإنني لأُثني على طلبكم. افعلوا بسيدتكم ما تشاؤون، فأنا ليس في نيَّتي قتلُها، بل كلُّ ما أردته هو منعُها من اقتراف الشر.

توجّه غورِّيكاب إلى قصره، أمّا الأقزام فانخرطوا بالعمل تحت قيادة أنتيرنـو. وبالرغم من ضآلة أجسامهم كانوا مَهَرَةً بارعين. لقد قام بعض منهم بصنع عربـة طويلة، فيما رتّب آخـرون لأراخْنا المضجع الحجري الموجود في زاوية بعيـدة من المغارة هي الأكثر دفئاً وستراً، ثم فرشوا فيه طبقة سميكة من الطحالب الطريّة.

وتقـدّم مئات من الأقـزام، كأنهم النمل، فأحاطـوا بجسد السيدة النائمة العملاق، ودفعوه إلى العربة بواسطة الألواح والأذرع، ثمَّ مَضَوْا به إلى المغارة فوضعوه في السرير بعد جهد عظيم.

لم يكـن الأقزام يعلمـون كم هو مقدَّر لأراخْنـا أن تنام، لذلك فقد أخذّوا بالحسبان أن يكون كل شيء جاهزاً في أيّ لحظة تستيقظ فيها.

لقد وضعوا إلى جانب رأسها برميلاً خشبياً فيه ماء، وكانوا يبدّلون مـاءه باستمرار كـي لا يفسد. كما كانوا يشـوون كلَّ ثلاثة أيام زوجاً من الثـيران، إذ لا بـدَّ أن تكون السيـدة جائعة حين تستيقـظ . ولَمَّا كان لا



يمكن لِلَّحم أن يظلّ مدّة طويلة في مأمن من الفساد، كان الأقزام أنفسهم يأكلونه، ثم يُعِدّون البديل حالاً. كما أن الفرن لم يكن يخلو يوماً من الخبز الطازج.

وباختصار، ما كان في مقدور الساحرة أن تجد أدنى حُجَّةٍ لاتهام رعاياها بالتقصير إذا ما استيقظت في أيّ لحظة كانت.

كان الأقزام يتناوبون الموت والولادة جِيلاً فجيلاً، فيما ظلّت الساحرة الشريرة تغطُّ في سُباتٍ مسحورٍ مديد. ذلك أن غورِّيكاب ما كان يُلقي بتعويذاته في الهواء.

عندما كان وشاح أراخْنا الأزرق يَبلى مرّة واحدة كلَّ مائة عام، كانت العجائز يغزِلنَ خيوطاً يَنسجن منها قماشاً ويصنعن لها وشاحاً جديداً يُلبِسه الأقزام بصعوبة جسدَ الساحرة الفاقد الأحاسيس.

ما كان أشدَّ عنايةَ الحارسات القزمات الساهرات أبداً على نظافة المغـــارة! كانت الأرض والسقف والجدران تُنَظَّف يوميـــاً، وتُغسَل مرَّة كلَّ شهـــر. وكان يُقضى بلا رحمة على ما يتسلل إلى المكان من ذباب وبعوض وعناكب، أمّا الفئران والجرذان فكانت تُطرَد شرَّ طردة وهي مجلّلةٌ بالعار. وقد وضعوا فوق رأس الساحرة مِذبَّةً (٣) كان يحرّكها حرّاسٌ يتناوبون على مدار ساعات اليـــوم، فلا يركد الهواء المحيط بأراخْنا، ويظل نقياً دائماً. أفَليست هذه العناية التي أحاط بها الأقزامُ الأوفياء سيّدَتهم هي ما جعل عجَلـــة القرون الطويلةِ تدور دون أن تـــترك أثرها على أراخْنا التي ظلّت مستلقية في فراشها الوثير، نضرةً محمرَّة الخدَّين، مثلما كانت في اللحظة التي جعلها فيها غورّيكاب تغطُّ في سُبات مديد؟

وبمرور القرون نسيَ الأقزام الظروف التي جعلتِ الساحرةَ مستسلمة للنـــوم، وخُيِّل إليهم أنهـــا غافية في مغارتها غفوةً عجيبـــة، وأنها ستبقى نائمـــة هناك إلى أبد الآبديـــن. إلا أن العناية بها تحولت إلى طقس ديني باتَ يُراعى بصرامة بالغة. وكان أيُّ إخلال بهذا الطقس يُعدّ ذنْباً يعاقِب زعماء الأقزام كلَّ مَن يقترفُه.

بـــدا وكأن الزمن في المغارة المظلمة قد توقَّـــف، ولكنه لم يتوقَّف في العـــالم الكبـــير خلف جبال حول العـــالم. لقد انتقلتِ البشريـــةُ من العصر الحجري إلى العصر البرونـــزي، ثم إلى العصر الحديدي. وراحت السفن الشراعيـــة تمخُر عُباب البحار. ولم يبقَ من الحروب بين الإغريق والفُرْس إلا صداها. ومرَّت جحافلُ الروم في أوروبا المرعوبة لا تُبقي ممّا تصادفه في طريقهـــا على شيء. كان قد بدأ وانتهى عهدُ بربريةِ القرون الوسطى. واكتشف كولومبوس أمريكا، وقـــام رفاق ماجِلان بأوّل رحلة بحرية حول العالم. وانطلقت المناطيـــد الهوائية في السماء، وشقَّت أوَّلُ سفينة بخارية أمواجَ البحر. وجرّت أوّلُ قاطرةٍ بخارٍ خرقاءَ مقطوراتٍ صغيرةً مُضحِكةً

(٣) المِذَبَّة مروحةٌ يدوية لطرد الذباب وتحريك الهواء. – المترجمة.

كأنها عُلَبٌ علــى السكة الحديدية... فيما ظلّــت الساحرة مستغرقة في نومها المسحور.

ما الــذي كان يجري في البلاد العجيبة؟ هنــاك أيضاً كان التاريخ يسير بخطــاه البطيئة. لقد فنيَت أجيال وحلَّت محلَّهــا أجيال من قبائل الأقــزام الصغار، وقامــت وانهارت دولٌ بالغة الصغــر كانت تفخر وتعدّ نفسها مركز العالم، وبادت ســلالاتُ الملوك واحدة تلو الأخرى. فيما كان الأقزام، رعايا أراخْنا، يراقبون كل ذلك بتيقظ حذِرٍ.

كانــوا يجوبون أرجاء البلاد متخفيّن، يستَرِقــون النظر، يتنصّتون، ويحفظون في ذاكرتهم ما يرون. ولَمّا كان غورِّيكاب الطيب قد أطلع سكان البــلاد العجيبة على سر الكتابة التــي اخترعها بنفسه، قبل أن يُعرَف في العالم الكبير بزمن طويل، فقــد عمد الأقزام إلى تدوين حوليّات التاريخ. كان الكشّافــة منهم، حين يعودون إلى مغارتهم الأم، يقصّون الأخبار على مدِّوِّن الحوليات الذي يسجل كلَّ ما يسمعه على لُفافات من أوراق البُردي التي كان الشعب الصغير الحجم يصنعها من جلود الأبقار الفتيَّة.

ظلَّــت هذه اللُّفافــات الورقية تتراكم وتتراكــم إلى أن ملأت خزانةً كاملةً في المغــارة. وكانت تتضمن رواية صادقة لكل الأحداث التي وقعت في البــلاد العجيبة علــى امتداد آلاف السنين من النــوم السحري الذي استسلمت له أراخْنا.

كان الأقزام يَعدّون الحوليات التاريخية شيئاً مقدَّساً للغاية، فما إن توضع اللفافة على الرّف حتى لا يعود أحد يجرؤ على لمسها. وهكذا ظلت تلك اللفّافاتُ ملقاةً كومةً عديمةَ النفع مدةَ عشرات القرون.

❖ ❖ ❖

الساحرة أراخْنا

الاستيقاظ

كان ذلــك يوماً غيرَ عادي في بــلاد الأقزام الصغيرة. ففي الصباح كانت الأمور تسير على جَـرْيِ عادتها. إلا أَنَّ صوتاً غيرَ عاديّ هـزّ المغارةَ وقتَ الظهــيرة. كان الصوت شبيهاً بتنهيدة قويَّة جــداً، أو بضَجيج هبّة ريــح، أو بزئير وحشٍ عملاق. لقد ارتجَّ الهواء في المغارة، وانطفأ عددٌ من القناديل. وراح الحصى يتساقط من سقفها، وانطلق صدى ذلك الصوت المبهم إلى الخارج يزرع القلق في الجوار.

راح مَــن كان من الأقزام في الوادي يركضون بكلّ ما استطاعوا من سرعــة نحو المغارة التــي فرَّ منها باتجاههم حرّاسُهــا المرعوبون. وطفق الجميع يسأل بعضُهم بعضاً باستغراب:

- هل سمعت؟ ما الذي جرى؟ أليست هذه نهايةَ العالم حقاً؟!

وحــده الحكيم كاستاليو، زعيمُ الأقزام ومؤرِّخهم، فطنَ إلى حقيقة ما حدث، إذ رفع إصبعه وقال بلهجةٍ مهيبة:

- إنها السيِّدةُ تستيقظ!

كان كاستاليــو على حق. فقد تبيّن أن الصــوت الغريب كان تثاؤبَ الساحــرة وهي تستيقظ. وتــلا ذلك تثاؤباتٌ لا تقلُّ شــدة عن سابقاتها أدّت إلى إطفــاء ما تبقّى من القناديل، وإلى تحطيم أثاثِ الأقزام الضئيل مــن طاولات وكراسٍ وأسرّة، كما جعلت جــدران المغارة تتصدّع على نحو رهيب...

لقد استعــادت أراخْنا وعيها. ولمّا كان النائم لايشعر بمرور الوقت، فقــد خُيّل للساحرة أنها قبل دقيقــةٍ فقط كانت تحاول النجاة من جيش الحيوانات التي حرّضها عليها غورّيكاب العظيم. ولكنها لم تكن تدرك أين اختفت الحيوانات والطيور، ولماذا هي، أراخْنا، مستلقية في مغارتها على الفراش. صاحت الساحرة:

- مَن هناك؟ تعالوا إلى هنا!

دخل الأقزام إلى المغارة متهيّبين، يشقون طريقهم بين حطام الأثاث، وينيرون دربهم بالمشاعل. كان كاستاليو على رأس القادمين.

- نــادوا أنتيرنو! - أمَــرتِ المشعوذة. - وليشــرح لي ما الذي جرى هنا...

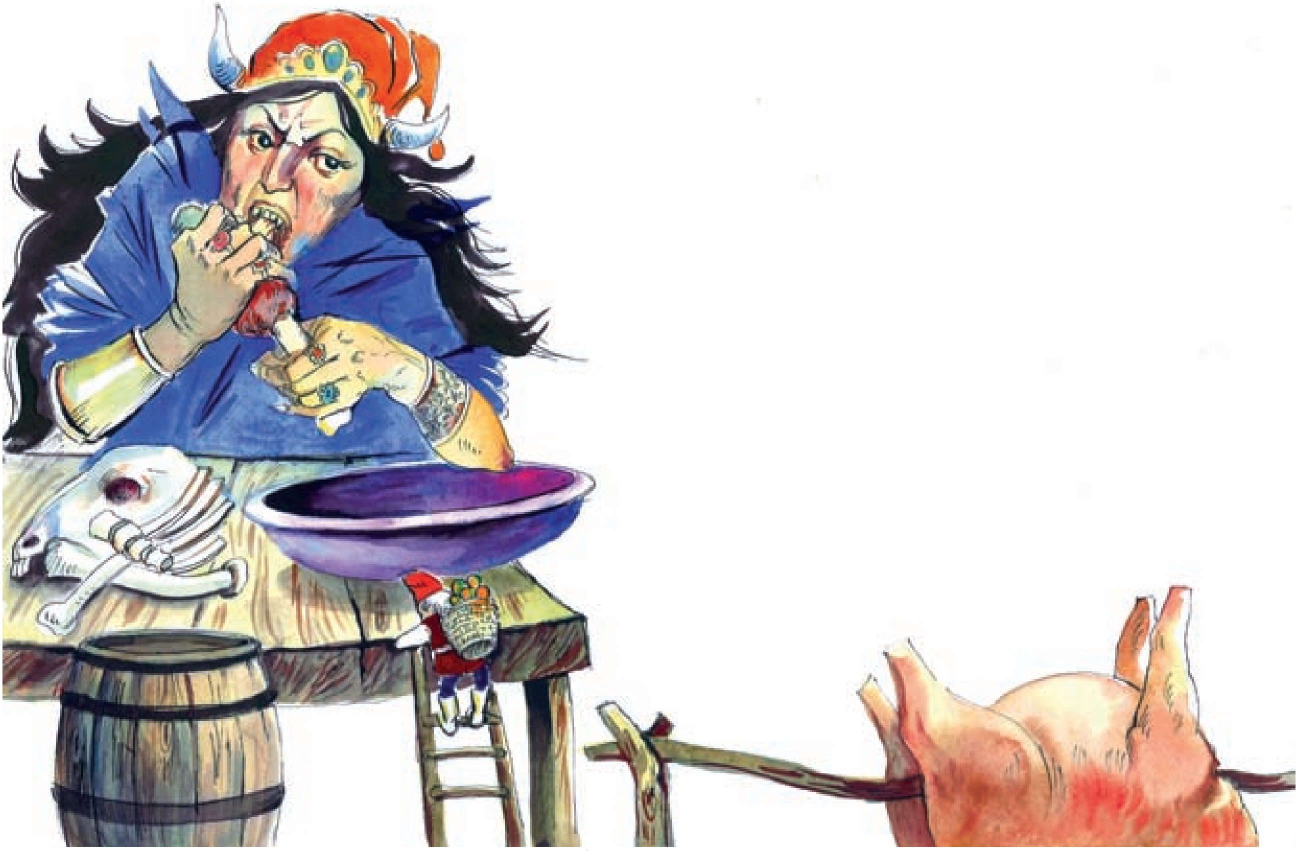
- ليس لدينا شخص بهذا الاسم، يا سيدتي، - تجرّأ وأخبرها كاستاليو. لم يطلق هذا الاسم على أحد في قبيلتنا منذ زمن بعيد.

- هل يعنــي هذا أنني قد استغرقت في نومي وقتــاً طويلاً ؟. سألت أراخْنا مرتابة.

- لقــد نمتِ قروناً طويلة، يا سيدتــي، حسب ما يذكر الناس، - قال القزم العجوز. - إننا لا نعلم متى وكيف غفوت، ولا لماذا كان نومك طويلاً إلى هــذا الحد. ولكننا كنا نذكر دوماً واجباتنا نحوك، وقد أحسنّا السهر على راحتك.

- أشكركــم على الوفاء في خدمتي، - قالت أراخْنا بلا مبالاة. - آمل أنكم ستقدّمون لي الطعام، فأنا جائعة كالوحوش.

كانت طاولــةُ طعام أراخْنا صخرةً مرتفعة، ملساءَ السطح، موجودة على مقربة من مدخل المغارة. لقد ظلّت هذه الصخرة كما هي منذ قديم الزمــان. كان الأقزام يصعدون إليها بواسطة سلالم طويلة. فقد اخترعوا بــذكاءٍ سلسلةَ تتألّف من ألواح من أجــل أن يوصلوا إليها أطباق الطعام. وقد حافظ الأقزام على ذلك كله قروناً بكاملها.



أكلــت الساحرة كل ما كان موجوداً من طعــام احتياطي، ثم طلبت مزيــداً. لقد التهمت أربعة ثــيران مشوية، وثلاثة خِــراف، وسبعة عشر هُدْهُداً، وأربعة وستين حجَلاً ، وأتت على عشرين رغيفاً، وشربت برميلاً كاملاً من الماء. وبعد ذلك قالت بغنج وهي تمسِّد بطنها:

- بعد غداءٍ كهذا، لا بأس بقليل من النوم.

لكنَّ الساحرة ما لبثت أن أدركت أنها نامت طويلاً، فقررت أن تقوم ببعض الأعمال، وتمتمت:

- في جميــع الأحوال، يجب أن أعرف كم من الوقت أمضيت في هذه الغفوة التي فرضها عليَّ غورّيكاب.

طرحــت الساحرة على كاستاليو كثيراً من الأسئلة عن ذلك الساحر العظيم. ولكنّها شعرت بسرورٍ شرّير عندما عرَفت أنّ أحداً في هذه المناطق لم يسمع منذ أجيال كثيرة ولو مجرّد سمعٍ بساحرٍ له هذا الاسم.

– لقد أخطأتَ في حساباتك، يا عزيزي، – قالت أراخْنا وهي تضحك بسخريـــة لئيمة. – أنتَ لم تعد موجوداً في هذه الحياة منذ زمن بعيد، أمّا أنا فما أزَالُ حيّة، ولن يمنعني الآن أحدٌ من أن أُطلِق يدي في هذه البلاد كما يطيب لي.

أخبر كاستاليو الساحرة بأن في الخزانة عدداً كبيراً من مخطوطات هي حوليّات تاريخ البلاد العجيبة. وقبل البدء باتخاذ أية إجراءات حاسمة بحق سكان هذا العالم الصغير النائي، قررت أراخْنا أن تَطّلع على تاريخه. فقد يكــون ظهر هنا ثانية خلال القرون الماضيــة ساحر عظيمٌ، وينبغي عليها أن تحترس منه.

❖ ❖ ❖



حوليّات الأقزام

بدأت أراخْنــا بالقراءة. كانت لُفَافات ورق البُردي مرقّمة، فلم يكن مــن الصعب عليها أن تحدِّد من أين تبدأ. غير أن الساحرة كانت ضعيفة في القراءة والكتابة، لذلك كانت تتقدم ببطء في تنفيذ مشروعها.

تصفّحت أراخْنا قصة العصـــور الغابرة من غيرِ اهتمام. أمّا قصة المــؤرخ عن تنــويم غورّيكاب لها، فقد درستها بجــدٍّ بالغ. لقد عرفت أن الساحــر الطيِّب سمح للأقزام بأن ينقلوا جسدها الهامد إلى المغارة، وأن يعتنــوا به من أجل الحفاظ عليــه قروناً طويلة. إنَّ مــا قرأته عن مدى الحــذر الذي توّخاه رعاياها في سبيــل الحفاظ عليها من تأثيرات الزمن القاتلة جعل شيئاً يشبه الامتنان يساور نفسها بالرغم من قسوتها. فقالت في سرِّها:

– يجب أن أكافئ الأقزام. إنني سأسمح لهم باصطياد ما يحلو لهم من فرائس في غاباتي، وباصطياد ما أرادوا من سَمَكٍ في أنهاري.

كانت أراخْنا تتجاوز قصص تاريخ الممالك والإمبراطوريات الغابرة دون أن تقرأها.

مملكة فيوما، إمبراطوريــة بالاناغار... الفاتح العظيم أغرانات... مــن ذا الذي يأبه لأمر أولئــك الأشباح الذين مضوا إلى عالم الظلال منذ عهدٍ بعيد؟.

بــدأت الساحرة تهتم بالمخطوطات بدءاً مــن اللحظة التي وجدت فيها قصة الأمير بوفارو الذي عاش في البلاد الغربية قبل ألف سنة. كان بوفارو قد قرر القضاء على أبيه، بعد أن رأى أنه أطال في مُلْكه كثيراً. إن نكــران جميل الابن لم يُثِرِ استغراب هذه المرأة الشريرة، فهي أيضاً سرقت

أمَّهــا وسلبتها كل أدوات حرفة السحر. بل أكثر من ذلك، فقد اصطحبت معهــا رعايا أمها الأقزام من العالم الكبــير، وأخذتهم إلى البلاد العجيبة تاركة العجوز تعيش عمرها وحيدة لا حول لها ولا قوة.

راحــت أراخْنا تقرأ بشغفٍ كيــف انتقل بوفــارو ورعاياه المنفيون إلى الأبــد كــي يعيشوا في البــلاد الكئيبة تحت الأرضــ، وهناك أخذوا يستخرجــون المعادن. وقد أُطلِق عليهم اسمُ عمال المناجم نسبة إلى ذلك.

وقــرأت الساحرة بفضول كيف عجز ملك المغارة الأول بوفارو عن اختيار خليفــة له من بــين أولاده السبعة، فعيّنهم جميعاً ورثــةً للعرش. وصاروا يتناوبــون على المُلك، كلٌّ لمدة شهــر. وعندما روى المؤرِّخ ما نجم عن ذلك من هرج ومرج شعرت المشعوِذة بالابتهاج.

سبعــة ملــوك! ولكل منهم حاشيتــه وجيشه وقوانينــه التي يسري مفعولها لمدة شهر واحد، وكذلك ضرائبه التي تُجبى من الشعب...

راحــت أراخْنا تقهقه بصوت عالٍ حتى كاد سقف المغارة أن يسقط فوقهــا. فاضطرت المشعــوِذة لأن تغادر بسرعة إلى الخــارج، فيما تسلَّق الأقزام سلالمهم، وشرعوا بإصلاح السقف.

– يا له من بوفــارو! يا له من فهيم!– كانت المشعوِذة تصيح. – يا لها من حياة مرحة تلك االتي قَدّرها لرعاياه، إني أعجز عن التعبير!

هدأت المشعوِذة عندما قرأت في المخطوطة أنه بعد مرور عدة قرون مــن الحياة الصعبة عُثِر في المتاهــة المحيطة بالمغارة على نبع الماء المنوِّم. كان مــن يشرب منه ينــام مدة طويلة، وعندما يستيقــظ يكون مثلَ طفلٍ حديثِ الــولادة، لا يعرف عن الحياة شيئاً. غير أنَّ تأهيله في الحقيقة، لم يكن يستغرق إلا عدة أيام.

وقــد قرَّر «بللينو» حارسِ الزمن الحكيــم، أن ينوِّم حشود الحاشية الطمّاعــة والجنود والجواسيس، ومعهم الملوك وعائلاتهم طول المدة التي

يكونــون خلالها في منأى عن الحكم. فباتت حيــاة الملوك عيداً مستمرّاً لا ينقطع إلا فــترات من النوم تمتدُّ ستةَ أشهر تطير سريعة وكأنها دقيقة واحدة.

كانــت المشعوذة تنبش اللُّفافات وتُلقيها جانباً دون أن تجد فيها أي شيء يثير الاهتمام. ولكنْ ها هو ذا حدثٌ قديم جذب انتباهها بقوّة إليه. فخلْف جبالِ حول العالم، وراء الصحراء الكبرى وفي قطبين متنافرين من اليابسة كانت تعيش ساحرتان شريرتان هما غينغيما وباستيندا، وأُخريان طيِّبتــان هما فيللينا وستيلا. ولمــا راح البشر يزدادون بمساكنهم قرباً من ملاجئ الساحرات، نظرت الساحرات في كتبهن السحرية، وأُعْجِبن جميعاً بالبلاد العجيبة.

انطلقــت الساحــرات الأربع في رحلتهــن في آنٍ واحــد، وتفاجأن ببعضهــن مفاجأة غير سارّة، حين التقــين وجهاً لوجه في المكان الجديد. لقــد تَجادلْن قليلاً، ولكنهنَّ لم يتجــرَّأن على الدخول في حرب، فتَقاسمْن البلاد العجيبة.

– ليت تلك الثرثاراتِ حاولْن التفكيرَ بالقسمة في حضوري!– صاحت أراخْنا بغضب. – لكنت جعلت حياتهنَّ جحيماً!

استمــر رعايا الساحرات الطيبات يعيشون حياة سعيدة آمنة. فيما كان الحــظُّ المرير من نصيب العلاّكِين في ظل غينغيما، والغمّازين الذين حكمتهم باستيندا.

❖ ❖ ❖

أخبار الماضي القريب

مرَّت قرون أخرى ببطء. كانت أراخْنا لا تزال خلالها تغطّ في السُّبات المسحور، وكانت الساحرات الأربع يحكمن شعوبهن كما يحلو لهن. غير أن حدثاً غريباً وقع قبل استيقاظ المشعوذة. فذات يوم نزل في أثناء العاصفة منطادٌ عملاق من بين الغيوم وحطَّ في مركز البلادِ العجيبة. كانت تتدلّى مـــن أسفله سلَّة تَرجَّل منهـــا رجل يرتدي بِزَّة زاهيـــة وقبَّعة غريبة. دعا القادم نفسه غودفِن، فحسبه سكان تلك المنطقة ساحراً عظيماً، إذ هبط إليهم من السماء، وأخبرهم بأنه صديق الشمس الحميم [٤].

- تفضَّلوا، ها قد ظهر ساحر جديد، - تمتمت الساحرة متذمِّرة وهي تقرأ المخطوطة. - إنهم يتوافدون إلى هنا تَوافُدَ الذباب على العسل.

لقـــد نسيت أراخْنا تماماً أنها بدورها جاءت إلى البلاد العجيبة بلا إذن ولا دستور.

نصَّـــب غودفِن نفسَه حاكماً على البلاد الوسطى. وتمَّ تحت إشرافه بناءُ مدينة جميلة سمِّيت بالمدينة الزمردية، لأنها كانت تتلألأ كلُّها بأحجار الزمـــرد المعشَّقة في جدرانها، وفي أسطح بيوتها، وحتى بين شقوق حجارة الشـــوارع. ومضى غودفِن يُطلِـــق على نفسه اسم ساحـــر مدينة الزمرد العظيم والرهيب.

كانـــت المشعوِذة تزداد تعلُّقاً بالقـــراءة، فأمضت أياماً بأكملها وهي جالسةً تقرأ المخطوطة، حتى إنها كانت تنسى أن تتناول غداءها في الوقت المحدد، وكان ذلك عجيباً إذا ما أخذنا بعين الاعتبار شهيتها للطعام.

---

(٤) انظر حكاية «ساحر مدينة الزّمرّد».

لقــد وقعت أحداث جديدة في البلاد العجيبة. إذ إن العاصفة التي استدعتها المشعــوِذة غنيغيما جاءت بالبيت- المقطــورةِ من وراء الجبال وفيه البُنيَّةُ إيللي وكلبُها الصغير توتوشكا. وقد سقط البيت على الشريرة فسحقها. وفي مغارة غينغيما وجد الكلب الحذاء الفضي السحري وأعطاه لصاحبته الصغيرة.

جــاءت الساحرة الطيبة فيللينا إلى مــكان الحادث، وأخبرت إيللي بأنهــا إذا تمكنــت من تحقيق الأمنية المنشودة لثلاثــة من الكائنات، فإن غودفِــن العظيم سيعيدها إلى موطنها في كَنساســ. عندها انتعلت إيللي الحذاء الفضِّي، وسارت بشجاعة على الطريق المرصوفة بالآجر الأصفر باتجاه مدينة الزمرد، يرافقها توتوشكا المرح.

لم يَطُلِ انتظارُ إيللي اللقاءَ بالكائنات الثلاثة التي كان لدى كل واحد منهــا أمنية منشودة. فقد أنزلت عن عصا منصوبة في حقل القمح دُميةً مصنوعــة من القش كانت تُلقَّب بـ «الفزَّاعة». وقد أعلن هذا الفزَّاعة أن أمنيته المنشودة هي أن يحصل على مخّ.

وبعــد ذلك التقى الأصدقاء في الغابة حطّاباً حديدياً، وكان قد ظلّ واقفاً هناك عاماً كامــلاً يصدأ بفعل الأمطار والظروف الجوية السيئة. وعندما شحَّماه وتمكَّن مــن الكلام، اعترف الحطاب بأن أُمنيتَه المنشودة هي أن يحصل على قلبٍ يُحِبّ.

كان الأســد الجبان ثالث الكائنات التي لها أمنية منشودة. فقد كان فيــه من الجبن والارتباك ما يجعله يخاف حتى من الحيوانات الصغيرة، وأكثر ما كان يتمنّاه هو أن يحصل على الشجاعة.

لقــد تمكن أفراد هــذه المجموعة الغريبة من الوصــول إلى مدينة الزمــرد بعد أن تغلَّبوا علــى كثير من العقبات في الطريق. وهناك أخبروا غودفِن بأمنياتهــم. فأخبرهم هذا العظيم الرهيب أمــام ضيوفه أنه لن

يحقــق لهم أمنياتهم إلا إذا تغلبوا علـــى باستيندا الخبيثة، وجرّدوها من قوتها السحرية.

لقد كانـــت تلك مسألةً صعبة، إلا أنهم تمكَّنوا من النجاح في حلِّها. إذ لمَّا كان مقدّراً على باستيندا أن تهلِك بسبب الماء، فإنها ظلَّت مدة خمس مائة عام لا تغتسل ولا تنظف أسنانها. ولذلك فإن إيللي عندما تشاجرت معها دلقت عليها دلواً من الماء، فذابت المشعوِذة مثلما تذوب قطعة السكَّر في كأس من الشاي.

وحين عادت إيللي وأصدقاؤها الظرفاء الطّرفاء ظافرين، وطالبوا غودفِن بتحقيق أمنياتهم اعـــترف هذا العظيم الرهيب بأنه ليس بساحر أبداً، وأنه ما هو إلا نصّابٌ يُشعبِذُ على الناس. لقد كان يتوارى في قصره بعيداً عن أنظار السَّحَرة الحقيقيين لأنه كان يخافهم أيَّ خوف.

– لقد شكَكْـــتُ منذ البداية بأن هناك أمراً مريبـــاً، – علّقت أراخْنا باعتـــزاز. – فقـــد خُيِّل إليَّ منذ البداية أن هذا الـــذي يدّعي أنه صديق الشمســ يبعث على الشك، وهذا من حسن حظي، إذ نقص عدد أعدائي عدوًّاً واحداً.

ومـــع أن غودفِن كان ساحراً زائفـــاً فإنه أظهر نباهة كافية، إذ منح الفزَّاعـــة مخّاً ذكيّاً من النخالـــة المخلوطة بالإبـــر والدَّبّابيس، فيما علَّق للحطاب الحديدي داخل قفصه الصدري قلباً من القماش محشواً بنشارة الخشـــب. ثمَّ جعـــل الأسد يشرب الشجاعةَ من صحـــن ذهبي كانت تفور وتزبد فيه. وبذلك أصبح الأصدقاء الثلاثة فخورين وسعداء لأن أمنياتهم المنشودة قد تحققت.

سئم غودفِن الاختباءَ من الناس، فعاد إلى كَنساس على متن المنطاد نفسه الذي جاء به إلى البـــلاد العجيبة. ونصّب غودفِن الفزَّاعة الحكيم حاكمـــاً على مدينة الزمرد بـــدلاً من نفسه، فيما عاد الحطاب الحديدي

إلى الغمازيـن وأصبح حاكماً على البـلاد البنفسجية. أمّا الأسد الشجاع فاختارته الحيوانات ملكاً لها.

– يـا لها من نتائجَ طريفـة!. تعجَّبت أراخْنـا عندما عرفت خاتمة مغامـرات أصدقاء إيللـي. – لقد أصبح الجميع شخصيّـاتٍ ذاتَ شأن، حكّاماً وملوكاً. ولكنّ ماذا عن البنت؟ ماذا حدث لها؟

وفيما كانت المشعوِذة تقرأ اللُّفافة عرَفت بأن إيللي عادت إلى البيت. فقد نقلها حذاء غنغميا السحري إلى كَنساس.

نادت أراخْنا كاستاليو– وكان آخر المؤرخين – وسألته بجسارة:

– اسمع، أيها الصغير. هل كلّ ما هو مكتوب هنا عن إيللي وأصدقائها حقيقةٌ أم كذب؟ إن هذا كلَّه يشبه الحكاية!

– أُقسِـم بحيـاة أحفادي، يا سيدتي، إنها الحقيقـة بعينها!. أكَّد لها المـؤرخ.. وما هذا إلا غيضـ من فيض، تابعي القراءة تجدي أموراً أكثر غرابة.

أكلـت أراخْنا ثلاثة ثيران وزوجاً من الخراف، ثم عادت إلى القراءة بشغف جديد، فعرفت من اللفافة التالية بأن نجاراً شريراً وحسوداً يدعى أورْفِن جوس كان يخدم المشعوِذة غينغيما قبل هلاكها... وبعد أن سحقها بيـت إيللي رحل أورْفِن إلى الغابة، وعاش هناك وحيداً، لا يحب أحداً ولا أحد يحبه.

وذات يوم جاءت عاصفة إلى بستانه ببذور نبات عجيب يتمتَّع بقدرة عجيبـة على منح الحياة. وبعد أن نمَتِ البـذور في مشاتل أورْفِن، اقتلع تلك النبتـات وقطفها وجفَّفها على ألواح حديدية، فحصل على مسحوق يمنح الحياة.

صنـع أورْفِن من الخشب جيشاً جنـوده أقوياء، وأطلق عليهم اسم كسّاري السنديان. ثمّ نفخ جوس فيهم الحياة، واستعان بهم فأصبح حاكماً على العلاكين والغمازين، وملكاً على مدينة الزمرد.

حــين وقع الفزّاعة والحطاب الحديدي في أسـر أورْفِن لم يقبلا أن يعترفـا بسلطانه، بل تحايلا وكتبا رسالة إلى إيللي. وبعد أن قطع الغراب كاغي كار مسافة طويلة للوصول إلى كَنساس عثر على تلك الفتاة هناك.

وعندما عرفت إيللي بأن أصدقاءها في خطر مضت لنجدتهم، ولكن ليس بمفردها. فقــد رافقها خالُها البحار ذو الرجــل الوحيدة، تشارلي بليك الماهر في كل المجالات. واجتاز البحّار والفتاة الصحراءَ الكبرى على مــتن سفينة برية ذات عجلات. ثمَّ عبرا جبال حول العالم حتى وصلا إلى البلاد العجيبة.

كانــت الحرب ضد أورْفِن وجنوده الخشبيين طويلة وصعبة، ولكنها انتهــت بانتصار إيللي وأصدقائها. فحُكم على أورْفِن جوس بالنفي. وبناء على اقتراح من الفزَّاعة نُحِتت لكسّاري السنديان وجوه باسمة ومرحة بدلاً من ملامحهم الشرسة. فتحــوَّل الأشخاص الخشبيون إلى عمّال نشيطين خَدومين.

بعــد القضــاء على سلطــان أورْفِــن، عــادت إيللــي وخالها إلى موطنهما.

أشفقت أراخْنا علــى النجّار أورْفِن جوس عندما عرفت بالخاتمة المخزية التي انتهى إليها صعودُه الباهر، إذ إن طبعه الشرير والحسود نال إعجاب المشعوذة.

– عليّ أن أحتفظ في ذاكرتي بهذا الرجل المدبّر. – قالت المشعوذة.

كذلــك حظيَ باهتمام أراخْنا مصــيرُ روف بيلان، كبيرِ المستشارين الحكوميــين لدى الملك أورْفِن الأول. فقد قــام أورْفِن بتقليد روف بيلان هــذا المنصبَ الرفيع لقاء خيانته، إذ خان بيــلان المدينة التي ولد فيها، فاحتال وفتح بوابتها خلســة للأعداء. وحين أطيح بحكم أورْفِن لم ينتظِرْ روف بيــلان أنْ يُجْــزى ما اقترفــتْ يداه من جرائم، بــل هرب إلى بلاد الأنفاق. وبينما كان يلوذ ممَّن يطاردونه ضلَّ طريقه في تلك المتاهة فوجد

نفسه عند نبع الماء المنوِّم. وبمحض المصادفةِ عثر الخائن على فأس وراح يحفــر بها مجرى للماء عبر الجدار الصخري الذي يحيط بحوض النبع، فقطع تدفُّقَ تيار النبع، ومضى الماء يغيض في الأرض [٥].

وعقاباً على هذه الفَعْلة الشنيعة قام الملك الذي كان حاكماً في تلك الحقبة بتكسير وزيــره إلى خادم، بينما أدّى اختفاء المياه المنوِّمة من بلاد الأنفاق إلى اختلال النظــام الذي استمر هناك مئات السنين. أمّا الملوك الذيــن انتهت مــدّة حكمهم، وكان ينبغي عليهــم أن يستسلموا للنوم مدة نصــف عام، فقد راحوا يتسكّعون في أرجــاء القصر برفقة أُسَرِهم، وهم نَهْــبٌ لنوع من الغيبوبة. كما لم يعد ينام أفــراد الحاشية، ولا الخدم، ولا الجنود، ولا الجواسيس أيضاً...

ولمّــا كان على الشعب الكادح أن يُطعِم كل هذه الجموع الجشعة، ولم تكن المــواد الغذائية تكفي الجميع، حلَّتِ المجاعــة بالبلاد. وهنا ظهرت إيللــي فجأة في بلاد الأنفاق. وعندما قــرأت أراخْنا هذه الأخبار أُحسّت بالرضا والسرور:

– يــا لها من بنتٍ باسلة! كل الدلائل تشير إلى أنها ساحرة! أشعر بأني سأضطر لمحاربتها، وأنها ستعترض طريقي!

جاءت إيللي وقريبُها فْريد كانينغ إلى مغارة الملوك السبعة على متن زورق سالكَــين نهراً جوفياً. وقد افــترى روف بيلان على إيللي قائلاً إنها قــادرة على إعادة تدفُّــق نبع المياه المنوِّمة الذي تسبَّــب اختفاؤه بويلات فظيعــة في بلاد الأنفاق. لذلك أعلن الملوك أن إيللي وقريبها سيظلان في الأَسْر إلى أن يعود النبع المقدس إلى الجَرَيان.

بات لا بد من إرسال رسول لاستدعاء الفزّاعة والحطاب الحديدي والأسد وغيرهم من أصدقاء إيللي. فجاء الميكانيكي الماهر ليستار بفرقة

(٥) انظر حكاية «ملوك العالم السفلي السبعة».

مــن كسّاري السنديان الذين اصطحبوا معهم المضخات والمثاقب وغيرها من الأدوات الضرورية.

حفر العمال ثقباً عميقاً في الأرض وأنزلوا فيه الأنابيب حتى وصلوا إلى طبقات الأرض التي تختزن المياه المتوارية في الأعماق. وما إن تدفقت نافورة المياه المنوِّمة من جديد حتى أُعلِن أمام الملوك أن ذلك حدث بفضل سحر إيللي.

- لعلَّ هذا ما حدث حقاً، - تمتمت أراخْنا الشكّاكة...

وعندمــا عادت المياه المنوّمة إلى الظهور في بلاد الأنفاق من جديد، دبَّر الفزَّاعة الحكيم مقلباً ذكيّاً. فقد تم تنويم الملوك السبعة دفعة واحدة، ولم يبقــوا على زمام الحكم في يــد أي منهم. وحين استيقظوا بريئين مثل حديثــي الولادة، أُوحيَ إليهم بأن واحداً منهم كان نساجاً، والثاني حداداً، والثالث فلاحاً... فمضوا يعيشون حياةً كَدْح متواضعة.

وهكذا تم القضاء على سلطان الملوك السبعة، وصارت البلاد حرَّة. وعندهــا انتقل سكان المناجم من الأنفاق إلى سطح الأرض ليعيشوا تحت الشمس المباركة في بلاد العجائب. فبنوا قراهم في جوار العلاكين، وراحوا يعملون بالفِلاحة وتربية المواشي.

وعندما وصلت أراخْنا في القراءة إلى هذا المقطع، تبسَّمت بسخرية خبيثة:

- لقد أصبحتم أحــراراً، إذاً، يا أعزائي، أليس كذلك؟ لا بأس، ولكنَّ يدي ستطالكم، وعندئذ سوف تندمون على ملوككم السبعة.

وخــلال الأيام الأخــيرة من زيارتهــا لعمال المناجــم، التقت إيللي برامنيــا، ملكةِ جرذان الحقول. وقد تنبأت الملكة للفتاة بأنها لن تعود إلى البــلاد العجيبة مــرَّة ثانية. ولمّا علم الفزَّاعة وبقيــة أصدقاء إيللي بهذه النبــوءة حزنوا كثيراً، ووعدوها بأن يحتفظــوا إلى الأبد بالذكرى الطيبة

عـــن الفتاة الصغيرة التي جـــاءت من العالم الكبير وقدمت كثيراً من الخير لشعوب البلاد العجيبة.

أجلَســـوا إيللي وفريد في هودج على ظهـــر التنين الأليف «أويخّو»، فنقلهما إلى موطنهما في كَنساس.

سألت المشعوذةُ المؤرِّخَ:

- قـــل لي يا كاستاليو، هل صدَقَتْ رامينا، وحقاً لم تعد إيللي ثانية إلى البلاد العجيبة؟

- تابعي القراءة، يا سيدتي، - أجابها القزم مُتَنَصِّلاً:

- اقرأي تعرفي كل شيء.

❖ ❖ ❖

إلـه الماران الناري

استأنفت أراخْنا القراءةَ من جديد. كانت المدوَّنة تتحدّث عن أورْفِن جوس مرة أخرى، فتروي كيف أمضى سنواتٍ مملةً في بيته المنعزل في بلاد العلاكين [٦].

ظلَّ أورْفِن يعزق أرض بستانه مدّة عشر سنوات، وفجأة وقع تغير قويٌّ في مصيره. فقد سقط بالقرب من منزله نسرٌ عملاق يُدعى كارْفاكْس، كان قد جُرِح في معركة خاضها ضدَّ نسور أخرى. وعندها أحاط الملك المخلوع برعايته الطبيةِ كارْفاكْس حتى شفيَ، فنشأت بينهما صداقة. وأكّد أورْفِن الماكر لهذا الطير النبيل بأنه لا يفكر إلا بشيء وحيد هو إسعاد الناس الآخرين. إنه يتمنّى أن يصبح ملكاً على شعب متخلِّف يعيش في أسْرِ الحاجة والجهل. وعندها سينعم هذا الشعب بحياة رغيدة في ظل حكم أورْفِن.

كان أكثر شعوب البلاد العجيبة تخلُّفاً هم النطاطون الذين يقطنون في وادٍ منعزل بين الجبال. وكان النطاطون الذين أطلقوا على أنفسهم اسم الماران متخلِّفين عن باقي الأقوام إلى حدٍّ أنهم لم يكونوا يعرفون استخدام النار. وهذا ما استغله جوس المحتال. فقد طار إلى بلاد الماران في الليل، راكباً على ظهر النسر العملاق، مرتدياً وشاحاً قرمزياً، وفي يده مشعل مضيء. وهناك أعلن جوس أنه إله النار الذي هبط من السماء، فانقاد أبناءُ شعب الماران السذَّجُ لسلطانه.

بدأ أورْفِن سياسته باستقطاب الأمير والشيوخ إلى صفّه. فقد بنى لهم بيوتاً دافئة مريحة، بدلاً من الأكواخ التي كانوا يعيشون فيها. كما

(٦) انظر حكاية «إله الماران الناري».

علَّــم جوس نبلاءَ الماران طهْوَ أنواع شهية من الطعام على النار، وعوّدهم على البذخ والولائم، فصــاروا سنداً قويّاً له. لقد جاءهم بالحياة السهلة الرغيدة على حساب البسطاء من الناس.

كان بسطــاء الشعب على وشْك أن يتمرَّدوا، ولكــنَّ أورْفِن استطاع بدهائه أن يوجِّه غضبهم نحو الأقوام المجاورة لهم.

– إن سعادتكم ليســت هنا!– قال أورْفِن للمــاران. – إنني سأقودكم فأخــرج بكم من أرضكم القاحلة الفقــيرة لغزو سهول غنية، فيها بساتين الفاكهة وقطعان الأغنام السمينة. سوف نحتلُّ مساكن الغمّازين والعلاكين المريحة، ونستولي على كنوز مدينة الزمرُّد.

لبَّــى الماران الأشدّاء نداء أورْفِن بحماســة، وشَكّلوا جيشاً قويّاً. ثم أَسَــرَ جوس الحطابَ الحديدي، وأوقع الهزيمــة بالغمَّازين، وقاد الجنود لاحتــلال بلاد الزمرُّد. وكانت مدينة الزمــرُّد في ذلك الوقت قد تحولت إلى جزيرة، فقام كسارو السنديان تحت قيادة الفزَّاعة بحفر قناة عريضة تحيط بها.

وأقــام جنود أورْفِن جسراً فوق القناة، فسقطت استحكامات المدينة أمام هجوم الأعداء. وما لبث كلٌّ من الفزَّاعة، والجندي الطويلِ اللحية دين غيــور، وحارس البوابة فارامانْت أن وجدوا أنفسهم في أَسْر المحتل الوقح من جديد. ومرة أخرى جاء لنجدتهم طفلة وصبي من العالم الكبير.

وعندما وصلت أراخْنا بقراءتها إلى هذا المكان، صاحت مبتهجة:

– آها، لقد كنتُ أعرف أن رامينا أخطأت! فها هي ذي إيللي تظهر في البلاد العجيبة من جديد.

ولكن المشعوذة ما لبثت أن صمتت، إذ تبيَّن لها أن الطفلة هي الأخت الصغرى لإيللي واسمها إينّي. وقد كانت إينّي تصغر أختها بعشر سنوات. وكانــت قد سمعت هي وصديقها تيــم أوكلّلي كثيراً من قصص إيللي عن

مغامراتهـــا العجيبة حتى صار الاثنان يحلمان برحلة إلى البلاد العجيبة، وهـــا هـــي ذي أحلامهما تتحقق. لقد اجتاز الطفـــلان الصحراء الكبرى وجبال حول العالم على ظهر حيوانين غريبين من فصيلة تسمّى البغال. ولم يستطع الأقزام أن يعرفوا أيَّ شيء عن هذا النوع من الحيوانات، ولكنهم أُخبِروا أن البغال تتغذّى بنور الشمس. وقد أمضت إينِّي وتيم بعض الوقت في مملكة الثعالب، بعد أن أسْدَيا خدمة جُلّى للملك السادس عشر مرهفِ الشـــم. وردّاً للجميل أهدى هـــذا الملك إلى الطفلة حلقة فضية (٧) تجعل كلَّ من يلبسها مخفيّاً لا تراه الأنظار.

إن هـــذه الحلقة السحرية، ومعها الصنـــدوقُ السحري القادر على رؤيـــة كل شيء، وهو صنـــدوقٌ حصل عليه الفزَّاعة هديّـــةً من الساحرة الطيبة ستيللا، قد ساعدا إينّي وتيم كثيراً في حربهما ضد أورْفِن الماكر. وبعـــد أن قام تيم وإينّي بتحرير الحطاب الحديدي والأسرى الآخرين من سجنهـــم، انتقل الجميع معاً إلى البلاد البنفسجية التي كانت قد أسقَطت حكم الماران هناك.

سار أورْفِن على رأس جيشه لمواجهة إينّي وأصدقائها. ولكنّ ما حدث هـــو أنه عندما اقترب جيش أورْفِن من القصر البنفسجي كان فريقان من الغمّازين يلعبان المباراة الأخيرة من نهائيات كأس البلاد في الكرة الطائرة (كان تيم أوكيلّي هو من علّم الغمازين لعبة الكرة الطائرة).

كان المـــاران يتقدَّمون باتجاه العدو مفعمـــين إلى أقصى حدٍّ بروح الحـــرب، متعطشين للانتقـــام، إذ كان جوس قد أوغـــر صدورهم بكذبه قائلاً لهم إن الغمازيـــن قتلوا أقاربهم وأصدقاءهم الماران الذين ظلّوا في البـــلاد البنفسجية من أجل الحفاظ على النظام، وإن جثثهم قُطّعت إرْباً ثم أُطعمت للخنازير.

---

(٧) كطاقيّة الإخفاء في الحكايات العربية. – المترجمة.

وإذا بالمـــاران، المسرعين إلى خوض معركة حيـــاة أو موت، يَلْمَحون بين صفوف اللاعبين والمشجعين أصدقاءهم وإخوانهم، وبالضبط أولئك الذيــن قال عنهم أورْفِــن إنهم كانوا قد قُتِلوا بوحشيــة. لقد كان أولئك «القتلى» يضحكون، ويمازحون الغمَّازين، ويتبادلون الكرة معهم بسرور.

أدرك الماران أنهم خُدِعوا، وأن «الإله الناري» ليس إلا محتالاً يحرِّض الشعــوب على بعضهــا بعضاً بُغيةَ السيطرةِ عليهــم. وفي غضون لحظة واحــدة سقط حكم أورْفِن، وفرّ هــذا الإله المخلوع موصوماً بالعار. ومرة أخرى انهارت آماله المتبجّحة في السيطرة.

– آهٍ، مــا أســوأ حظَّ هذا المسكين، – تنهّــدت أراخْنا متعاطفة معه.

– لقد كانت خططه كبيرة، ولكنَّ خبرته ضعيفة...

ثم قرأت المشعوِذة كيف تآخى جنود الجيشين، وراحوا يلعبون بالكرة الطائرة بعد أن شكلوا فريقين مختلطين من الطرفين. أمّا تيم وإينِّي فعادا إلى موطنهما على ظهر بغلَيهما الشمسيين.

حدث ذلك منذ حوالي عام مضى.

❖ ❖ ❖

وساوِس أورْفِن جوس

أمضت أراخْنا عدة أسابيع في قراءة القصة المستفيضة عن الأحداث التي وقعت في البلاد العجيبة خلال العقود الأخيرة. وبعد ذلك تملَّكتْها رغبة عارمة بالعمل. لقد تحسَّرتْ بمرارة على أنها كانت نائمة حين وقوع تلك الأحداث العجيبة هنا.

– آهٍ، لو لم أكن نائمة نومَ أسوأِ حمقاءَ في الدنيا، لكنت أريت كلَّ هؤلاء الحكام، – تنهَّدت المشعوِذة. – ولكانوا عَرَفوا من هي أراخْنا!

كان يتراءى لخيال الساحرة المحبّة للسلطة وشاحٌ إمبراطوري قرمزي، أو – في أسوأ الأحوال – تاجٌ ملكيٌّ. فقد كانت تتصوّر نفسها حاكمةً في البلاد العجيبة، وتُعطي في سريرتها الأوامرَ ليس فقط لواليَيْها المطيعَين، الفزَّاعةِ والحطّاب الحديدي، بل ولهاتين الساحرتين المغرورتين فيلّينا وستيللا.

ذهب عدد من الأقزام الأوفياء، وعلى رأسهم الشيخ كاستاليو، للبحث عن أورْفِن جوس بغية اصطحابه إلى مغارة أراخْنا. فهل تمكّنوا من إنجاز هذه المهمة، وهل قبِل الملك المخلوع بأن يعمل في خدمة هذه المشعوِذة الشريرة؟

سيكون علينا، من أجل أن نعرف الجواب، أن نعود عاماً واحداً إلى الوراء، كي نرى كيف تعايش الحاكم المخلوع مع هزيمته الثانية.

لم يكن الماران ولا الغمازون يرغبون بقتل هذا المحتال، بل اكْتَفَوْا بطرد إله النارِ الدعيّ، وتشييعِه بالصفير، والصراخ، والسخرية. وقد تخلَّى دعّاس الوفيُّ عن سيِّده، واختفى في زحمة هذه الفوضى المهرّجُ الخشبي آوت لينغ، المخلص لأورْفِن، ولم يبقَ مع جوس إلا البومة غواموكو.

كانت البومة تهمس في أذن أورْفِن وهي ترتقي كتفه:

– لا بأس، لا تستسلمْ للإحباط، تماسَكْ!... سوف يأتي وقتنا يوماً فنريهم، هؤلاء الساخرين...

كان أورْفِن يدرك أن ذلك ليس إلا كلاماً فارغاً، وأنه لا يُقال إلا من أجل رفع معنوياته، ولكنه كان ممتنّاً للبومة على كلمات العزاء.

كان خجلٌ لا يُحتَمل يحرق قلب أورْفِن. وراح يتذكر الماضي. فقبل بضعة أشهر فقط كان قد ظهر في ظرف استثنائي أمام النطاطين وهو يركب ظهرَ نسر عملاق، ويرتدي وشاحاً ناريَّ اللون، وفي يده مشعل مضيء. يومها سرعان ما اعترف هؤلاء السّذَّج به إلهاً بكل بساطة، ووضعوا مصيرهم في يديه.

فما هو الخير الذي قدَّمه لهم؟ لقد جعل الأثرياء منهم أكثر ثراءً من ذي قبل، والفقراء أشدّ فقراً، وزرع في قلوبهم الطمع بأرزاق الغير، وقادهم لمحاربة جيرانهم. ثمّ انتهى به ذلك كلّه إلى هذه المصيبة...

ماذا كان عليه أن يفعل؟ فما من شخص في البلاد العجيبة كان يمكن لأورْفِن أن يعدَّه صديقاً، ولم يكن لديه من ملاذ. حتى بيته المتواضع الواقع بالقرب من قرية كوغيدا كان قد حرقه يوم رحيله على ظهر كارْفاكْس قاصداً شعب الماران. وها هو ذا أورْفِن يسير نحو المجهول خاويَ اليدين، فارغَ الجيبيْن. لقد بقيَ كلُّ ما كان يملكه عند النطاطين، في قافلة الجيش: فراشه، وثيابه الدافئة، وسلاحه، ومعدّاته...

هل يعود ويطلب أغراضه؟ بالطبع، إن الماران الشهماء سيردُّون له أغراضه، ولكن كيف له أن يسمع سخريتهم، أو ما هو أسوأ منها، أن يسمع شفقتهم؟.. كلا، إنه لن يحتمل ذلك! وعندها كزَّ أورْفِن على أسنانه متجهِّماً، وراح يسرع الخطا عابساً، ويبتعد عن القصر البنفسجي.

«لم يسبق أن مات أحد من الجوع في البلاد العجيبة، – فكّر جوس.

– وهنــاك على الأشجار ما يكفي من الثمــار، أمّا الأغصان اللازمة لبناء كوخ للنوم في الغابة فيمكنني تكسيرها بيدي».

تذكَّر أورْفِــن، بعد أن هدأ قليلاً، أن الضيعة التي كانت له في بلاد العلاكين يوجد في باحتها قبوٌ يحتوي على مجموعة احتياطية من معدّات النجــارة، بما في ذلك فأسٌ ومناشــيرُ وفاراتٌ وأزاميلُ ومثاقب. ولئن كان البيــت قــد احترق فلا شــك في أن القبو لم يُصَب بــأذى، وهذا يعني أن الأدوات مــا تزال سليمــة أيضاً، والعلاكون الشرفــاء لم يمسّوا شيئاً، كان أورْفِن متأكداً من ذلك.

«ليكنْ، – فكر أورْفِن بابتسامة ساخرة، – لقد كنت في حياتي نجاراً مرَّتين، وملكاً مرتين. وسيكون عليَّ أن أكون نجاراً للمرة الثالثة، والأخيرة الآن...».

تقاســم أورْفِن الرأيَ حول نواياه مع البومــة التي كانت مستشارته الوحيدة، فباركت غواموكو تلك النوايا:

– لم يبــق لنا مانفعله يا مولاي،– قالت البومة. – فلنعُد إلى مزرعتك، ولنبنِ منزلاً نعيش فيه إلى أن تتاح لنا فرصة ما.

– آه، يــا غواموكو، يا غواموكو، – تنهَّد أورْفِن، –عبثاً تواسينني بآمال فارغــة. فأنا لم أعد شابّاً، وليس عندي ما يكفي من القوة للانتظار عشر سنوات كــي تقع أعجوبة جديــدة. وإنّي لأرجوك ألا تناديني بكلمــة «مــولاي». فأيُّ مولى أنا الآن، ومن ذا الــذي يأتمر بأمري؟ ناديني بكلمة سيِّدي فقطّ!

– أمرك، يا سيِّدي،– ردّت غواموكو طائعةً.

ومضى أورْفِن متَّجهاً نحو الغرب بخطا حازمة.

كانت رحلة أورْفِن جوس إلى البلاد الزرقاء رحلة شاقة. إذ كان هذا المسافر يقضي الليالي في الغابــة فيطمر نفسه في أوراق الشجر اليابسة ليحتمــي من برودة الليل، أو يبني كوخاً بسيطاً. ولم يكن بإمكانه أن يشعل

النـــار، لأن ولاعته الشهيرة بقيت أيضاً في قافلة الماران. فكان يقتات على الفواكـــه وسنابل القمـــح التي يقطفها من الحقــول. وكانت غواموكو قد جاءتـــه عدة مرات بطيور الحجل التي كانت تصطادها، غير أن أورْفِن لم يكن يستطيع أكلها نيئة، فكان يعيدها إلى غواموكو متنهداً.

أصيب أورْفِن جوس خلال سفره بنحول شديد، وغارَ خدَّاه الأسمران، وخُيِّـــل إليه أن أنفه الكبير بـــات أكبر حجماً ممّا كان، وبدا بارزاً مثلَ برج فوق فمه الغائر. وغطَّت وجهَ أورْفِن خصلات لحية خشنة، فلم يكن لديه ما يحلقها به.

كانت أفـــكار أورْفِن عن الماضي ثابتة تتبادر إلى ذهنه طول الوقت. هل كان سعيداً، يا ترى، حين كان يحكم البلاد العجيبة؟

«كلا، لم أكـــن سعيداً،- اعترف الملك المخلوع أمام نفسه. - لقد كنت أستولي على السلطة بالقوة، وأسلب الناس حريتهم فكرهوني كلُّهم. وحتى مَـــن عيّنتهم مِن حاشيتي في مناصب رفيعة كانوا يتظاهرون مجرَّد تظاهر بأنهـــم يحبّونني. وكان المتملّقون والمنافقون يُغدِقون عليَّ المديح في أوقات الولائم، ولكنَّ ذلك لم يكنْ إلا من أجل الحصول منّي على وسام أو صَدَقةٍ ما. لقـــد نهبتُ مدينة الزمـــرد، فاقتلعتُ الأحجـــار الكريمة من جدران منازلها وأبراجها، وكنت أُقْذَف بقطع الآجُرّ عندما كنت أسير في الشوارع، فلماذا كنتُ أصبو إلى السلطة، إذاً،؟ لماذا؟...».

ولم يكن أورْفِن يجد جواباً على هذا السؤال.

اجتـــاز أورْفِن النهـــر الكبير على متن طوفٍ مـــن أخشاب مربوطة كيفمـــا اتفق. وإذا به يتذكَّر فجأة، ومن غير ما مناسبة، كيف وجد جيشُه الخشبي نفسَه في عُرْضِ الماء وقتَ الحملة على مدينة الزمرد.

«ليـــت النهر أخذ ذلك الجيش يومهـــا... تبّاً لمسحوق الحياة اللعين ذاك! لماذا وقع بين يدي؟ فمنه بدأ كل شيء...».

شعر أورْفِن بارتياح عندما بلغ أخيراً الطريق المعبَّدة بالآجُرّ الأصفر. كانت الطريق تتألّق أمامه مرحِّبة وكأنها تدعوه إلى مزيدٍ من السير قُدُماً إلى الأمام. وكلَّما اقتربت أراضي موطنه الأم، كان حتى الهواء يبدو لأورْفِن أكــثر نقاءً وعبقاً ممّا في بلاد الغُربة. بل وحتّى العلاكون الرقيقو القلوب الذين كان يصادفهم في طريقه، لم يعاملوه، وهو الملك المخلوع، معاملة سيّئة.

وأكــثرَ من مرَّة كان الناس البسطاء الذين يلبسون ثياباً زرقاء اللون، وقبّعاتٍ مخروطيّةً عاليةً مزدانة بالأجراس، يدعون هذا المسافر المتعَب إلى بيوتهــم الصغيرة الزرقاء خلف أسوار زرقاء. وعلى طاولة صغيرة يغطِّيها قماشٌــ أزرق كانت تُقدَّم أنواعٌ من الطعــام الشهيّ في أطباق زرقاء، فيما تَجهد ربَّة المنــزل مبتسمةً لإكرام الضيف الــذي أنهكه الجوع. بل وبات أورْفِن ليلتين أو ثلاثاً في تلك البيوت الزرقاء المريحة...

وهكذا بدأت روح أورْفِن القاسية تلين شيئاً فشيئاً.

«كيــف جرى ذلك؟!– كان يفكر بندم بعد فــوات الأوان. – ما أكثرَ مــا سبَّبتُ من شرور لهؤلاء الناس الطيبينَ، فلــم أكن أحلم إلا بالسيطرة عليهــم وظلمهم، أمّا هم فقد نسوا كلّ ما أوقعت بهم من أذى، وهاهم ذا يعاملونـنــي بكل هذا اللطف... أجلْ، يبدو أنّنــي لم أعش حياتي كما كان ينبغي عليَّ أن أعيشها...».

ولكــن جوس لم يكن يتجرّأ على أن يتشاطــر هذه الأفكار والمشاعر الجديــدة البومةَ الداهية الماكرة. لقد كان يدرك أنها أفكار لن تنال رضا هذا الطائر الشرير.

وفي ظهيرة يوم جميل وجد المسافر أورفن نفسَه في منزله الذي تحوَّل إلى رماد. لم يكن باقياً من ذلك البيت سوى قطع فحم فتّتَتَها الأمطار. إلا أن أورْفِن سُرَّ حين رأى القبو لا يزال على حاله، وأن قفل بابه لم تمسَّه يد. وعندما خلع جوس الحلقة وفتح الباب تحقق من أن طقم معدّاته المتنوعة ما يزال كما كان. وإذا بدمعة تسيل على خدِّه النابت الشعر...



- أيُّهــا العلاكون، أيُّها العلاكون،- همس أورِّفِن متنهداً. - الآن فقط بدأت أدرك كم أنتم طيبون... وكم أنا مذنب أمامكم!

كان أورِّفِن قد قرر، وهو بعدُ في الطريق، أن يختار مكاناً يعيش فيه بعيداً عن كوغيدا، وأقرب إلى جبال حول العالم.

«فلينسَ الناس شروري، - جال في خاطر الحاكم السابق للبلاد العجيبة. - سيكون النسيان أسرع إذا ما تواريتُ عن أنظارهم، وانصرفتُ إلى مكان بعيد...».

وقبـل أن يغـادر أورْفِــن مزرعته الغالية، خطر في باله أن يمرَّ بكل زواياها، ويودِّع حواكيرها التــي لطالمــا أولاها كثيراً مــن الرعاية والاهتمام.



عندما وصل أورْفِن إلى الأرض البور التــي يفصلها عن المزرعة سور خشبي، شهق ووضع يــده على قلبــه. كانت نباتات خضراء زاهية، ذاتُ أوراق ثخينة متطاولة وسوقٍ شائكة تنمو في زاوية نائية.

- إنهــا هي!! – صــاح أورْفِن بصوتٍ أصم.

أجلْ، إنها تلك النباتات العجيبة التي كان قد حصل منها على مسحوق الحيــاة قبــل سنــوات عديــدة. هل استيقظت بذورهــا الراقدة عميقاً في الأرض بعد طول سُبــات؟ كلا، وأغلب الظن أن الريح هي التي جاءت بها ثانية. ثم تذكَّر أورْفِن أن عاصفة قوية هبَّت قبل يومين وكانت محمّلــة بالمطر والبَرَد. وقد اضطُرَّ أن يحتميَ منها تحت شجرة وارفة الأغصان في عمق الغابة.

- طبعـــاً، إنها فَعلة العاصفة مرة أخرى، - قـــال أورْفِن، فيما راحت البومة غواموكو تنعق بسرور.

تملَّك أورْفِن جوس إغواءٌ عظيم. ها هي ذي المعجزة، المعجزةُ نفسها التي تكلمت عنها غواموكو في أثناء طريق العودة إلى البيت. وما من حاجة لانتظارها عشـرة أعوام، إنها هنا، أمام عينيه. مــدَّ أورْفِن يده إلى ساق إحدى النبتات وسحبها بسرعة، متحاشياً شوكة حادّة.

وهكذا، سنحت له فرصةٌ أُخــرى أن يبدأ مِنْ جديد. إنه الآن، بعد أن باتت لديه خبرة كبيرة، لن يكرر أخطاءه الماضية. إنه يستطيع أن يصنع خمس مائة... لا بل ألفاً من كسّاري السنديان الأقوياء المطيعين. بل وليس فقــط من كسّاري السنديان، بل يستطيــع أن يصنعَ ما لا يؤثِّر فيه شيء: غيلانـــاً تطير، وتنانين من خشب! وســوف تحلِّق في الجوِّ بسرعة وتنقضُّ مثلَ عاصفة مباغتة على رؤوس الناس المرعوبين! لقد دارت هذه الأفكار كلُّها في ذهن أورْفِن بلمح البصر. فألقى نظرة إلى البومة بسرور.

- ما رأيك، يا غواموكو، بهدية القدر الجديدة هذه؟

- ما رأيي، يا مولاي؟ حضِّرْ أكثر ما تستطيع من مسحوق الحياة، وهيّا إلى العمل! الآن سوف نريهم، أولئك الساخرين!

غــير أن تأملات أورْفِن الطويلـــة وهو في طريق العودة إلى الوطن لم تذهـــب سدىً بالنسبة إليه. كان قد تغير شيء ما في نفسه. فلم تُغْرِه هذه الفرصـــة الرائعة التي سنحت له من جديد. بل جلس أورْفِن على جُذْمور وفكــر طويلاً وهو يدقِّق النظر بقطرة دمٍ سالت على إصبعه التي وخزتها شوكة.

- إنه الدم... - مضى يهمس. - مرّة أخرى دماءٌ، ودموعُ بشرٍ، وآلام. كلا، يجب وضْعُ حدٍّ لهذا كلِّه مرّة وإلى الأبد!

أحضـــر أورْفِـــن رفْشاً مـــن القبـــو واستأصل جميـــع النباتات من جذورها.

- أعرفــكِ، أيَتها النباتات، - تمتم بغضب. - إنني إذا ما تركتكِ هنا، مـــلأتِ المنطقة كلّها، ثمَّ يكتشف أحدٌ مـــا قوَّتكِ السحرية فيرتكب الحماقات. تكفيني مرّة واحدة!..

شعرت البومة بالإحباط بسبب القرار الفجائي الذي اتّخذه سيدها، وظلت ترجوه طويلاً ألا يرفض الحظ السعيد الذي ابتسم له من جديد.

- حضِّرْ ولـــو حُفنة من هذا المسحوق، من بـــاب الاحتياط، - راحت تزعق غاضبةً. - من يدري ما قد يحدث؟.

وقد رفضـــ أورْفِن هذا الطلب أيضـــاً. كان تجفيف النباتات على صفائـــحَ معدنيَّةٍ يتطلَّب وقتاً طويلاً فأحرقها أورْفِن بالنار. وعندما لم يبق مـــن النباتـــات السحرية سوى الرماد، طمره عميقـــاً في التراب. ثم صنع عربـــة حمل فيها كل مـــا بقي في القبو من أغراضـــ، وانطلق في رحلته. فظلّت غواموكو الغاضبة في المزرعة.

ولكـــنّ بعد مرور حوالي ساعتـــين سمع أورْفِن خفْـــق أجنحة، وإذا بالبومة قد لحقت به.

- أتدري، يـــا سيِّدي،- اعترفت غواموكو بخجـــل،- أعتقد أنك على حـــق! إذ لم يجلـــب لنا مسحـــوق الحياة أيَّ خير، وقـــد أصبتَ حين رفضت العودة للبدء بتلك القصة من جديد.

بالطبـــع، كانت غواموكو تراوغ، فلم يكن من السهل عليها أن تتبدَّل بهـــذه السرعة نحو الأحسن. كلُّ ما في الأمـــر أنها اعتادت خلال حياتها الطويلـــة أن تعيش بين الناس، وسوف تشعر بالملل إذا ما اضطرّت للعيش وحيـــدةً في الغابة. كان أورْفِن يدرك ذلك جيـــداً، ولكنه كان مسروراً في جميع الأحوال، إذ كان صعباً عليه أيضاً أن يقضيَ عمره منفرداً.



أمضى الرجل والبومة بضعة أيام وهما في الطريق إلى الجبال. وحين باتا على مقربة منها وقع نظر أورْفِن على مرجٍ بديع يشقُّه نهرٌ رقراق، وعلى ضفتيه أشجار مثقَلة أغصانها بالثمار.

– هذا مكان جيد للسكن، – قال أورْفِن، فوافقته البومة.

هناك بنى أورْفِن جوس لنفسه كوخاً وسوّر الحقل. وراح يقضي أيامه بالعمل والرعاية، فشرعت ذكريات الماضي الثقيلة تمَّحي من ذاكرة هذا الطريد.

وهناك أيضاً عثر رسل أراخْنا على أورْفِن جوس بعد مضي عام. لم يكن ذلك عملاً سهلاً. إذ كان الأقزام بالغي الصغر، وأرجلهم قصيرة جداً، ومهما أسرعوا ما كان بإمكانهم أن يقطعوا أكثر من ميلين أو ثلاثة أميال في اليوم الواحد. كما لم يكن إيجاد مسكن أورْفِن الجديد بالأمر السهل. ففي البداية جاء كاستاليو ومرافقوه إلى البلاد الزرقاء، وهناك أخبرهم العلاكون بأن جوس قد غادر موطنه.

وعندئذ كان لا بد من توجيه السؤال إلى الطيور والحيوانات. وأخيراً، بعد رحلة طويلة وشاقّة استغرقت شهراً كاملاً، وصل الأقزام مسرورين إلى المرج البديع الذي كان أورْفِن قد أقام فيه كوخه الجديد.

تعجَّب جوس كثيراً عندما رأى عند قدميه رجالاً صغاراً لهم لحى شيباء. لقد عاش في البلاد العجيبة مدة أربعين عاماً ولم يسمع يوماً بوجود الأقزام. ولكنه كان يعرف أن عجائب البلاد العجيبة لا نهاية لها، ولذلك حيّا الزوار الفجائيين باحترام، واستفسر عمّا يريدون منه.

ولكنْ ما إن فتح كاستاليو فمه ليتكلم حتّى خرَّ فجأة منهَكاً على الأرض. وقد تكرَّر الأمر نفسه مع الأقزام الآخرين.

ضرب أورْفِن جوس جبينه بيده قائلاً:

– يا لي من أحمق! فقد بدأتُ الحديث معكم فوراً عمّا تريدون، فيما



أنتم متعبون، جائعــون. أرجو منكم المعذرة، فقد توحَّشتُ تماماً في عزلتي هنا...

وبعــد مائدة عامرة وقسط من الراحة، عــرَف أورْفِن من كاستاليو الغايــةَ من قدومهــم إليه. كما روى له كاستاليو مَن هــي أراخْنا، وحدَّثه عــن السبب الذي جعــل الساحر الجبّار غورّيــكاب ينوّمها منذ العصور الغابــرة. ولم يُخْفِ عنه أيضاً نوايا المشعوذة في الاستيلاء على السلطة في البــلاد العجيبة، وأنها تنتظر المساعدة من أورْفِــن جوس الذي سبق له أن تمكــن من الاستيلاء على مدينة الزمرد مرَّتين. وعندما أرسلت أراخْنا الأقزام إلى أورْفِن، لمَّحت إلى أنها ستكافئ بسخاء من يمدُّون لها يد العون، فتعيِّنهم حكّاماً وولاةً على ما تفتح من بلدان.

لاذ أورْفِن جوس بالصمت طويلاً. لقد عاد القدر يغويه بشدة من جديد. يكفي أَن يعمل في خدمة المشعوِذة الشريرة حتى يصبح مرة أخرى حاكماً على مدينة الزمرُّد، أو على بلاد الماران فيردُّ لهم الصاع صاعين على ما ألحقوا به من إهانات. ولكنِ السؤال: هل الأمر يستحق ذلك؟ إنه مرَّة أخرى سيستلم زمام السلطة بالقوة، ومرَّة أخرى سيكرهه الشعب المظلوم...

إن العام الذي أمضاه وحيداً، وأعاد فيه النظر بأشياء كثيرة، لم يذهب هدْراً. رفع أورْفِن رأسه وقال بحزم وهو ينظر في عينّي كاستاليو:

- كلا! لن أعمل في خدمة سيدتكم!

لم يتعجَّب كاستاليو حين سمع هذا الجواب من أورْفِن، ولكنه رجاه:

- أورْفِن المبجّل، هل لكَ أن تقول هذا بنفسك لسيدتنا؟.
- ولِمَ ذلك ؟ - تساءل جوس. - ألا تحسنون نقل كلماتي إليها؟.
- إنَ المشكلة تكمن، - أوضح القزم. - في أن سيدتنا قالت لنا إننا إن لم نأتِ بكَ إليها، فهذا يعني أننا خدم سيئون، لامبالون. وعقاباً لنا على عدم تنفيذ المهمة الموكلة إلينا سوف تحرمنا من حق الصيد في غاباتها، واصطياد الأسماك في أنهارها مدة شهر كامل. على كلِّ حال، سوف نزيد شَدَّ أحزمتنا، ونتدبر أمورنا على نحوٍ بما نملك من مخزون.

تضاحك أورْفِن ساخراً:

- ولكن ألا يمكنكم أن تصطادوا في الغابة، وتصيدوا الأسماك خفية عن سيدتكم؟ إنكم على قدْرٍ كبير من ضآلة الحجم والرشاقة، ولن تستطيع الإحاطة بتحركاتكم.

اتّسعت عيون كاستاليو وباقي الأقزام من الرعب:

- أن نسرق الطرائد والسمك؟! - صاح كاستاليو بصوت يرتعش. - أيها المبجَّل أورْفِن، أنتَ لا تعرف قبيلة الأقزام! إنها موجودة منذ آلاف السنين، غير أنه ما من أحد منّا نقضَ عهداً، أو غشَّ أحداً في يوم من الأيام. إننا نفضِّل الموت جوعاً...



تأثر أورِّفن بذلــك وأخذ كاستاليو بين ذراعيه القويتين، وضمّه إلى صدره بلطف.

- أيهــا الناس الصغار اللطفاء! – قــال لهم بمحبة. – سأذهب معكم وأتفاهم مع أراخْنا بنفسي كي لا أكون سبباً في أذيَّتكم. آمل أنها لن تعاقبكم على رفضي أن أكون مساعداً لها؟.
- نحن لسنا مسؤولين عن سلوكك، – أوضح له كاستاليو بوقار.
- غداً سننطلق في رحلتنا،– قال أورِّفن. – أما اليوم فينبغي عليكم أن تستريحوا جيداً.

ولكــي يُسلِّــي ضيوفه،أخرج أورِّفــن من كوخه كومــةً من الألعاب وبسطها أمام الأقزام. كانت تلك الألعابُ دُمىً خشبية، ومهرِّجين، وأشكالَ حيوانــات. لقد لوَّنها هذا الصانــع بألوانٍ بهيجة، وكانــت وجوه الدُّمى والمهرجــين تبتسم، و حيوانات الرَّنَّة والأيِّل على قدْر من الرشاقة، خفيفة وكأنهــا على أُهبة الجري. ما أشدَّ ما كانت هذه الدُّمى البهيجة الوضّاءة تحت الشمســ تختلف عن تلك الدُّمى الكئيبةِ الحزينة التي كان يصنعها أورِّفن فيما مضى من أجل أن يخيف بها الأولاد!

- لقد كنت أصنعها في أوقات الفراغ، – أوضح أورِّفن بتواضع.
- ما أروعها! – صاح الأقزام.

وراحــوا يتلمَّسون هــذه الدمى والحيوانات، يُمعِنــون النظر فيها، يضمّونها إلى صدورهــم بحنان، ويمسّدونها. كان واضحاً أن هذه الدُّمى البديعــة أخذت بألبابهم. وقد امتطى أحدُ الشيــوخ أيّلاً خشبيّاً، ومضى آخــرُ يراقص الدُّمية الــدُّبّ. كانت وجوه الضيوف تتألــق بنشوة الفرح، وإن كان لا بــدَّ من الاعتراف بأن الدُّمى كانت كبيرة عليهم بعض الشيء، بالمقارنة مع قاماتهم.

عندما رأى أورِّفن فرحة الأقزام قال لهم بأريحيَّة:

- هذه الدُّمى لكم! احملوها إلى بلادكم، وليتسلَّ بها أطفالكم.

كانت فرحة الأقزام لا توصف، ولم يعرفوا كيف يشكرون أورْفِن.

وفي اليوم التالي انطلقت المجموعة في رحلتها. ولكن ماهي إلا مائة خطـوة من المسير حتى شعـر جوس بأن هناك خللاً مـا. لم يكن الأقزام مشـاة جيدين أصلاً، أمّا وقد أُثقِلت كواهلُهم بهذه الدُّمى التي تكاد تكون بحجمهم، فقد راحوا يلهثون، وينفخون، ويجرّون أقدامهم بصعوبة، ولكنهم لم يشـاؤوا التخلّي عن هداياهم بأيِّ حال من الأحوال. كانت المسافة التي يقطعهـا أورْفِـن في دقيقتين تتطلب منهم عشريـن دقيقة. وعندما نظر أورْفِن إلى الأقزام اللاهثين، المتعرِّقين انفجر بالضحك.

- كلا، أيُّها الشيوخ الأعزاء، إن الأمور لن تسير على هذه الشاكلة. كم من الوقت أمضيتم في طريقكم إليّ؟.
- أمضينا شهراً، - أجاب كاستاليو.
- أما الآن فسوف نسير عاماً.

عـاد أورْفِن إلى المزرعة وأخرج العربة من المستودع، ثم أجلس فيها الناس الصغار ومعهـم الهدايا، وراح يسير بخطا رشيقة واثقة وهو يدفع العربة أمامه. كان الأقزام في قمة السعادة.

لم تستغرق رحلة جوس إلى مغارة أراخْنا إلا ثلاثة أيام فقط.

وبينما كانـت أراخْنا تنتظر مجيء أورْفِن وروف بيلان إليها، قررت أن تمتحن قدراتها في الشعوذة. إذ كان لا بد لها من أن تتأكد ما إذا كانت شعوذتهـا لا تـزال محتفظة بقدراتها الشريرة قبـل أن تشنَّ الحرب على شعوب البلاد العجيبة.

إن القـراء يتذكـرون، طبعاً، أن أراخْنا كانـت تتمتع بقدرة سحرية على التقمُّص والتحوُّل إلى أيِّ حيوان، أو طير، أو شجرة... وكان ذلك أوّلَ سلاح للانتصار على الأعداء. وها هي ذي أراخْنا تتأكد أنها لم تعد تمتلك هذه القدرة الآن. كانت تلك مصيبة كبيرة بالنسبة إليها.

كيف أمكن لذلــك أن يحدث؟ المشكلة هي أن التعويذة كانت صعبة وطويلــة جداً، وسرِّيَّة، حتى إن أراخْنــا كانت تخاف أن تدوِّنها، خَشية أن تقع في أيدي الأعــداء. وذات مرَّة نسيت هذه التعويذة فيما كانت نائمة! وكيــف لا، والنوم مدةَ خمسة آلاف سنة ليس غفوةَ قيلولةٍ بعد الغداء! إذ يمكن للمرء في هذه الحالة أن ينسى حتى اسمه.

نعم، لم يعد في مقــدور أراخْنا أن تتحول، وهي تقاتل أعداءها، إلى سنجــاب، أو أسد، أو شجرة بلــوط قوية، أو طائر سنونو سريع. لم يعد في مقــدور المشعوِذة بعد الآن أن تعتمد إلا على قامتها العملاقة وعلى قوتها فقط.

وقــد تبيّن كذلك أن أراخْنا قد خسرت بعضاً من قدراتها السحرية الأخــرى أيضاً، ولكنها كانت لا تزال تحتفــظ بإمكانات كافية تسمح لها بإيقاع الأذى بالناس. فهي، على سبيل المثال، لم تفقد قدرتها على استدعاء الزلازل، والعواصف، وغيرها من الكوارث الطبيعية.

- لابأســ، ما زال أمامنا حرب،- قالت المشعوِذة لنفسها مطمئنَّة حين سقطــت صخرة من أعلــى الجبل، استجابــة لأوامرها، وتحطَّمت متناثرة آلافاً من القِطع.

أجــل، لقد كانت المشعوِذة الشريــرة أراخْنا خصماً رهيباً، وويلٌ لمن يتجرّأ على مواجهتها!

في هــذه الأثناء وصل أورْفِن جوس إلى وادي أراخْنا ومعه في العربة سرب الأقزام الفرحين. وبعــد أن دلَّ الشيوخُ الصغارُ الحجمِ أورْفِن على مدخل المغارة، مضوا يركضون بأسرع ما أوتوا من قوة نحو بيوتهم المخفيَّة بين شجــيرات وتحت صخور كبيرة، ونادوا الأطفــال الذين كانو غاية في الصغر ليعطوهم هدايا العمِّ الطيب أورْفِن...



وهنـــا لا يسع المؤلف إلا أن يضع قلمه جانباً، لأنه يعجِزُ عن وصف فرحة أولئك الصغار. فعلى مدى آلاف السنين من وجود قبيلة الأقزام لم يتسنَّ لأطفالهم أن يروا دُمىً بهذا الجمال...

دخل أورِّفِن جوســ مغارة أراخْنا غيرَ متعجِّلِ الخَطو، وانحنى أمام الساحرة بكبرياء.

- ماذا تريد السيدة؟ - سأل جوس.

كان أورِّفِن قد عاهد الأقزام على أن يتظاهر بأنه لا يعرف أيَّ شيء عن سبب إرسال الساحرة في طلبه. كما أنه لم يشعر بأيّ خوف عندما رأى الساحرة الشريرة بقامتها العملاقة، وحاجبيها الكثّين المعقودين بغضب.

- هل تعرف من أنا؟.

- لقد أخبرني عنك القزم المحترم كاستاليو.

- إذاً، فأنــتَ تعرف أنني نمت مدة خمســة آلاف سنة، وأنَّني أشتعل رغبةً للبــدء بالعمل! إن أول ما أنوي عَمَلَه هو الاستيلاء على حكم البلاد العجيبة، وربّما أنتقل بعد ذلك إلى ما وراء الجبال.

هزّ أورِّفِن رأسه الذي وَخَطَهُ الشيب، متشككاً.

- لقــد حاولتُ مرَّتــين أن أصبح حاكماً على البــلاد العجيبة، وأنتِ تعرفين إلامَ انتهى ذلك. - قال أورِّفِن بهدوء.

- مــا أنــتَ إلا دودةٌ تافهة مقارنةً بي!- صاحــت المشعوِذة بغطرسةٍ، وانتصبت بقامتها حتى لامس رأسها السقف.

- معــذرة، سيدتي، - عارضهــا جوس بحزم. - إننــي لم أكن مفرِطاً في الغرور. ففي المــرة الأولى كان لديَّ جيش قوي مؤلَّفٌ من جنود خشبيين مطيعين. وفي المرة الثانية كان قوام جيشي ألفين من الماران الحاذقين الأقويــاء. ولكنني هُزِمتُ في كلتــا المرتين. سيدتي، لقد فكــرت كثيراً خلال السنة المنصرمة، وفهمت أنه ليس من السهل أن تجعل الشعوب الحرة تركع عند قدميك...

- بـل وأنت تتجرأ أيضاً على إلقــاء محاضرات في الأخلاق أمامي؟- تضاحكــت أراخْنا باحتقار، - كأن كلماتــك تعني أنك لا تستحسن نواياي، وترفض أن تعمل في خدمتي.
- أجــل، إني لا أستحسنها، وأرفض! لقد علَّمتني الحياة كثيراً، وأريد أن أعيش وحيداً إلى أن يصالحني مَن آذيتُ مِنَ الناس.
- امضِ، أيها الرجل التافه، وانسَ حديثنا!- أمرته الساحرة غاضبة. - إنك سوف تنــدم على رفضك. فقــد كان باستطاعتي أن أرتقي بك عالياً!..
- انحنى أورْفِن أمامها ومضى. لكنه التفت عند العتبة وقال:
- أخشى أن تقودك طريق الحرب إلى حتفك!..

كانت أراخْنا تبتسم بسخريــة، ولكنها شعرت رغماً عنها بشيء من الاحترام لهذا الإنسان الصغير الذي لم يهَبْها وهي الساحرة العظيمة.

«مع أنني كنــت سأغمر هذا العنيد بكرمي، لو أنه قبِل أن يعمل في خدمتي، - جال في خاطر المشعوذة. - أشعر أن هذا الرجل يستطيع السير بثبات نحو هدفه المنشود...».

في المــرج الواقع أمام المغارة التقى أورْفِن وروف بيلان الذي ذهبت في طلبــه إلى الأنفــاق مجموعة أخرى من الأقــزام. فأشاح الملك المخلوع بوجهه ازدراءً لهذا الرجل الذي كان وزيره الأول فيما مضى.

«هــذا مَن لن يرفضــ ما تعرضــه أراخْنا من إغــراءات»، - فكر أورْفِن.

ولم يكن مخطئاً.

❖ ❖ ❖

إغواء روف بيلان

بعد أن قامت أراخْنا بطرد أورْفِن جوس، ظلَّت ساهمة وقتاً طويلاً. ثـم هزت رأسها العملاق وأمـرت بإدخال روف بيلان إلى المغارة، إذ كان الأقزام قد أخبروها بوصوله.

ولـج روف بيلان المغارة شبه زاحـف، وبدا محمرّ الوجنتين، شاحباً مـن الخـوف. ولم يكَد يتجرأ على رفع ناظريه نحـو الساحرة حتى أسرع يغضُّه مرعوباً.

– أهذا أنت، يا روف بيلان؟– سألته المشعوذة.

– نعم، سيدتي، لقد أخبرني عامل المناجم أن هذا هو اسمي بالضبط،– أجابهـا بيلان بصوت مرتجف. – ولكنني لا أتذكر شيئاً من أعمالي في حياتي الماضية، ولا من هويتي...

حقّـاً، لقد نسـي كل ما يتعلق بماضيه. فلم يمضِ إلا يومان على استيقاظـه من نومه العميق بعد أن عثر الأقزام عليه في الأنفاق. كان قد تعلم المشي والكلام لتوّه، وكان يعادل في مستواه العقلي طفلاً في الخامسة، فيما لم يتسنَّ بعدُ لمعلمه عاملِ المناجم أن يعلمه ماهية الخير والشر.

اغتنم الأقزام الماكرون فرصـة غياب معلم روف، فاستدرجوا هذا الطفل الكبير من المغارة بعد أن أغروه بما جلبوه معهم من مأكولات شهية. وفي الطريـق لم يَـردَّ مرافقو بيلان على أسئلتـه: إلى أين هم بِهِ ماضون، وماذا سيحل به.

جعل مظهر العملاقة روف يرتعش، فراح ينظر برعب إلى الساحرة الرهيبة.

- إذاً، فقد أخفوا عنك أنك كنت يوماً تشغل منصباً رفيعاً في موطنك؟
- لا أعرف شيئاً عن ذلك، - أجابها روف بيلان مستسلماً، ولكن شيئاً غريباً يشبه الفخر تألق في عينيه.

لاحظت أراخْنا الدقيقةُ الملاحظةِ ما أحدثه كلامها من تغيير، فوضعت خطة عمل على الفور.

- خذ هذا الرجل إلى بيتك، يا كاستاليو، وعلِّمه القراءة والكتابة، ثم دعه يقرأ في المدونة كل ما يتعلق بحياته وأعماله، - أمرته المشعوِذة.
- وعندما يتذكر بيلان ماضيه، عد به إليَّ ثانية.

فهم المؤرخ بشكل ممتاز ما قصدته مولاته...

ثم جاء كاستاليو ببيلان إلى الساحرة بعد أسبوعين.

لقد تغيرت تماماً ملامح وجه رجل الدولة السابق، وكذلك قامته. فبات يقف منتصباً، ويمشي بثبات. لقد تذكَّر روف بيلان ما ضيه كلَّه بأدق التفاصيل. وقرر أن يبدأ من جديد، إذا سنحت له الفرصة. فهو لم يعد ذلك الطفل الضعيف العاجز الذي خرج به الأقزام من المغارة. كان يقف أمام أراخْنا رجل ناضج، حيَّاكُ مؤامرات ومحب للأمجاد، قادر على ارتكاب أي خيانة. إن تصرف أراخْنا الماكر، أحيا في روف بيلان كل أسوأ صفاته من جديد.

ردت المشعوِذة على انحناءة بيلان أمامها بهزة رأس خفيفة وقالت:

- إنك، بلا شك، تريد أن تعرف لماذا أرسلت في طلبك؟.
- أجل يا سيدتي، ولكن اسمحي لي أولاً أن أطرح عليك سؤالاً واحداً.
- تكلم!
- من كان الرجل الذي التقيتُه في مملكتك منذ أسبوعين؟.

- إنه أورْفِن جوس، ملك مدينة الزمرد سابقاً.
- آ، لهـذا بدا لي وجهه مألوفاً! لقـد كنت في عهده، الرجل الأول في البلاد!- وزاد روف بيلان من انتصاب قامته بافتخار.
- نعـم، ويمكنك تحصيل مزيد من الارتقاء إذا ما عملتَ في خدمتي! لا تقارن قوة جوس بقوّتي، رغم أنني معجبة بشجاعته. من المؤسف أن الفشل جعله ينكسر، وأنه رضخ للقدر.

أطلعت أراخْنا روف على مخططاتها، وأخبرته بأنها تنوي أن تصبح إمبراطورة على البلاد العجيبة.

- أتريد أن تكون حليفي؟ - سألته المشعوذة.
- سيدتـي الكريمة، إننـي مستعد أن أعمل في خدمتـك بأقصى ما أستطيع!- هتف بيلان مبتهجاً.
- وهل تعتقد أن أمنيتي ستتحقق؟.
- ليـس في ذلك أدنـى شك! ستعتبر شعوب البـلاد العجيبة الرضوخ لسيدة عظيمة مثلك من محاسن الحظ.
- هل أنت متأكد من ذلك؟- سألته الساحرة مرتابة.
- إنني أقسم بحياتي!
- لكن ملكك السابق يعتقد بغير ذلك.
- إنـه مخطئ، يا مولاتي الكريمة! إنـه مخطئ، وستتحققين من ذلك قريباً.
- حسن، يا روف بيلان، إنني أقبل بأن تعمل في خدمتي. إنك ستكون رسولي في الأمور الهامة، وإذا ما نجحت سأرقّيك.
- شعَّ وجه روف فَرحاً، وشرع يقنع أراخْنا بإخلاصه من جديد.
- امضِ!- أومأت الساحرة برأسها، فخرج روف بيلان من المغارة وهو يتراجع إلى الخلف دون أن يكف عن الانحناءات المتتالية.

– يا لـــه من إنسان تافه!– قالت الساحرة باحتقـــار. – يا للعفن! إنه سيغـــدر بي عند أول فرصة تتاح له بذات السهولة التي قبل بها أن يعمل لدي. لكن لسوء الحظ ليس لي من خيار...

❖ ❖ ❖

أوَّلُ الخَطوِ عثار

كان مــن بين أدوات أراخْنــا السحرية بساطٌ طائــر[٨] سبق لها أن سرقته من أمها عندما هربت منها إلى البلاد العجيبة. كان بساطاً قديماً ورثّــاً جداً، وما كان لينجو مــن الرطوبة والعت لولا ما أحاطه به الأقزام من عنايــة فائقة. كان هؤلاء الناس البالغو الصِغَــرِ ينظّفونه بالفراشي، وينفضونــه، ويشمّسونه، ويرتونه كل شهر. وعندمــا استيقظت المشعوذة وجدت البساط صالحاً للاستعمال.

وقبــل الشروع بتنفيذ مخططاتها، قرّرت أراخْنا أن تجوب على متن بساطها الطائر كل أنحاء البلاد العجيبة على التوالي كي تستطلع الأوضاع هناك، وتطلب الاعتراف بسلطتها العليا...

فرشت أراخْنــا البساط أمام مدخل المغارة، ثــم جلست في وسطه وأجلست بجوارها روف بيلان الذي اصطحبته معها كي يُجري المفاوضات باسمها.

- احملنــي، أيها البساط، إلى البلاد الوردية، إلى الساحرة ستيللا. - أمرته المشعوِذة.

فارتفــع البساط حالاً، وطار يحلّق فوق الأرض مسرعاً. وقد ابيضّ وجه بيلان رهبة، وراح يئنُّ بصوت مرتفع.

- ماذا دهاك؟ - سألته أراخْنا بجفاء.

- سيدتــي الفاضلة، أتوسَّل إليكٍ باسم كلِّ المقدسات ألا تدخلي حرباً ضدَّ الساحرة ستيللا!

---

(٨) هو «بساط الريح» في تراثنا الحكائي العربي. - المترجمة.

- ولِمَ؟ أتظنها أكثر قوة مني؟.
- إنني لا أشك في قوتك، يا سيدتي، ولكن عليك أن تعلمي أن ستيللا تعرف سر الشباب الأبدي.
- وما شأني أنا بذلك، أنا مَن بلغت من العمر آلافاً من السنين لا أذكر عددها؟ - اعترضت أراخْنا بافتخار.
- حسن، سيدتي، فلندَعِ الكلام عن العمر. - وافق روف بيلان. - إلا أن السيدة ستيللا تربطها علاقات ممتازة مع قبيلة القِردة الطائرة الأشِدّاء. على أن هذه القِرَدَةَ حيواناتٌ مخيفة، وإذا ما هاجمك سرب منها، فإني لا أكفل لكِ النصر، على الرغم من كلِّ ما لكِ من قوّة وشجاعة.

أعملتِ الساحرةُ فكرها، وأمرت البساط بأن يتوقَّف، فظل عالقاً في الهواء دون حَراك.

- أجل، لقد سبق لي أن سمعت بعض الأخبار عن القِرَدَة الطائرة. ولعلَّ من الأفضل عدمَ التعرض لهذه المخلوقات، - وافقت أراخْنا. - وما رأيك في أن نزور فيلّينا ونطالبها بالخضوع لي؟.
- ما لك ولهذه الساحرات؟- توسّل إليها بيلان. - فأنت نفسُك ساحرة، أرجو أن تعذريني على صراحتي، وتعرفين خيرَ معرفة كم هن كائنات كريهات! صحيح أن السيدة فيلّينا طاعنة في السن، غير أنها تمتلك قدرة سحرية على الانتقال من مكان إلى آخر بومض البصر. إنها تكون هنا الآن، وبعد ثانية تكون على بعد آلاف من الأميال عن هذا المكان. فكيف لك أن تنتصري على عدوّ زئبقي كهذا؟.
- يبدو أنك على حق،- اعترفت أراخْنا دونما رغبة. - فلنترك الساحرات وشأنهن. فهناك في البلاد العجيبة، فضلاً عنهنّ، ما يكفي من أراضٍ وشعوب. لقد قرأت عن الماران في مدونات

كاستاليو. إنهم الشعب الأكثر تخلُّفاً وجهلاً في هذه البلاد. ألا نبدأ بالماران، يا بيلان؟.

- فلنبدأ بالماران، يا مولاتي، - فرح بيلان، - مع أنه ظل نائماً مدة عشر سنوات في المغارة، ولم يكن يعرف شيئاً ممّا وقع من أحداث في البلاد، ولم يتَّسع له الوقت كي يقرأ المدونات التي تروي تلك الأحداث.

أمرت أراخْنا البساط الطائر بأن يوصلها إلى وادي الماران. وبعد بضع ساعات من الطيران حطّ البساط على أحد الجبال المحيطة بهذه البلاد إحاطة السِّوار بالمِعصم.

لقد وقعت تغيرات كبيرة في وادي الماران منذ أن طَرَدَ سكانُه إلهَ النار أورْفِن جوس. فبعد أن تخلَّص النطاطون من الدَّجّال، قاموا بثورة حقيقية، فأطاحوا بسلطة الأرستقراطيين، وتوقفوا عن خدمتهم. وبدلاً من الأكواخ الفقيرة المصنوعة من القش، والتي كان يقطنها العامة من الشعب، أقيمت قرى صغيرة نظيفة تمتدُّ على طول شوارعها المستقيمة بيوت صغيرة، ولكنها دافئة ومريحة. كان الدخان يتصاعد من المداخن دليلاً على أن الماران نسوا خوفهم القديم من النار، وتعلَّموا استخدامها.

لقد استبدلوا بحقولِ القمح المهملة بساتينَ رائعةً من أشجار الفاكهة. وكانت الأشجار مثقلة بأنواع الثمار الطازجة. كما كانت قطعان من الأبقار والماعز ترعى على سفوح الجبال برعاية صِبْيَةٍ فرحين. وبالقرب من كل قرية كانت توجد بالتأكيد ساحة للعب الكرة الطائرة، تلك اللعبة التي ورثوها عن تيم أوكللي، فأصبحت لعبة النطاطين القومية.

عندما ارتسمت قامةُ أراخْنا العملاقةُ السوداءُ على الجبل، ووراءها السماء الزرقاء، دَبّ القلق في قرى الماران. فاختبأت النساء والأطفال في البيوت، وراح الرجال يتبادلون الأحاديث مضطربين.

وسرعان ما ظهر روف بيلان على الطريق المؤدية إلى قرية النطاطين الرئيسة. كان يمشي منتفخاً بالغطرسة لأنه رسول المشعوذة الشريرة. فسارع لملاقاته كل من هارت، وبويس، وكليم، وهم الشيوخ المختارون من قِبَل الماران. وقد كانت في أيديهم، على سبيل الحيطة، عصيٌّ ثقيلة، فأحسّ روف بيلان بالخوف. وبدلاً من أن يتكلم بصوت مرتفع ومقنع، تمتم بصوتٍ مرتعشٍ قائلاً إنه آتٍ من طرف الساحرة العظيمة أراخْنا التي تطالبهم، هم المارانٍ، بأن يعترفوا بها إمبراطورةً عليهم، ويدفعوا لها ضريبة سنوية.

تبادل الشيوخ النظرات، ثمّ قال بويس:

- أبلِغْ سيدتك بأننا نطلب نصف ساعة للتفكير، ثم نوافيها بالجواب.

شعر بيلان بالحيوية حالاً، وعاد أدراجه مغروراً، ظناً منه أنه قد أنجز المهمة.

- طبعاً، لقد مات هؤلاء السّذَّج من الرعب حين أبلغتُهم مطالبك بحزم شديد يا مولاتي.- أخبر روف بيلان المشعوذةَ. - إنهم سرعان ما سيأتون ويقدِّمون لك آيات الطاعة. وبَدَهيٌّ أنهم لن يتطرَّقوا بالحديث معك إلى أكثرَ من الطلب إليك ألا تكون الضريبة التي ستفرضينها عليهم كبيرة جدّاً.

عبّرت المشعوِذة بجفاءٍ عن شكرها لبيلان بهزّةٍ من رأسها، وراحت تنتظر. أمّا بيوت النطاطين فكانت تدور فيها حركة نشطة باديةٌ للعيان. كان الرجال يتنقّلون مسرعين من بيت إلى بيت، يتبادلون فيما بينهم كلاماً ما، فيما تراكضَ الصبية مسرعين بين الحارات وهم لا يكفّون عن تكرار الانحناء إلى الأرض.

وإذا بحشدٍ مؤلَّف من عدَّة مئات من الأشخاص يتَّجه نحو الجبل الذي كانت تقف أراخْنا عليه. بدا غريباً ألّا يكون في الحشد أطفال، ولا

نســاء، ولا شيوخ. فلم يكن فيــه إلا رجال بالغون، أقوياء، من عِلّيةِ القوم. كما بدت هيئاتهم غريبة أيضاً. فقد كان كل واحد منهم يسير ويده اليمنى خلف ظهره يخفي فيها شيئاً عن أنظار المشعوِذة.

أحاط الحشد على شكل نصف دائرة بالمشعوِذة الواقفة على البساط الطائر. كانت أراخنا تنظر إلى القادمين بتكبر، فيما تكوَّر روف بيلان عند قدميها. تقدَّم الشيوخ كليم، وبويس، وهارت نحوها.

- أيتها الساحرة أراخْنا، - قال هارت بصوت جهوري. - أنتِ تريدين منّــا أن نخضع لك، وأن ندفع الضرائب. ولكنّ يكفينا ما هناك من الأمراء والسَّحَرة والآلهة! هذاهو جوابنا! أطلِقوا!

ومــا إن رفع هارت يده اليمنى بقوةٍ نحو الأعلى حتّى راحت المقالع الملقَّمة تدور وتنفلت فوق الحشـــد، تلبيةً لإشارته هذه، ومضت الحجارة تصفر في الهواء بالمئات!

أصابت ثلاث قذائــف جبينَ المشعوِذة العريض، واثنتان ذقنَها، كما أصاب بضعُ عشرات من الحجارة كتفيها وصدرها وبطنها، وأصاب حجر كبيرٌ روف بيلان فأفقدَهُ توازنه.

كان الهجوم على درجة من التنظيم والمباغتة أربكت أراخْنا. إلا أنها عندما رأت الماران ينحنون لالتقاط الحجارة من أجل تلقيم المقالع ثانية، صرخت بصوت وحشيّ:

- احملني، أيها البساط، وامضِ بي بعيداً عن هذا المكان!

وبلمــح البصر انطلق البساط محلِّقاً في الجو، فأصابته عدة أحجار أطلقها أكثر القناصين مهارة فأحدثت فيه ثقوباً (وهذا، على كل حال، ما قلَّل كثيراً من قوَّة البساط الرافعة وسرعته).

وقــد بلغ غضب الساحــرة على روف بيلان من الشــدة ما جعلها تعصــره في قبضتها حتى كادت أن تسحقه، ومــا كان ليكلفها ذلك سوى قليل من الجهد.



لكنها سرعان ما أدركت أنها ستحتاج إلى هذا الخائن لاحقاً، فأفلتته، واكتفت بفحيح شرّير:

– أيهـا الأحمق، أهذه هي الطاعة التي جئتني بالماران وهم يحملونها إليّ!

تملّص روف بيلان من الموقف متحايلاً:

– إذا كانـت حكمتك لم تكتشـف نيَّتهم الخبيثة، فأيـن كان لي أنا أن أعرفها، وأنا رجل عادي فانٍ!

عضَّت المشعوذة على لسانها. حقاً، كيف لها أن تلوم بيلان، إذا كانت، وهي الساحرة التي ألِفت مختلف الحيل والمكائد منذ نعومة أظفارها، قد وقعت في فخ سخيف كهذا!

ولكي تنتقم من الماران، قـــررت أراخْنا أن تثير هزّة أرضية. ولكنها لَمّـــا كانت في حُمَّى انزعاجها خلطت بين كلمـــات التعويذة، فجاء الزلزال خفيفاً، إذ سقط من الجبال عدد من الحجارة، وتساقط بعض الأواني عن الرفوف في بعض من البيوت.

لو كانت أراخْنا وروف بيلان يعرفان الأمثال في بلاد الشمال النائية المتوارية خلف المحيط، لتذكرا، بالمناسبة، هذا المثل: «أَوَّلُ الخَطْوِ عثار».

❖ ❖ ❖

مدفع ليستار

كان طير أبو زريق العجوز الحكيم شاهداً على إخفاق أراضِنا المخزي. وحين أدرك أبو زريق أن خطر الهجوم القادم يهدِّد البلاد البنفسجية، لم يلبث أن عثر حالاً على واحدة من طيور السنونو، فأوعز إليها:

- طيري بأقصى سرعة إلى القصر البنفسجي. ولْينقلْ أوَّلُ مَن تصادفينه من صديقاتك الخبرَ إلى الحطاب الحديدي عن طريق بريد التتابع[٩]، بأن كارثة تزحف نحو بلاده. فهناك مشعوذة عملاقة، طول قامتها خمس عشرة ذراعاً، تريد احتلالها. فليتأهَّبِ الغمّازون.

كان بريد التتابعِ الذي يتألَّف سُعاتُه من الطيور أمراً مألوفاً في البلاد العجيبة. وقد نظَّمه الغراب كاغي كار الذي كان رئيسَ الاتصالات، وقدَّم خدمات جُلَّى في هذا المجال.

ويجدُر بنا هنا أن نقول بأن الناس في البلاد العجيبة كانوا يعيشون في أُلفة مع حيوانات الغابات وطيورها. فقد كانت الطبيعة الخيّرة تُغدِق نِعمَها على سكان البلاد بسخاءٍ محاصيلَ حبوبٍ وخضارٍ وفاكهة، وكانت ترعى في مروجهم أعداد كبيرة من المواشي تغنيهم تماماً عن الحاجة إلى اللجوء لاصطياد الحيوانات البرية.

بل على العكس، كثيراً ما كان الناس يمدّون يد العون لسكان الغابة. فإذا ما عمَّ الجفاف، وتساقطت الثمار عن الأشجار قبل نضجها، كان يعمد السكان إلى إطعامِ الحيوانات والطيور من مخزونهم الاحتياطي.

---

(٩) أي إن كل طائر يقطع مسافة معيَّنة، ثم ينقل الخبر أو الرسالة إلى طائرآخر، وهكذا حتى الوصول إلى الهدف. – المترجمة.

وبدورها كانت الحيوانات والطيور تقدم العون للبشر إذا ما أصابهم مكـــروه. وكان بريـــد التتابع الذي تنهضـــ به الطيور أحـــد أشكال هذا العون.

انطلـــق السنونو ذو الجناحين السريعين يشقُّ الأجواء بصخب. ومن غـــير ما عناءٍ سبق بساط أراخْنا الطائر الذي كان قد تضرر بفعل ما ناله مـــن قذائف المـــاران. كان الخبر ينتقل، عن طريق بريـــد التتابع، بسرعة فائقة جعلته يسبق وصول أراخْنا بثلاث ساعات.

ويا للاضطراب الذي كان! إذ في السنة الأخيرة التي أعقبت سقوط إله الماران الناري كان الغمازون يعيشون بسلام ووئام مع جميع جيرانهم . ولم يسمع أحد بأيَّة أخبار عن ساحرات أو سَحَرةٍ أشرار، حتّى ظُنَّ أن أمن البلاد لا يهدده شيء.

إلا أنـــه لم يعد هناك مجال للشك. لقد كان الخطر وشيكاً، بل وكان خطراً رهيباً. ولم يكن بريد الطيور ينقل إلا أكثر الأخبار أهمية، فيما كان نقلُ الأخبار العادية يجري عن طريق السُعاة الخشبيين الذين كانوا رجال شرطة عند أورْفِن جوس فيما مضى.

كان الحطّاب الحديديّ قد انتهى لتوّه من عملية صيانةٍ دورية. لقد تم تفكيكـــه من جديد، ونُظِّفت وشُحِّمـــت كل قطعة منه، كما أعيد حشو قلبه الحريري بنشارة خشبٍ طازجة. وقد خرج من ورشة الصيانة مطليّاً وبرّاقاً إلى حدٍّ يؤلِمُ عينَي كلِّ من ينظر إليه.

وعندما علِم الحاكم مِن الميكانيكي ليستار العجوز، الضئيلِ الحجم، الخفيـــفِ الحركة، بخـــبر الكارثة المحدقة، أصدر سلسلـــة من التعليمات عبَّرت عن مدى حكمته وخبرته الواسعة في الشؤون العسكرية .

انطلق الرســـل في جميع الاتجاهات يحملون الأوامر بإخلاء القرى القريبة. وكان يتوجب على السكان تركُ مزارعهم، والاختباء وراء الجدران

المتينــة في القصر البنفسجي. وساق الرُّعاة قطعانهم إلى وديان لا يعرفها سواهــم. وقد تسلح بعض الجنود بالأقواس، واحتلوا المواقع الدفاعية في الأبراج الحجرية، بينما اتَّخــذ آخرون مواقعَ على سطح القصر مختبئين وراء المداخــن، ونصب بعض منهم كمائنَ خلف صخور كبيرة مبعثرة على طول الطريق.

وسرعان ما اتخذت منطقة القصر البنفسجي مظهر مخيَّم عسكري متأهب للحصار.

أمّا الميكانيكي ليستار فقد ركّز اهتمامه على المدفع الخشبي الكبير، وهــو المدفع نفسه الذي تمكن الغمازون بفضله يوماً من أن ينتصروا على كســاري السنديــان دون أن يخوضوا معركة معهــم، إذ أرعبوهم بإطلاق قذيفة وحيدة لا غــير. صحيح أن سبطانة المدفع انفجرت من جرّاء تلك القذيفــة، غير أن ليستار أصلح المدفع حــالاً، إذ أحاط سبطانته بحلقات حديدية. وكان الميكانيكي لا يزال يحتفظ بمخزون من البارود الذي أعدَّه البحّار الأعرج تشارلي بليك.

دكَّ ليستــار المدفع بالبــارود، وحَشاه بدلاً من الخــردق بمساميرَ عوجاء، وبقايا حــدوات ملْويَّة، وغيرِ ذلك من قطع الحديد. كان السلاح جاهزاً للقتال، ووقف الرامي بجواره يُمسك في يده فتيلاً مشتعلاً.

وإذا بالبســاط الطائر يظهــر في السماء، وعليه المشعــوِذة أراخْنا بقامتهــا العملاقة الســوداء، وقد تسلَّحت هذه المــرَّة بفرع شجرة ضخم اقتلعته من الأرض من جذوره.

حطَّ البساط على مسافة قريبة من القصر، وانطلق المفاوض روف بيــلان باتّجاه الحطاب الحديدي ملوِّحــاً بمنشفة بيضاء عوضاً عن راية الاستسلام، كان قد سرقها من كوخ مهجور لأحد الغمازين.

عرَف الحطّابُ بيلان وقال له باحتقار:

- آ – آ ، هذا أنت، أيها الخائن؟ – يبدو أنهم لم يكسروا عنقك في بلاد الأنفاق؟.
- ولماذا يكسرون عنقي؟ – تذمَّر بيلان. – لكن الحديث الآن ليس عنِّي، فدعْنا ندخل في الموضوع. أنت ترى الساحرة العظيمة أراخْنا هناك في البعيد. إنني جئت إلى هنا رسولاً من طرفها.
- وبماذا أمرتك أن تخبرنا؟ – استفسر الحطاب .
- إنها تطالبكم قبل كل شيء بالطاعة غير المشروطة، وبأن تعترفوا بها ملكة عليكم من الآن وإلى أبد الآبدين.
- حسن، أهذا كل شيء؟ – سأله الحطاب بهدوء.
- طبعاً، لا. إنكم ستدفعون للملكة خَراجاً[١٠] سنوياً يقدَّر بألف ثور وألفين من الخراف، وما تطلبه من إوزٍّ وبطٍّ . ويجب عليكم في البداية أن تشووا للحاكمة ثلاثة ثيران وحوالي خمسة خراف، بينما سأكتفي أنا بدجاجة دسمة. لقد نال الجوع منها في أثناء رحلتنا.
- ألم يقدم لكما الماران فطوراً وفيراً؟- توجَّه الحطاب الحديدي إلى بيلان بالسؤال متظاهراً بالسذاجة.

جحظت عينا روف بيلان بجنون حين أدرك أن خبر إخفاق أراخْنا عند النطاطين قد ذاع في البلاد البنفسجية بطريقة ما. وسرعان ما اختفى غروره في الحال.

- إذاً، هل أنتم عازمون على الخضوع لأراخْنا، أم لا؟ – سأل بيلان وقد فقد كل ثقة.
- امضِ إلى سيدتك وأخبرْها بأننا سنقاوم حتى آخر رمق! – صاح الحاكم بغضب. – ولْتتذكَّر أنه لاشيء أنقذك من الهلاك سوى راية الاستسلام.

ولوَّح بفأسه فوق رأس الخائن بقوة جعلت الهواء يصفر حوله...

---

(١٠) الخراج في العهود القديمة ضريبة سنوية كان يفرضها الغزاة والفاتحون على الشعوب المغلوبة. – المترجمة.

شعــر بيلان بقدميــه تخونانه من شدة الرعــب، فأسرع إلى مولاته يتعثر. وعندما استمعت الساحرة إلى تقرير روف غضبت بشدة، وهجمت على الغمازين وهي تتَّكئ على هَراوتهــا الرهيبة، فانهالت عليها السهام تصفر من كل صــوب، آتية من الأبراج الحربية، ومن سطح القصر، ومن خلــف الصخور المجاورة للطريق. كانــت السهام تنغرز في جبين المشعوذة وخدَّيهــا، وتَعلق في وشاحها، وتصيب كاحليهــا العاريين. صحيح أن تلك الإصابــات لم تكن أكثر إيلاماً للعملاقة من وخــزة دبُّوس، إلا أن وخزات الدُّبّابيس أيضاً ليست أمراً مستحباً.

وعلى الرغم من ذلك استمرت أراخْنا بقامتها العملاقة تتقدم. كانت هَراوتهــا تخلِّف حُفَراً عميقة في الأرض إثر اصطدامها بها. وهنا تأسَّف الحطاب الحديدي على أنه في أيام حكمه الأولى أمر بإزالة السور المرتفع المــزروع في أعلاه بمسامير حادّة، ذلك السور الــذي كان يحيط بالقصر البنفسجي المشيَّد في عهد باستيندا. لقد كان القصر شبيهاً بالسجن، غير أن هذا السور ربَّما كان أعاق تقدُّم أراخْنا الآن...

وهنا اندلع صوت مدفع ليستار مدوِّياً. وكان لإطلاق الخردق الذي أصاب الساحرة عــن مسافة قريبة في صدرها تماماً تأثيرٌ مدهش. حتى إنــه جعل أراخْنا تترنَّح، وتوشك علــى السقوط، إلا أنها ظلَّت واقفة على قدميهــا. فلم تكن الإصابة قاتلة، بل ولم تكــن خطيرة بالنسبة إليها، لكن الساحــرة تخيَّلت أن عملاقاً يعادلها في القــوة، قد ضربها، فيما حسبت دويَّ المدفع صوتَ غول غاضب...

لقــد أُصيبت أراخْنــا بالرعب! أجل، لقد تملَّكهــا الرعبُ، فألقت الهــراوة، ومضت تبحث عن النجاة على مــتن بساطها السحري. وبينما كانت في طريقها، وهي عمياء البصر، داست الساحرة على برجين دفاعيين صغيرين فسحقتهما. غير أن الجنود القابعين في داخلهما تمكنّوا، لحسن الحظ، من الفِرار والقفز إلى خندق في الوقت المناسب.

كانت المشعوِذة على عجَلة من أمرهــا، فأضاعت حذاءها المصنوع مــن الجلد، حتى إنهــا لم تتوقف لالتقاطه. ثم تبيَّن أن مصير هذا الحذاء مثير للفضول جداً. فهو حذاء لا يخرقه الماء، إمَّا لأن جلده مشرَّب بمادّة مــن نوعٍ خاص، أو لأن أراخْنا كانت قد سحرته. وكان الحطاب الحديدي يحســنُ استغلال هــذه الميزة التي للحذاء. فأمر بنقلــه إلى النهر الكبير. وهنــاك زوَّد الغمازون فردَتَي الحذاء بأرضيّــات وصوارٍ وأشرعة، وركّبوا لهما مِقْوَدَين، فتحوَّلت الفردتان إلى سفينتين أُطلق عليهما اسم «اليسار» و«اليمــين». ثم أُدرِجتــا في عِداد سفن أسطول البــلاد البنفسجية، وراح الغمــازون يقومون علــى متنيهما برحلات طويلة، وينقلــون البضائع في عنابرهما. وكانت هاتان السفينتان كلتاهما، «اليمين» و«اليسار»، تتميّزان بقدرة كبيرة على المناورة ونقل الحمولات الكبيرة.

غير أن أطرف ما كانت تتميز به هاتان السفينتان هو قدرتهما على طــرد ما كان النهر يعجّ به مــن التماسيح. إذ كثيراً ما كانت هذه الكواسر تعمد إلى مهاجمة السفن الخشبية، فيُضطَّر البحّارة للتصدّي لها بالسهام والرمــاح. غير أن التماسيح كانت مــا إن تلمح السفينتين الجلديتين حتى تلــوذ بالفِرار متفرِّقة كيفمــا اتُّفِق. لعلَّ ما كان يخيف التماسيح هو شكل الحذاءيــن القاربين الغريــب، أو ربّما كانت رائحتهمــا النفّاذة هي ما لا يعجبها. وأيّاً كان الأمر، فإن عدد الراغبين بالإبحار في الحذاءين القاربين كان لا يُعَدُّ ولا يُحصى.

لم تستغــرق المعركة بين الغمازين وأراخْنا الجبّــارة من الوقت أكثر من عشــر دقائق. وقد قوبل فِــرار المشعوِذة بصيحــات مبتهجة أطلقها المنتصرون.

أمّا المشعــوِذة فقد جال في خاطرها وهي ترفــع البساط في الجوِّ وتوجِّهه بعيداً عن هذه المناطق:

«الأرجح أن أورْفِن جوس كان محقّاً: فإخضاع الشعوب المحبَّة للحرية ليس بهذه البساطة. ولكنّ علينا أن ننتظر بعد!..».

ثم أمرت البساط بأن ينقلها إلى مدينة الزمرد. إلا أنها لم تكن على علم بأن بريد تتابع الطيور انطلق يسبقها إلى الفزَّاعة، وهو يحمل تقريراً حولَ كل ما حدث في وادي الماران وعند القصر البنفسجي.

❖ ❖ ❖

الهجوم الليلي

كان بســاط أراخْنا يجرُّ ذيوله في الجو بسرعــة قطار رديء، فيما كانت الساحرة لا تكفّ عن اجترار معاناتها من المهانة التي تعرضت لها في لقائها مع الماران والغمازين. كيف؟! أهؤلاء البشر التافهون البالغو الصغر هم مَن أرغموها علــى الهرب مكللة بالعار، وهي الساحرة العظيمة التي لم يهزمها أحد في يوم من الأيام إلا غورِّيكاب! لكنه لم يسعها إلا أن تعترف بأن القوة كانت إلى جانبهم.

كانت أراخْنا تفكّر في سرِّها:

«يعــود سبب كلِّ ما أصابني إلى كثرة عددهم، أمّا أنا فوحيدة. حقاً لا يجوز أن أَعُدَّ مساعداً لي هذا الجبان الوضيع الذي يتكوَّر عند قدمَيّ. فهو عاجز عن القيام بتنفيذ حتى أبسط مَهمَّة بشكل لائق. ولكنْ من هم الذين عليَّ أن أجعلهم حلفاء لي؟..».

بعد تفكير اعترفت المشعوِذة لنفسها بأنها لن تجد في البلاد العجيبة بين البشر ولا بين الحيوانات من يرضى بمدِّ يد العون لها.

– حســن، سأستمرّ بالعمل وحدي، كما كنت من قبلُ، – تمتمت أراخْنا غاضبة. – أمّا ثرثرة أورْفِن فلا تستحق أي اهتمام.

ولكــن ما دامت الساحرة قد تطرّقت إلى ذلك، فهذا يعني أن نبوءة الملك السابق قد استقرَّت في أعماق ذاكرتها.

كان مــزاج المشعوذة في غاية السوء، ولم يكــن ذلك بسبب هزيمتها مرتــين فحسب، بــل ولأن الــبَرْد كان ينهش قدميهــا الحافيتين، وكانت تتضوَّرجوعــاً. لقد أمضت اليوم بأكمله علــى الطوى، وكانت قادرة على التهــام قطيع من الثيران. غير أنها لم تقع على حيوان واحد في أي مكان.



فالمَزارع التي مرَّت بها في الطريق كانت خاوية. ذلك أن الطيور التي كانت تسبق أراخْنا نبَّهتِ المزارعين إلى الخطر، فتسنّى لهم أن يخفوا مواشيهم، وأن يختبـؤوا هم أيضـاً في أماكنَ خفيَّةٍ عن الأنظـار. وهذا ما اضطُرَّ أراخْنا إلى الهبوط بالقرب من بستان فاكهة راحت بنهمٍ تلتهم فيه الثمار، رغم أنها لم تكن تطيقها.

وبعد أن أسكتت جوعها قليلاً كيفما اتَّفَقَ، تابعت الساحرة طريقها. وفي هذه الأثناء كان بريد الطيور قد بلغ جزيرة الزمرد يحمل نبأ اقتراب العدو. وسرعان ما عقـد الفزَّاعة اجتماعاً لقيادة الأركان. وكان أول من استجـاب لندائه الجنرال دين غيور الذي جـاء وقد سرَّح لحيتَه الفاخرة بمشط ذهبي فكانت تتدلَّى حتى أسفل ركبتيه. وجاء بعده فارامانت مديرُ تموين الجيشـ، وكاغي كار رئيسُ الاتصالات. وقبـل اتخاذ أية قرارات

كان لا بـد لهم من معرفة نوع الخطر الذي يهدّدهم. كانت هدية ستيللا، الصنـدوق الوردي ذو الشاشة العاتمة، موجودةً فوق طاولة صغيرة. اتّخذ أعضاء الأركان أماكنهم حول التلفاز، وردَّد الفزَّاعة الكلمات السحرية:

«بيريليـا- توريليا، بوريـداكْل- فوريداكْل، طرف السمـاء يَحْمَرَّ، والعشب يَخْضَرّ. أيها الصندوق، أيها الصندوق، تكرَّمْ وأرِنا المشعوِذة وهي تطير على متن البساط الطائر! ».

وما لبثـت الشاشة العجيبة أن أضاءت في الحـال، وظهر البساط الطائـر مفروشـاً في السمـاء والعملاقة جالسة عليه. وعنـد رؤية هذا المشهـد شعر جميع أعضاء المجلس بمن فيهـم الفزَّاعة نفسه بشيء من الارتباك. فيا للهيئة الشريرة التي ظهرت فيها المشعوِذة بوشاحها الأزرق، ووجهها الأحمـر، وحزمة الشعر الأسود على رأسهـا. وكان متكوِّراً عند قدمَـي أراخْنا جسمٌ صغير اكتشف الفزَّاعـة وأصدقاؤه أنه روف بيلان. تعجب فارامانت قائلاً:

- انظـروا، لقد صار هذا الخائن هنا! فمتى تسنَّى له الوقت للاتفاق مع المشعوِذة؟
- إن الطيورَ على أشكالها تقعُ، - أوضح كاغي كار باستياء.
- إنني لن أشعرَ بأي استغراب إذا ما تبيَّن لنا أن أورْفِن جوس موجود في مكان قريب منه، ذلك المحبُّ للسلطة الذي لا يكلُّ ولا يملُّ. فهو من الصنف نفسه...

اشتعل الفزَّاعة فضولاً شديداً:

- إذَنْ دعونـا حقاً نبحث، أين هو ذلك اللئيـم. فمن المفيد دائماً أن تراقـب العدو. وأنـا في الأصل أشعر بالذنب لأننـي قليلاً جدّاً ما كنـتُ أستخدم هدية ستيللا. - ثم توجّه بكلامه إلى التلفاز: - أيها الصندوق، أيها الصندوق! تكرَّمْ وأرِنا أين هو أورْفِن جوس أينما كان.

وفجــأة ظهر على الشاشة مرجٌ بديع فيه بيــتٌ مريح وخلفه بعض المباني الملحقة، وقُدّامَه عند طرف الجنينة ظهر أورّفِن راكعاً على ركبتيه يعزق شتــلات الخِيار، وإلى جانبه البومة غواموكــو. وصل حديثهما إلى سمع الفزَّاعة وأصدقائه.

- .... ولا بــأي حال من الأحوال؟.. - أنهــت البومة جملة يبدو أنها كانت قد بدأتها من قبل...
- ولا بأي حال أبداً. - أكَّد أورّفِن، - لقد حاولتْ معي بكل الأساليب، ولكننــي ظللت مصرّاً على قــولٍ واحد: «لن أكون معيناً لك في هذا المشروع الشرير! ».
- أهذا ما قلتَه لها يا سيدي ؟.
- هذا تماماً ما قلتُه لها!
- وهي؟.
- راحت تضرب الأرضــ بقدميها وتصرخ حتى اهتزَّت المغارة، وخُيِّل إليَّ أنها ستنهار. وأخــذت تصيح: «أنا ساحرة عظيمة، أستطيع أن أسحقك بإصبعي كأنك ذبابة إذا لم تقبل بأن تعمل لحسابي! ».
- وأنت ؟
- لقد عدتُ فكررتُ: «اسحقيني، ولكنني لن أحارب أهلي. يكفيهم ما سبَّبتُ لهم من أذىً...».
- وهي ؟
- وهــي! إذا بها ترفع فوق رأســي قبضتها التي تكاد أن تكون بحجم بيتي!..

تبادل الفزَّاعة وأصدقاؤه النظرات بمزيج من الحَيرة والفرح. هكذا، إذَنْ، صــار هذا الـ أورّفِن اليوم، وهو مَــنِ استولى على السلطة في البلاد العجيبة مرَّتين. طبعاً، لم يكن المستمعون يعلمون بأن الملك المخلوع قد بالغ

بعضــ الشيء ﴾ تهديدات أراخْنا الشريرة وهو ينقل حديثها معه، أي إنه ببساطــة كان يتباهى قليلاً، غير أن الأهــمَّ فيما قاله كان صحيحاً، ففي الموضوع الرئيسِ كان يقول الحقيقة! فلو أنه رضخ لطلبات المشعوذة لكان الآن جالساً إلى جانب أراخْنا على البساط الطائر، بينما هو الآن ﴾ بيته يعزق شتلات الخِيار ﴾ أرضه البعيدة...

وانتقــل الحديث بين أورْفِن والبومــة إلى مواضيعَ أخرى، إلا أن ما سمعه الفزَّاعة كان كافياً له. أي إن أورْفِن ليس عدوّاً لهم، بل هو حليف، وليس مستبعَداً أن يهبَّ لتقديم المساعدة للناس إذا ما دَعَوْهُ إلى ذلك.

أطفــأ الفزَّاعة التلفاز. فمنذ هذه اللحظة بــات هو وقيادة أركانه يعلمون مع من سيخوضون الحرب. إنهم لم يخافوا كثيراً. فقد سبق لهم أن دافعوا عن مدينة الزمرد ضدَّ مئات من كسَّاري السنديان الذين كانوا ﴾ جيش أورْفِن، وكذلك ضدَّ جيش كامل من الماران. أما اليوم فليس أمامهم سوى عدوٍّ واحد. صحيح أنه عملاق وقوي، ولكنه ﴾ النتيجة وحيد، ذلك أن روف بيلان لا يستحق أن يُحمَل على محمَل الجد.

كان مــا يــزال بينهم وبين وصــول أراخْنا يوم كامــل، فشرع سكان المدينــة يقيمون الاستحكامات الدفاعية. وكان قــد تناهى إلى علم قادة المدينــة العسكريين، عن طريق بريد الطيــور، أن الساحرة خرَّبت بستان فاكهة بالكامل، وهذا يعني أنها كانت جائعة. فعليهم إذاً أن يحرموها من الطعام!

وهكــذا أُخليَتِ المزارع ﴾ الضواحي المجــاورة كلها، ونُقِل جُزء من الماشيــة إلى المدينة، بينما تمَّ إخفاء الجــزء الآخر منها ﴾ مجاهلَ يعجز عن اكتشافهــا أمهر عميل للمباحث. وعادت مراجل الماء إلى الظهور من جديد على أســوار المدينة، وتحتها كانت تلتهب أعــواد الحطب. واختبأ رُماة السهام خلف النتــوءات الصخرية مسلّحين بالأقواس والنبال، فيما

ألقى دين غيور لحيته خلف ظهره وراح يضبط آلات المنجنيق التي تُقذَف بواسطتها الأحجار الضخمة.

كانت أراخْنا تقترب مــن جزيرة الزمرد دون أن يخالجها الشك في أن يكون المناوب عند الصندوق السحري يراقب كل تحرك من تحركاتها. وحتى أحاديثها مع روف بيلان كانت مسموعة من الشاشة بوضوح.

– سنتسلل إليهم في الليــل، – أسرَّت المشعوِذة لمرافقها، – بالطبع، ما مــن أحد في المدينة يعرف شيئاً عني، وسيكونون نائمين بأمان. وأنا سأجتاز سور المدينــة، وأتسلل إلى القصر فأُوقِعُ في الأسْر حاكمَهم، ذلك الرجلَ المصنوع من القشــ، الذائعَ الصيت لأسباب لا يعرفها أحد. وسوف نرى حينها كيف سيجرؤ رعاياه على عصياني...

كانــت لدى روف بيلان شكوك قويــة في ألّا يكون الناس في مدينة الزمــرد يعرفون خبر اقــتراب الساحرة. إلا أنه تعقَّــل واحتفظ بشكوكه لنفسه. أما فارامانت الذي كان مناوباً عند التلفاز فكان يتلوَّى من الضحك وهو يتخيَّل كيف تحاول أراخْنا الضخمة أن تمرِّر نفسها عبر بوابة القصر المخصصة لعبور الناس العاديين.

– حسناً، حسناً، أيتها المغرورة! إننا سوف نستقبلك بالمشاعل استقبالاً مشرّفاً، – وعَدَها فارامانت وهو يهدِّد بقبضته أمام الشاشة.

وبعــد أن تباطأت الساحرة الشريرة الوقــتَ المطلوب، ظهرت حقّاً عند حلول الليل على مشارف مدينة الزمرد. غير أنها اصطدمت بمفاجأة كاملة عندما تبيّن لها أن المدينة محاطة بقناة عريضة وليس عليها جسر، وأن عوّامــة النقل موجودة على الضفة المقابلة. وهذا ما حال بينها وبين دخول المدينة سرّاً، دون أن يراها أحد.

– لمــاذا لم تخبرني، أيها الأحمــق، بأن مدينتكم تقــع على جزيرة؟ – انقضَّتِ المشعوِذة تصبُّ جام غضبها على بيلان.

شرع الخائن يبرر:

- أقسم لــك بحياتي، يا مولاتي، إن الأمر لم يكــن على هذه الشاكلة قبل عشــر سنوات! وإن هذه القناة قد شُقَّــت بعد أن غادرتُ هذه المناطق.
- يــا لك من غبي!- قالــت أراخْنا باحتقار. - على كل حال، لا بأس، إنني لا أعتقد بأن الماء شديد العمق.

تركت أراخْنا البساط على الضفة تحت حراسة روف بيلان، وألقت بنفسهــا في القنــاة. لم يصل المــاء في بادئ الأمــر إلا إلى ركبتيها، ثم بلغ خصرهــا، وبعد ذلك أخذ العمق يــزداد ويزداد... حتى لم يعُد ظاهراً من العملاقــة فوق سطح المــاء سوى كتفيها ورأسها الــذي تعلوه حزمة شعر سوداء كبيرة. وفي هذه اللحظة اشتعلت النيران فوق أسوار المدينة، وأُضيئتِ المصابيــح الساطعة. وراحت مئات من المشاعل الصمغيَّة تلتهب في أيدي سكان المدينة، فعمّ النورُ المكانَ وكأنه في وضح النهار.

كان دين غيور ومساعدوه منهمكين بإعداد المنجنيقات. لقد حرَّروا الرتاجــات التي تُثَبَّت بها الحبــال المصنوعة من جلــود الثيران المفتولة وتُستَعمَــل عوضاً عن النوابض. وما لبثت نهايــات الأخشاب الطويلة أن تحرّكت في الجو حالاً وشرعت تقذف كتلاً صخرية ضخمة.

كانــت المياه حول المشعوذة تغلي وتتفجَّر من جَرَّاء تساقط القذائف فيهــا. وبينما كانــت العملاقة تلقي بنفسها ذاتَ اليمــين وذاتَ الشمال، إذا برحــى طاحونة ثقيلــة تصيب يافوخها تمامــاً. إلا أن حزمة الشعر خفَّفت من وطأة الضربة، بل وكانت جمجمة الساحرة على درجة كبيرة من المتانة، فلا يمكن شجُّها بسهولة. ومع ذلك فقد أُغْمِيَ على أراخْنا لحظةً، واختفت في أعماق القناة.

أطلق سكان المدينة صيحات الفرح، ولكن المشعوذة ما لبثت أن ثابت إلى رُشدها بسرعة، وخرجت من تحت الماء. غير أنه لم يعد لها أي أمل في



أن تتسلـــل أراخْنا كي تدخل المدينة خفية، وأن تخطف الفزَّاعة. وعندها فـــرَّت أراخْنا هاربة وولَّتِ الأدبار. كانت السهام تطير خلفها فتصيبها في رقبتها المكشوفة وكتفيها، حتى بدا وكأن هذه المرأة العملاقة يلسعها سرب من الزنابير المهتاجة.

لا تعــرف الساحــرة كيف وصلــت إلى الشاطئ، وقــد أنساها الألمُ والخـــوف نفسَها، فارتمت على البســاط وأمرته بلسانٍ متلعثم أن يمضيَ بها بعيداً عن هذا المكان الرهيب.

وكان آخر ما سمعته الساحرة الشريرة وهي تطير لائذة بالفِرار:

- يا أراخْنا التافهة!

بهــذه الكلمــات شيّعها الغراب كاغي كار، فيمــا كان سكان المدينة المبتهجون يؤرجحون بأيديهــم كلاً من الفزَّاعة وفارامانت والمارشال دين

غيـــور الذي كان يتخبّط بلحيته الفاخـــرة. همست أراخّنا شبه غائبة عن الوعي:

- لـــو أن لديَّ فوجاً واحداً من أمثال هؤلاء المقاتلين الشجعان لغزوت بهم الكرة الأرضية بأسرها...

❖ ❖ ❖

حادثة البساط

كان البســاط يطير بالساحرة متَّجهــاً إلى بلاد عمَّال المناجم، فيما كانت هي تقلِّب الأمور وتفكر:

«في أول معركة لي مــع البشر خرجتُ بكدمات على جبيني وذقني؛ وفي الثانية أصابني بجرح في صدري غولٌ يزأر، وبقيتُ من غير حذاء؛ وفي المعركة الثالثة كادوا أن يشجُّوا رأسي وكان من المحتمل أن أغرق... وكلَّما مضيــتُ قُدُماً ازدادتِ الأمور سوءاً. فما الذي ينتظرني بعد؟ لعلِّي مهدَّدةٌ بالهــلاك، كما تنبأ لي ذلك الملك الفاشل؟ أليس خيراً لي أن أعود أدراجي إلى مغارتــي وأُمضــي بقية أيامي بهدوءٍ سيدةً علــى أقزامي الأوفياء؟.. ولكنْ كلا، يجب عليَّ أن أجرِّب قدري حتى النهاية!..».

كان العنــاد والغيظ يسوقان أراخْنــا صوبَ مغامرات جديدة وربما أشدَّ خطورة بعد.

اختارت المشعوذة مرجــاً مريحاً في الغابة، ثم عصرت ثيابها المبللة وجففتهــا قليلاً على النار، وأمضت الليل بطوله وهي تتقلب على الأرض القاسية. كان روف بيلان الذي يرتعد من الخوف لا يزال بعدُ في خدمتها. ولكنــه الآن لم يكن سعيداً لارتباطــه بأراخْنا، إذ بات واضحاً أن العمل في خدمتهــا لا يجلب ثــروةً ولا علوَّ جاه. وأغلب الظن أنــه يوصل إلى حبل المشنقــة. إلا أن بيلان، حين حاول الفِرار عند بــزوغ الفجر، استيقظت أراخْنا ونهرته بقوّة جعلت الخائن يشعر بشلل في يديه ورجليه.

صاحت الساحرة في وجهه:

– إذا لمحتُ مثل ذلك منك مرة أخرى كان مصيرك الموت!

عند الظهــيرة لاحت لهما بلدة عمال المناجــم. وبَدَهيٌّ أن السكان هناك كانــوا يعرفون سلَفاً بالهجوم الذي ستشنُّــه أراخْنا، فأعدّوا العِدَّة لاستقبــال هذه الضيفة غيرِ المرغوب فيهــا. وقد اختبأ الأطفال والنساء والشيــوخ، وتسلَّح الرجال بالسيــوف والخناجر. ولم تكن هــذه الأسلحة بالنسبة إلى العملاقة أكثر خطورة من أعواد تنظيف الأسنان، ولكن عمال المناجم كانوا قد أعدُّوا مفاجأة من نوع آخر أيضاً.

فقد أحاطت حيواناتٌ سداسيةُ الأرجل بالقرية من كل جانبٍ إحاطةَ السِّوار بالمِعصم. صحيح أن ارتفاع هذه الحيوانات كان لايكادُ يبلغُ مستوى ركبتي الساحرة، ولكنها إذا ما انقضّت عليها سرباً ضارياً من كل الجهات فإن أراخْنا ستنال شرَّ جزاء من أنيابها القوية ومخالبها الحادّة.

قالت الساحرة لبيلان:

– خــيرٌ لي ألا أكون متطلِّبة كثــيراً، فأكتفي بلقب ملكة عمّال المناجم، حتى ومن غير أن يدفعوا لي الجزيَة.

واضــحٌ أن أطماعها باتت الآن أكثر تواضعاً بكثير بعد الذي أصابها من هزائم.

كان البســاط الطائــر يحوم راسمــاً دوائرَ فوق القريــة بأمر من صاحبتــه، فيما كانت المشعوِذة تبذل جهدها لكي تتبيّن جيداً ما هي بعدُ وسائل الدفاع الموجودة لدى عمال المناجم. وفجأة، بينما كانت تحلِّق فوق غابــة النخيل، إذا برأس ذي حراشفَ يَبرز بحجم برميل صغير، فيطقطق بأسنان فكَّيه الكبــيرة ويغرسها متشبّثاً بطرف البساط. كان هذا الهجوم مباغتــاً إلى حدٍّ جعل البساط يميل حتــى كادت أراخْنا أن تفقد توازنها. وتدحــرج روف بيلان عن البساط وقــد تملَّكه الرعب، وأوشك أن يسقط على الأرض لو لم يتسنَّ للمشعوِذة أن تلتقطه بيدها العملاقة.

لقــد بدأت المعركة. كانــت أراخْنا تستجمع كلَّ مــا أوتيت من قوة إرادة وتأمــر البساط بالارتفاع عالياً، فيما كان التنين أويخّو يشدُّه صوبه

بعنـــادٍ. ولمّا كان هـــذا الحيوان المجنَّـــح يتمتع بقوة كافية، فـــإن البساط بـــدأ بالانخفاض. كانت يد التنين العمـــلاق ممدودة على وشْك الإمساك بالبساط، لـــولا أن القماش الرثَّ في تلك اللحظة لم يتحمَّل الشدَّ، فتمزّق وانقطع جزء كبير منه.

اختفـــى رأس أويخّو مع غنيمتـــه في الغابة، فيمـــا انطلق البساط بصاحبته نحو الأعلى وهو يترنح بطريقة خرقاء...

وهنـــا ينبغي علينا أن نتحدَّث عـــن مصير تلك القطعة من البساط السحري التي كانت من نصيب عمال المناجم. كانت القطعة قد احتفظت بقدرتها الرافعة بما يتناسب مع حجمها، وكان بمقدورها حملُ إنسان في الهواء. لقد قام عمال المناجم بتنظيف البساط، ثمَّ رتوه وحبكوا أطرافه، وصـــار حاكم البلاد روجـــيرو يستخدمه للقيام برحـــلات عمل في أرجاء المنطقـــة. بل وطار على متنه ذات مرَّة لزيارة صديقه بريم كوكوس، حاكم بلاد العلاكين.

بعد انتهاء المعركة مع أويخّو صاحت أراخْنا بغضب:

- لا، لقد اكتفيت! إنني أرى الآن كم كان محقاً أورْفِن جوس! فالشعوب لا تريد التخلي عن حريتها... فإلى المغارة، أيها البساط!

وهنا، رفع روف بيلان صوته:

- مولاتـــي الكريمة، إننا لم نعرِّج بعدُ على العلاكين! وإنني أراهن على أي شـــيء بأنهم سيخضعون لك بمجرد ظهـــورك في بلادهم. إنهم أشد الناس وجلاً وحباً للسلام في العالم، وهم يصابون بالرعب خوفاً مـــن أي نوع مـــن السلاح. فحتى منظر سكـــين المطبخ يملأ قلوبهم رعباً! - فلنَطِرْ إلى العلاكين، يا مولاتي!

- حسنـــاً، سأعمل برأيك للمرة الأخيرة، - وافقت المشعوِذة عابسة. - احملني إلى العلاكين، أيها البساط!

أجل، لقد كان العلاكون أناساً وجِلين ويحبون السلام، وطبيعيٌّ أنهم مـا كانوا تجرَّأوا يوماً على أن يخوضـوا معركة ضد الساحرة القوية، إلا أنهم وجدوا طريقة أخرى للتخلص من غزوة أراخْنا.

إذ لَمّـا كان العلاكون قـد أُنذِروا قبل وقت طويـل عن طريق بريد الطيور بقدوم أراخْنا المرتقب، فإنهم اختبأوا في مجاهل الأدغال وأحراش الوديان، ومـا أكثرها في بلادهم. وكانوا قبل عـام، وهُم يستعدُّون لصدِّ هجوم الماران عليهم، قد حفروا في عمق الغابة ملاجئ واسعة تحت الأرض فتَجمّعوا فيها مع عائلاتهم ومواشيهم.

وعندما جاء البسـاط الطائر بأراخْنا إلى البلاد الزرقاء وهو يميل جانباً، لا يحافظ على توازنه إلا بصعوبة، عبثاً فَتَّشت الساحرة وخادمها كل زاويـة في قرى العلاكين اللطيفـة البشوشة. إلا أنها كلها كانت خاوية تلعب فيها الريح.

لم يكـن لغضب الساحرة من حدود. وعندما وجدت في أحد الأكواخ قطّـاً تخلّى عنه أصحابه انقضَّت على ذلك الحيوان البائس فأمسكت به من ذيله وضربتْ به جذع شجرة ضربة لم تُبْقِ منه أيَّ شيء.

- يجب أن أفعل بك الشيء ذاته، أيها الكذّاب اللعين! - فَحَّتِ الساحرة وهـي تنظر بحقد إلى روف بيلان الـذي تَسَمّر من الرعب. - «إن سكان البلاد العجيبة سيرضخون بسرور لحاكمة عظيمة مثلك! »- قالت بصوت يقلّد صوت الخائن. - فأين هو هذا السرور، أين هو، قُـلْ لي! إنني لم ألحظه! - راحت أراخْنا تحقق باستهزاء مع الرجل الصغير الذي كان يرتجف رعباً.

تحتهـم على الأرض كانت الحقـول والغابات تمـرُ سابحةً ببطء، يكسوها الضباب.

❖ ❖ ❖

الأيام الصعبة في البلاد العجيبة

الضباب الأصفر

أوصل البساط الطائــر المعطوبُ صاحبتَه إلى المغارة بشق الأنفس. وما إن رأت أراخْنا الأقزام يتراكضون لاستقبالها حتّى صاحت بهم آمرة:

- هاتوا الغداء! اشووا الثيران! أسرعوا! وضاعفوا الكمية!..

كانت الثيران تشوى على ثلاثة مواقد، وتختفي واحداً تلو الآخر في شِدْق العملاقة الضخــم. وكان الطباخون الأقزام على وَشْكِ أن يسقطوا من التعب عندما ارتدَّت المشعوِذة عن المائدة أخيراً.

- لقد آن أوان النوم... - قالت مدمدمة.

ولكــن قبل أن تخلد إلى النوم أمرتِ أراخْنا الأقزام بأن يخيطوا لها حذاءً جديداً. وكان المؤرخ كاستاليو شديد الرغبة في أن يعرف كيف وجدت سيدته نفسها من غير حذاء، إلا أنه لم يجرؤ على سؤالها عن ذلك.

لقــد أشبع روف بيلان فضولــه. إذ لم يتمالك الخائن الثرثار نفسه أمام إغراء الإفضاء للمؤرخ بقصة مغامرات أراخْنا المحزنة. وهكذا أدرج كاستاليو رواية بيلان في واحد من أجزاء مدوَّنته التي أتاحت لنا التعرف على هذه الأحداث.

ما إن وصلت المشعوذة إلى فراشها حتى غطّت في سُبات عميق. ظلت أراخْنــا نائمة مدّة ثلاثة أسابيــع متتالية، حتّى إن الأقزام بدأت تراودهم الآمــال بأنها غطت مرّة أخرى في سُبات قد يستمر سنوات طويلة. إلا أن هؤلاء الناس الصغار لم يتجرّؤوا على عصيان أوامرها، فخاطوا لسيدتهم حذاء جديداً.



كــم كان ذلك العمل شاقاً! فقد احتــاج تنفيذ طلبها إلى جلود مائة ثور، ومن حسن الحظ أن هذه الكمية كانت موجودة في مستودعات شعب الأقــزام الحريصين. وبعد قياس قدمَي المشعــوذِة النائمة انهمك ثلاثون إسكافيّــاً بالتفصيل والخياطة في باحــة أمام المغارة. فيما راح عشرة من الأولاد الصنّــاع يُعِدّون الخيط المشمع. وقد فرغ الإسكافيون من صناعة النعلــين بسهولة كبيرة، أمّا صنع الجوانب والجزء الأعلى من الحذاء فقد كلّفهم عناء كبيراً، واضطُرَّهم ذلك إلى الاستعانة بالسلالم.

لقد تطلَّبت صناعةُ الحذاء للساحرة أربعَ مائةٍ وسبعَ عشرةَ لفةً من الخيط المشمَّع، والتــوى سبعُ مائةٍ وأربعةٌ وخمسون مخرزاً، إذ كان الجلد سميكاً، والعمل غير مريح.

ورغم ذلك، فإن أراخْنا وجــدت في الباحة عند استيقاظها فردَتَي حذاء عملاقتين. وانتعلتهما المشعوِذة فنالا إعجابها، فقد كان الإسكافيون يتقنون عملهم.

- والآن، هاتوا الغداء!- أمرت المشعوِذة.

وبعد أن شبعت الساحرة، استقلت تحت الشمس، وراحت تفكر كيف تنتقم من الناس.

- فلنفترِضْ أنني سأحاول أن أسبِّب لهم زلزالاً لائقاً؟- أعملت أراخْنا فكرها. - أظنُّ أنني لن أنجح. فإذا لم أكن قادرة حتّى على هزِّ وادي المــاران كما ينبغي، فإن قوتي لن تكفي لهز البلاد العجيبة بأسرها. هــل أرســل عليهم الجراد؟ لقــد كنت أنجح في هــذا السحر قبل سُباتــي الطويل. إن الجراد سيلتهم المحاصيل في الحقول، والعشب في المــروج، والثمار في بساتين الفاكهة... ومــاذا بعد؟ سوف تَنفق مواشــي المزارعين من قلة العلف، فلا يبقى لديهم ما أجبيه منهم. كلا، ليس هذا بحل!- أمرت أراخْنا نفسها. - وماذا في جُعبتي بعدُ؟

آهــا، هناك الفيضان. – ذلك ما سوف أنال به منهم! سيظلُّ المطر يهطل بغزارة مدة ثلاثة أسابيع، فتفيض المياه على ضفاف الأنهار، ويضطر الناس الصغار إلى طلب النجاة بأنفسهم من الغرق، وتسلُّق أسطحــة منازلهم، وحينها سيجــأرون. – صمتت المشعوذة قليلاً ثم تابعــت: – أن يجأروا، إنهم حقّــاً سيجأرون، ولكن ما الفائدة التي سأجنيهــا من ذلك؟ فهم لن يصدقــوا أنني أنا مَن يقف وراء ذلك كلِّــه، بل سيقولــون: «إنها الطبيعة!». وعندها جــرِّب أن تقنعهم!– ظلت أراخْنا مستلقية وقتــاً طويلاً وهي تفكر، وفجأة إذا بها تقفز من الفرح. – لقد تذكَّرتُ! الضباب الأصفر! وقتها يرون أيَّ منقلب سينقلبــون!.. الضباب الأصفر! إنني أذكر كيف كَسَرَتْ أمِّي كارينا، شوكة قوم «التاوريــك» الأُباة، عندما سلَّطت الضباب الأصفر على منطقتهم. إنهم لم يحتملــوا إلا أسبوعين حتى جاؤوا إليها خانعين. فمــا هي ميزات الضباب الأصفر؟ – تابعــت المشعوذة أفكارها. – إنني أستطيع أن أستدعيه، وأن أزيله في أي لحظة أشاء، وهذا يعني أن الجميع سيعرفون أن هذا من فعلِ سحري... والأهم من ذلك هو أنــه لم يسبق لهذا الضبــاب أن حلّ في البلاد العجيبة من قبلُ قَطّ، وسيكون ذلك شيئاً جديداً يُرعِب البشر والحيوانات على سواء.

ذهبت الساحرة إلى المغارة، فطردت الأقزام منها لكي لا يتلصصّوا عليها، ثمَّ استخرجت كتاب التعويذات من المخبأ السري. وعلى الرغم من مرور آلاف السنين كان الكتاب المكتوب على ورق البردي ما يزال في حالة جيدة. قلّبت أراخْنا صفحاته إلى أن وقعت على الصفحة المطلوبة.

– إذاً، – وجَّهت أراخْنا كلامها للكِتاب، – فأنا أنذرك بأن طلبي يجب أن ينفَّذ حين أقول: واحد، اثنان، ثلاثة! ولكن عليك أن تتذكَّر سلفاً: يجــب ألا يتسلل الضباب الأصفر إلى مملكــة فيلّينا وستيللا. فأنا

لا أريــد الاشتباك مع هاتين المغرورتين. فمن يــدري ما هي أنواع السحــر الذي تحتفظان به احتياطــاً، وكيف قد تردّان علَيّ؟ ثانياً: يجب ألاّ يمتدَّ الضباب الأصفر إلى محيط مغارتي، وألاّ ينتشر فوق حقــولي وبساتين فاكهتي، ولا فوق المروج التي ترعى فيها قطعاني. والآن فلْتسمعْ:

أوبــوررّرو- كوروبورّرو، تاندبارّرا، فــارادون- غارابادون، شابارّا- شارا بارّا، اظهر أيها الضباب الأصفر فوق البلاد العجيبة: واحد، اثنان، ثلاثة!

ومــا إن انطلقت هذه الكلمات الأخيرة من بين شفتَي الساحرة حتى خيَّم الضباب الأصفر الغريب علــى أرجاء البلاد العجيبة بأسْرها، فيما عدا أراضــي الساحرات الثلاث: فيلّينا وستيللا وأراخْنا. لم يكن الضباب شديــد الكثافة، وكانــت الشمس تظهر من خلاله، غــير أنها كانت تبدو شبيهة بحلقة قرمزية كبيرة، مثلما تكون قبيل الغروب، وكان ممكناً للمرء أن ينظر إليها ما طاب له النظر، غيرَ خائف أن يصاب بالعمى.

كان يخيَّل وكأن ظهور الضباب الأصفر لم يكن يمثّل مصيبة كبيرة إلى هذا الحد بالنسبة للبلاد العجيبة، ولكن انتظروا قليلاً لتعرفوا من خلال سرد الأحداث سرداً صادقاً مدى ما يحمله هذا الضباب من أضرار.

فلنبــدأ من القــول إن التلفاز السحري الموجــود في قصر الفزّاعة كان قــد توقّف عن العمــل. وكان حاكم جزيرة الزمــرد وأصدقاؤه طول الوقت يراقبــون سير ما تقوم به أراخْنا من أفعــال شريرة. لقد شاهدوا كيــف اقتطع التنين النبيه زاوية كاملــة من البساط الطائر، وكيف أصبح هــذا البساط بعد ذلك يترنّح في الجــوّ متقدّماً بصعوبة. كما تابعوا وهم يضحكون كيف كان روف بيــلان يجري راكضاً من قرية إلى أخرى، وهو يبحث في تلك القرى التي هجرها العلاكون عن شيء يؤكل، ثم في كل مرة

يعود إلى سيدته بخُفَّي حُنَين. ثم إن قيامَ المشعوِذة بقتل القط المسكين أثار استنكارَ الفزَّاعة وأصدقائه، بينما جعلتهم الوليمة الوحشية التي أقامتها أراخْنا يُغرقون في الضحك حتى تقطَّعت خواصرهم.

- يا لها من شهية! - كان المشاهدون عن بعدٍ يصيحون وهم يراقبون كيف تنتقل الثيرانُ واحداً تلو الآخر من مائدة أراخْنا إلى معدتها الضخمة.

وكانوا ينظرون بفضول أيضاً إلى الأقزام وهم يخيطون لأراخْنا حذاء هائلَ الحجم، ويتعجّبون من مهارتهم وممّا هم عليه من حبٍّ للعمل. كذلك كان الفزَّاعة والآخرون يهتّمون بما يحدث في وادي الماران وعند الغمّازين. فبعد انتصارهم على المشعوِذة عادت المياه هناك إلى مجاريها، وراح كل امرئٍ يهتمُّ بشؤونه.

وها قد جاء وقت انتهاء تلك المشاهدات اليومية، فلم يعد ظاهراً على الشاشة السحرية سوى غشاوة ضباب عكِرة رجراجة. ومنذ تلك اللحظة باتت مراقبةُ تحركات العدو متعذّرةً، وما كان بإمكان أحد أن يتنبأ بما قد تتخذه أراخْنا من إجراءات.

❖ ❖ ❖

رسول أراخْنا

تراجعت القدرة على الرؤية عبر الضباب الأصفر تراجعاً غيرَ معهود. فلم يكن بالإمكان تمييزُ الأشيـاء الواقعة على مسافة خمسين خطوة إلا بصعوبة كبيرة، أمّا كلُّ ما هو أبعد من ذلك فكان يختفي في عتمة عكرة. وكان ذلـك مُكرِباً حقاً. لقـد تقلَّص عالم كل شخص وضاق إلى أبعد حدّ. ولم يكن الناس يتعرَّفون إلى ما يجري حولهم من أحداث خارج حدود ذلك العالم الضيّق جداً إلا من خـلال الأصوات فقط، غير أن الأصوات أيضاً كانت تتشوّه في الضباب. فقد كان يمكن للمرء أن يخلط بين صوت إنسان ونعيـق غراب، وكان وقْعُ حوافر الخيل يتحـوَّل إلى قرْع طبول. وبات كلُّ مـا يحيط بالناس يبدو لهـم غريباً وغير مألوف. ولمّا كانوا يعتقدون بأن الضباب الأصفـر ليس إلا ظاهرة من الظواهر الطبيعية، دون أن يخطر لهم على بال أنه من مكائد المشعوِذة أراخْنا، فقد كان يساورهم الأمل بأن هذه المصيبة سوف تنتهي بين لحظة ولحظة.

ولم يـدرك سكانُ البلاد العجيبة أن استنشاق هواء الضباب الأصفر ضـارٌّ إلا بعد حين. فبعد مرور عدة أيام تأقلم الناس خلالها رغماً عنهم مع هذا الوضع الشاذِّ، بدأوا فجأة يسعلون. إذ تبيّن أن دخول أدقّ جُزَيئات الضبـاب الأصفر إلى الرئتين كان يـؤدّي إلى تهيُّجهما، وكان هذا التهيج يـزداد قوَّة يوماً بعد يوم. وهكذا باتت أصوات السعال تملأ أرجاء البلاد العجيبـة كلّها. لقد انتـاب السعالُ البشرَ، كما انتـاب الأيائلَ وحيواناتِ الرِّنَّـة، والدُّبّبةَ في الغابة. كانت السناجـبُ تسعل على أغصان الأشجار، والطيورُ تسعل وهي نائمة، بينما كانت تختنق بالسعال تماماً وهي تطير.

وفي أحـد تلك الأيـام التعيسة اقترب رجل كـرويُّ الجسم، أحمر الوجنتين، مـن عبّارة كانت تنقل المسافرين إلى جزيرة الزمرد. كان مزاج الرجـل ممتازاً. فطلب، وهو يضحك، أن ينقله كسّارو السنديان العاملون علـى العبّارة إلى الضفة الأخرى من القناة. وشرع أولئك بالعمل كعادتهم. وفيما كان العمّال يشدّون العبّارة بالحبال، فتح المسافر حديثاً معهم:

– كيف أحوالكم، أيها الإخوة، في هذا الطقس الرائع؟

– وبمَ يضرُّنـا هذا الطقس؟ – أجابه العامـل آروم. – الناس هم من يتضرَّرون، أما نحن فلا فرق عندنا.

حقَّاً، لم يكن للضباب الأصفر أيُّ تأثير على كساري السنديان، لأنهم لا يتنفَّسـون. فلـم يكن من بين سـكان البلاد العجيبة كلِّهـم من لم يتغيَّر عليـه شيء إلا كسّارو السنديان وسُعاة البريـد الخشبيون، أي باختصار، إلا تلـك المخلوقات التي بعث فيها أورفِن جوس الحياة بواسطة المسحوق السحري. وبالطبـع، فإن الضباب الأصفر لم يؤثر علـى أيٍّ من الفزَّاعة والحطاب الحديدي، لأنهما أيضاً ليس لهما رئتان.

رسـا المركب عند شاطئ المدينة، وقرع المسافر الجرس فوق البوابة ثلاث مرات، ففُتِحت كوّة وأطل منها حارس البوابة فارمانتا الذي ما كان يترك مكان مناوبته تحت أي ظروف!

عندما تعرّف فارامانت إلى الزائر صاح متعجِّباً:

– روف بيلان! لماذا جئتَ إلى مدينتنا؟

وتوقّـف فارامانت عن الكلام بسبب سعـالٍ خانق، فردَّ بيلان على حارس البوابة بهدوء:

– لقد جئت إلى هنا بصدد موضوع هام جداً، وأرجوك أن تمضي بي إلى سيادة حاكم جزيرة الزمرد!

– إذَن، فلنمضِ، – تذمّـر فارامانت. – سأمضي بـك إلى الفزَّاعة الحكيم. ولكن عليك، أوَّلاً، أن تلبس النظارة الخضراء.

- أما زلتم تضعون النظارات الخضراء؟ ولكن حتّى من بدونها، لا يرى المرء أيَّ شيء في هذا الغبش.
- القانـــون هو القانـــون، ولا سيّما عندما يكون مَـــن سَنَّه هو غودفِن العظيم!- أجاب فارامانت بجسارة.

وبالرغــم من اعتراضات بيلان ألبسَه حارس البوابة نظارة خضراء وأقفلها من الخلف بقفل صغير. وسرعان ما تقلّص مجال الرؤية إلى ثلاث أو أربــع خطوات، فتهيّأ لبيــلان أنه أصبح في وسط ليل مظلم. كان يسير وراء مرافقــه كمن يتلمّس الطريق تقريباً، ولم يُسعفْه في أن يسلك الاتجاه الصحيح إلا كونُه وُلِد وترعرع في مدينة الزمرد.

- بأي صفة أقدّمك إلى الفزَّاعــة الحكيم؟ - سأله فارامانت بعبوسٍ عندمــا وصلا إلى القصــر. فوضع روف بيلان يديــه في خصريه وأجاب:
- إنني رسول جلالة الساحرة العظيمة أراخْنا!
- آه، رسول تلك السيــدة التي أصبناها بحجر على يافوخها!- وضّحَ فارامانت باستهزاء.
- لا بأس، فأنتم تدفعون ثمن هذا الحجر غالياً.- قال روف بيلان.

بدت تلك الكلمات لحارســ البوابة غامضةً، ولكنه لم يقُل شيئاً، بل مضى ليوصل الخبر. استقبل الفزَّاعة الرسولَ حالاً. وكالعادة اجتمعت في القاعة لجنة الأركان المؤلَّفة من الجندي الطويل اللحية دين غيور، وحارس البوابة فارامانت، والغراب كاغي كار. وكان التلفاز الذي بات عديم النفع موجوداً على الطاولة.

- ما الخبر الذي جئتنا به؟ - سأله الفزَّاعة.
- إنــه خبر هامٌّ جداً، - أجاب الرســول بوقاحة. - فليكنْ في علمكم أن الضباب الأصفــر الذي أرى أنكم تعانون منه جميعاً قد سَلَّطتْه

على البلاد العجيبة مولاتي أراخْنا بهدف إرغام شعوب هذه البلاد على طاعتها.

استُقْبِل إعلان بيلان بريبة.

- وكيف يمكنك إثبات ذلك؟ – سأل دين غيور وهو يسعل.
- كيف؟ إذا ما أعطيتكم كلمة شرف فأنتم، طبعاً، لن تصدِّقوني؟

سعل أعضاء الأركان وأغْرَقوا في الضحك.

صاح فارامانت:

- كلمة شرفٍ من رجل خائن؟ أقسم بعرش غودفِن العظيم، إن هذا أوقح تصريح سمعته في حياتي!
- كنت أعرف ذلك، – قال بيلان دون مضض. – ولكن فلتنظروا إلى مظهري النضِر، ولتنتبهوا إلى أنني لا أسعل مثلما تسعلون كلُّكم. فبماذا تفسّرون ذلك؟
- لعلّك كنت مختبئاً في ملجأ لايصل إليه الضباب الأصفر؟ – افترض دين غيور وهو يمسِّد بمحبّةٍ لحيتَه التي لم يتخلَّ عن العناية بها حتى في هذه الظروف الصعبة.
- لقد حزرتَ هذه المرة. – وافقه بيلان. – غير أن هذا الملجأ واسع جداً. فهو يشمل ما للساحرة أراخْنا من أراض لا وجود للضباب فوقها على الإطلاق.

لَزِم أعضاءُ الأركان الصمتَ غير مصدِّقين، فقال الرسول متفهّماً:

- أعرف أنكم تعدّون هذا البرهان غير صادقٍ أيضاً. ليكُنْ، ولكنّني أعددت برهاناً أقوى حُجّة، ومقنِعاً تمام الإقناع. ليكنْ، فأنا أعتقد أن منتصف النهار سيحلّ بعد بضع دقائق، أليس كذلك؟ – سأل بيلان.
- إن الساعة الشمسية لا تعمل، لأن ظلَّ الشمس محجوب، – أجاب فارامانت. – إلا أنك على حق، فقريباً سيحلّ وقت الظهيرة حقّاً.



- إذاً، يا صاحبَ الفخامــة، وأنتم جميعاً أيها السادةُ الموجودون هنا، - أعلن روف بيلان بصوتٍ مهيب. - إن الساحرة أراخْنا سوف تزيل الضباب الأصفر في منتصف النهار تماماً، فترون الشمس الساطعة والسماء الزرقاء من جديد، وسيستمر ذلك خمس دقائق بالضبط! سيكون هذا كافياً لإثبات صحة ما أقول، وسأُطلعكم بعد ذلك على ما تمليه السيــدة أراخْنا من شروط تخلّصكم من الضباب الأصفر إلى الأبد.

مرت دقائق من الانتظار المضني.

وفجأة... غمر صالةَ العرش نورٌ باهر بدا، لكونه غيرَ مألوف، ساطعاً إلى درجــة جعلت دين غيور وكاغــي كار يزمّان عيونهما رغماً عنهما. ولم يستطع تحمُّل هذا التغيُّر الحادَّ في الإضاءة من غير ما ألم إلا عينا الفزّاعة المرسومتــان رسماً، فيمــا كان فارامانت وروف بيــلان يلبسان النظارات الخضراء.

وتحــول كلُّ شيء حولهم إلى مشهدٍ سحري. فقد تألَّق عدد كبير من أحجار الزمــرُّد على الجدران والسقف، وعلى ظهرِ كرسيِّ العرش، وبات من الصعب الآن حقّاً تحمُّلُ هذا البريق الفائق من غير نظّارات.

وقبــل أن يتسنّى لأعضــاء الأركان أن يُفيقوا مــن ذهولهم، اندفع الفزّاعــة اليقِظ نحو التلفــاز بعد أن أومأ بإشــارة لفارامانت. وقد فهم حارس البوابة مرماه، فأخرج الرسولَ من القاعة بسرعة، إذ كان لا يجوز إفشاء سر الصندوق العجيب أمام العدوّ.

راح الفزّاعة يتمتم بالكلمات السحرية على عَجَل وهو يمسح زجاج التلفاز المغبَّش، طالباً من الصندوق أن يريه الساحرة أراخْنا، فشاهدها.

كانت المشعوِذة تقف عنــد مدخل مغارتها وفي يدها كتاب التعاويذ السحرية. وكان واضحاً أنها قد فرغت للتوّ من ترديد التعويذة التي تُزيل

الضباب. لقد كانت علائم الانتصار باديةً عليها، والأقزام يتململون عند قدميها، فيما كان البساط الطائر منشوراً جانباً ليجفّ.

أجـل، لم يعُدْ هناك منذ الآن أيّ شـكٍّ في أن الضباب الأصفر كان من صنع يـدَي أراخْنا الساحرة. وهذا ما أثار دهشة جمع الحاضرين في القاعة، كأنه انفجار رعد فجائي. وترامت كلمات المشعوِذة عبر الشاشة:

- كاستاليـو، انظـرْ إلى الساعـة الشمسيـة. هل انقضـت الدقائق الخمس؟

- إن الوقت يشرف على الانتهاء، يا سيِّدتي. - أجابها كاستاليو.

وفجـأة ظهر مـا يشبه الغشاوة السوداء أمام عيـون الفزَّاعة ودين غيور والبقيّة. لقد كان وقْع ذلك عليهم مزلزِلاً، حتّى إنهم لم يستطيعوا أن يمنعوا أنفسهم من إطلاق الصراخ والعويل إلا بصعوبة.

- ها أنتم ترون الآن كم هي عظيمة قدرات مولاتي، - قال روف بيلان بغـرور وقد أدخلوه إلى القاعة. - إنهـا تتحكَّم حتّى بنور الشمس! وهـذا بصرف النظر عن كون الضبـاب الأصفر سامّاً، وأظنكم قد تحققتم من ذلك بأنفسكم. ولكم الآن أن تختاروا: فإمّا أن تقبلوا بأن تكونوا عبيداً لأراخْنا العظيمـة، فتدفعوا لها الجزية التي تتفضّل بفرضها عليكم، أو أن تَختنقوا ببُطء في هذا الهواء المسموم إلى أن يوافيكم الموت.

أطـرق الفزَّاعة وأعضاء أركانه مهمومين. فمـاذا كان بوسعهم أن يقولوا؟ إن الموت رهيب، ولكن حياة العبودية ليست بأسهلَ منه. صحيح أن الرجل المصنوع من القش لم يكن مهدداً بالموت اختناقاً، ولكن ماذا سيفعل عندمـا لا يبقى له من رعيته سوى كسـاري السنديان وحدهم؟ كلا، إنه سيختار لنفسه حينها ميتة سريعة وسط النار!

عاد روف بيلان إلى الكلام من جديد:

- إن السيـدة أراخْنا لا تطلب منكم جوابـاً فورياً. إنها تمنحكم مهلة

ثلاثــة أيام للتفكير. وعليكم خلال هذه المــدَّة أن تتَّخذوا قراراً، ثم تُخبِروني به.

قام فارامانت بمرافقة روف بيلان إلى ما وراء بوابة المدينة، وهناك خلــع عن عينيــه النظارة الخضراء. وعندها غمر الضــوء كل شيء أمام عينَي رسول أراخنا، فابتسم باستهانة قائلاً:

– يا لكم من غريبي الأطوار، لقد جنَيتم على أنفسكم بأنفسكم!

عبَر روف بيلان القناة، ثمّ مضى إلى أقرب حرش، وراح ينتظر قدوم أراخِنــا على البساط إليه. كان البساط الطائر قــد رُمِمّ فأُعيدَ تفصيلُه وخياطتــه بطريقة منحته شكله المربّــع الصحيح من جديد. لقد صغُرت مساحته، ولكنه بالمقابل لم يعُد يترنَّح في الجوِّ، أو يفقد توازنه.

❖ ❖ ❖

اكتشاف الطبيبين بوريل وروبيل

كانــت مهلة التفكــير التي حدّدتهــا المشعوِذة أراخْنــا توشك على الانتهــاء. فقــد اقتربت نهاية اليوم الثالــث، وكان روف بيلان سيعود من أجل الحصول على الجواب في منتصف النهار.

كان الضبــاب الأصفر لا يزال على سابق عهده مخيماً على البلاد، فيما كانت نوبات السعال تــزداد قسوة وهي تعصف بالناس والحيوانات والطيــور. وفي قصر الفزّاعة كانت تجري اجتماعات ومشاورات مستمرة دون انقطــاع، ويحضرهــا كل مــن يرغب في ذلك. وقــد شارك في تلك الاجتماعــات بريم كوكوس وروجيرو. إذ كان روجــيرو، بعد عدة أيام من ظهور الضباب الأصفر، قد ركب البساط الطائر الصغير وأمره بنقله إلى مقــر بريم كوكوس، حاكم العلاكــين. وكان حسناً جدّاً أن البساط الطائر كان يستطيــع إيجــاد الطريق إلى الهدف المطلوب مــن تلقاء نفسه حتى في ليــلٍ حالِكِ الظلام، وإلا لضلَّ روجــيرو الطريق حتماً في هذا الظلام الأصفر المخيم على على كل شيء.

وبعد التشاور اتَّفق هذان الصديقان على أن يذهبا في طلب النصيحة إلى الفزَّاعة الحكيم. فهو أشد سكان البلاد العجيبة ذكاءً، وقد حصل على مُخّه من غودفِن العظيم الرهيب نفسه. وعلى الرغم من أن البساط لم يكن مصممّــاً لحمل شخصين، إلا أنه تمكّن من الوصول بروبيرو وكوكوس إلى مدينة الزمرد. وها هما الآن مع الآخرين جميعاً يُعمِلان الفكر في البحث عن طريقة للخروج من هذا الوضع المأساوي الذي وضعتهم فيه أراخْنا.

هــل يتراجعون أمامها؟ هل يصبحون عبيــداً لها على مدى أجيال متتالية؟ أم يردّون عليها ردَّ الأُباة رافضين، وبذلك يُهلكون الشعب برمتّه،

وبالدرجـــة الأولى أولئك الأطفال الأبريـــاء الذين كانوا أكثر من عانى من جرّاء البقاء في هذا الجوّ المسموم؟

اقـــترح فارامانت أن يتظاهروا بموافقـــة المشعوذة على طلباتها من أجـــل كسب هدنة مؤقتة يبحثون خلالها عن طريقة لمقاومة أراخْنا. فيما كان آخرون يعتقـــدون بأنه ليس من السهل خداع الساحرة الشريرة. فهي ستطلب رهائن، وإذا ما تمرَّد الشعب عليها كان مصير الرهائن الهلاك.

وفي أثناء أشدِ لحظات الجدال حرارة انفتح باب قاعة العرش على مصراعيه فجأة، واندفع راكضاً عبْره الطبيبان بوريل وروبيل. لعلَّ القرّاء يتذكّـــرون بوريل الكُرَويَّ المرح وروبيـــل الطويل النحيل، وهما طبيبان من بـــلاد سكان المناجم. كان هذان الصديقان يتجادلان دائماً، ويسخران من بعضهمـــا بعضاً دائماً، إلا أنه لم يكن باستطاعة أحدٍ منهما أن يُمضيَ ولو يوماً واحداً من غير أن يلتقي صاحبه.

كان مظهر بوريل وروبيل غريباً. إذ كانت تتدلّى من منخريهما قطع مـــن القطن، وكانت تغطّي فمَ كلٍّ منهما أوراق شجر كبيرةٌ مربوطة بخيطٍ من الطرفين. كان هذان الطبيبان يتمتمان كلماتٍ مبهمةً بانفعالٍ وسرعة، إذ كانـــت أوراق الشجر تعيقهما في الـــكلام. وعندها خلع بوريل الخيط بغضب وأبعد الورقة عن فمه، ثم جأر قائلاً:

- يا للاكتشاف! إنه اكتشاف عظيم! لقد وجدنا...
- طريقةً لمقاومة الضباب الأصفـــر!- أردف روبيل بعد أن تحرَّر من الورقـــة أيضاً، إذ كان لا يحتمل فكرة أن يتحدَّث صديقُه وحدَه عن كلِّ شيء.

ومضـــى الطبيبان يقاطع واحدهما الآخر وهما يقصّان بانفعالٍ ما يلـــي. فبعد أن لجأ سكان المناجم مع أُسَرهم إلى جوف الأرض هاربين من الضباب الأصفر، ومصطحبين معهم العلاكين (لأن شعوذة أراخْنا لم تمتد إلى المغارة) لم يبق في القرية سوى بوريل وروبيل. وكان ذلك بطولة حقيقية

مـــن طرفهما، لأنهما كانا يسعلان مثل الآخرين. غير أن الطبيبين لم يكونا يفكِّــران بنفسيهما فيما كانا يتعرَّضان مدة طويلة لمفعول الهواء المسموم، إذ كانا يبحثان عن وسيلة لمقاومته. لقد تأكَّد لهما في بادئ الأمر أن المرء إذا مــا تنفَّس من خلال قطعة شاش مبلّلة بالماء لا يعود الضباب الأصفر مؤذياً لرئتيــه إلى هذا الحد، ويكون سُعالُه خفيفاً. إنها طريقة جيدة ولا شــك، ولكن من أين نجمع كمية مــن الشاش تسدّ حاجة كل سكان البلاد العجيبة من صغيرهم إلى كبيرهم؟ وفضلاً عن ذلك، كان لا بد من التفكير أيضــاً بالحيوانــات والطيور. وقررّ الطبيبــان أن الطبيعة سوف تمدَّ يد العون أيضاً.

«هــل يُعقل ألا يكون موجوداً في غاباتنا أشجار تسمح مسام أوراقها بمرور الهواء النقي، وتمنع تسرّب جزيئات الضباب الضارة؟»- فكر روبيل وبوريل.

لقــد جابا عشرات الأميال مــن الغابات والأحراشــ، واطّلعا على مئات الأنواع المختلفة من الأشجار. وكانا يرميان في الحال جانباً بالأوراق السميكة الخشنة القشرة من غير ما تفحُّص، إذ كان واضحاً أنها لن تعيق دخول الضباب الأصفر وحده، بل والهواءَ نفسَه أيضاً.

وبالمقابِــل، كان الطبيبان يتفحَّصــان ويُعاينان بدقَّة عالية كلَّ ورقة فيهــا ثقوب، أي فيها مسام دقيقة. وأخيراً تكلّل صبرُهما بالنجاح، عندما تبــيَّن لهما أن أوراق شجــرة الرافالو من النوع الذي لا يحلم المرء بما هو أفضــل منه. فقد كانت مساماتها تحبســ القطرات السامة، ويمر الهواء النقي منهــا بحرِّيَّة. كما كانت أوراق الرافالو تتمتَّع بمتانة كافية لتثبيتها على الأنف والفم بالخيوط.

صحيــح أنه سيكون من الضــروري بين وقت وآخــرَ غسْلُ الأوراق لتنظيفهــا من قطرات الضباب الملتصقة بهــا، ولكنَّ ذلك لن يكّلف كثيراً من الجهد.

وبعــد أن تأكّــد بوريل وروبيل تماماً من قيمــة اكتشافهما العجيب أسرعا إلى مدينة الزمرد مسرورَين.

- لقد ظللنا طول الطريــق نستنشق الهواء من خلال أوراق الرافالو، - راح الطبيبان يقــولان وأصواتهما تتقاطع، - إلى أن تخلَّصْنا من السعال تقريباً.

قوبل هذا الخبر بتصفيق يعبِّر عن الإعجاب.

وأمر الفزَّاعةُ قائلاً:

- يجــب أن نجهِّز بعثــة استكشافية تذهب حــالاً إلى البلاد الزرقاء لجمع أوراق الرافالو.

- لا تقلــق، يا صاحبَ الفخامة،- ردّ عليه بوريل. - فهناك في قريتنا خمســة من كســاري السنديان الذين كانوا يعملــون في بناء السد، وتنفيــذاً لأمرنا أحضروا إلى هنــا عشرة أكياس ضخمة مليئة بتلك الأوراق الثمينة. إن هذه الكمِّيَّةَ ستكفي البلادَ بأَسْرِها!

اقترب حاكم جزيرة الزمــرد من خزانة الحائط ففتحها، ثم أخرج منهــا وسامين وعلّقهمــا بصمت على قفطاني الطبيبــين اللذين كَسَتْهما حمرةُ الفرح.

- سنفتتح الآن في هذه القاعة نقطةً طبية اسـ - تِـ - شا . ريَّة مؤقتة، - قــال الفزّاعة، ثم أوعــز إلى فارامانــت: - فلتستدعوا حالاً كل أطبَّاء المدينة، والممرضــات، والعاملات، والمسعفين. أمّا أنتما، أيُّها السيِّــدان، فقوما بِـ - تعْـ - ليـ - مِـ - هــم كيف يستخدِمون أوراق الرافالو، ليقوموا هم بتلقين الشعب تلك المعلومات.

- نقطــة طبيــة اسـ - تِـ - شا . ريَّة، قُوما بــِ - تعْـ - ليـ - مِـ - هم... يــا لها من كلمات صعبة!- همس الغراب باحترام عظيم. - لكُم أن تتصوّروا فقط أننــي أنا من نصح الفزَّاعة بالحصول على مخّ! أنا بالذات لا أصدق...

سمـــع الفزَّاعة ثناء كاغـــي كار، فأحسَّ برأسه ينتفـــخ من الفخر، وراحـــت الإبر والدُّبّابيس تظهر منـــه. وفي هذه اللحظة دخل روف بيلان إلى الغرفة. لقد سمح له بالدخول إلى المدينة مساعدُ فارامانت، الذي كان مناوباً عند البوابة، دون أن يضع له النظارات.

وحين لاحظ رسول أراخْنا ما في القاعة من حيوية قال:

- إذا ما نظرتُ إلى وجوهكم الفرحة، أيها السادة، أعتقد بأنني سأحمل للساحرة أراخْنا جواباً طيِّباً. لعلَّكم قرَّرتم أن ترضخوا لها؟

اقترب الفزَّاعة من العرش بأناة، ثم جلس عليه بكبرياء، ونطق بكلام صارم:

- إن وجوهنا الفرحة تدلّ علـــى أننا نحتقر تهديدات مولاتك، وأننا نرفضـــ سلطتهـــا رَفْـ. ضاً. قا - ط - عـــاً! وليكن في علمك، أيها الخائن، أننـــا وجدنا... - قال الفزَّاعة، ونظـــر إلى روجيرو الذي وضـــع إصبعه على شفتيه محـــذِّراً، فتملَّصـــ الفزَّاعة من الموقف بذكاء، وقال:- ... لقد وجدنا أن أكثر ما يليق بكرامتنا هو أن نردَّ بالرفضـــ على أطماعها الوقحة! وهـــذا ما يمكنك أن تعود به إلى الساحرة!

غادر روف بيلان القصر محتاراً، فقال روجيرو للحاكم:

- كدْتَ أن تُفشيَ للعدو بأخطر سرٍّ عسكري لدينا!

- أجل، أعترف بأنني كدت أن أرتكب خطأً بسبب تسرّعي، ومن يدري ما هي الإجراءات التي كانت ستتخذّها أراخْنا، لو أنني بُحت لروف بيـــلان بسرّنا. ولكن، ما دمنا قد تطرّقنا بالحديث إلى هذا الخائن فأخبرني يا روجيرو المحترم، لماذا لم يُعِد عمال المناجم عندكم تأهيل بيلان بعد أن استيقظ؟

أجابه روجيرو:

- إنني أعرف من خلال تقرير المناوب في المغارة كيف وقع ذلك. فبعد أن استيقظ روف بيلان جرَت إعادة تأهيله وفق الطريقة المألوفة. غير أنها لم تستمر إلاّ مدة يومين، ثم اختفى بيلان بعدها. لقد وجدت في البيت الذي كان يقطنه بيلان بقايا حلوى من العالم العلوي، كما كانت تظهر في الممر آثار أقدام صغيرة إلى جانب آثار قدميه.
- كل شيء واضح، - قال الفزّاعة. - لقد خطفه رسل أراخَنا، ثم أعادت المشعوذة تأهيله على طريقتها. إنه لمن المؤسف جداً أن تكون الأمور قد سارت على هذا النحو، غير أنه لا مجال لإصلاحها الآن...

وفي هذه الأثناء كان المدعُووُّن من العاملين في القِطاع الصحّيّ، أطباء وممرضات ومسعفين، قد بدأوا يتوافدون إلى القصر. وكان كسّارو السنديان يدخلون حاملين أكياساً مليئة بأوراق الرافالو، وأحضاناً من الخيطان. كان الطبيبان بوريل وروبيل يشيران للأطباء إلى وجه ورقة الرافالو الذي يجب وضعُه على الفم، وكيف يثبّتون الخيط عليه...

وبينما كانت فوضى العمل تسود القاعة، نادى الفزّاعةُ الغراب.

- هل تعتقد، يا كاغي كار، بأن أشجار الرافالو تنمو في ضواحي جزيرة الزمرد؟ - سأله الفزّاعة.
- ولماذا تهتم بذلك؟
- أنت ترى أن الطبيبين أحضرا كمية كبيرة من هذه الأوراق، ولكنها لن تكفي إلا البشر، في حين أن علينا أن نفكر بالحيوانات والطيور أيضاً. ولهذا فإن البعثة التي تكلّمت عنها لا بدَّ من إرسالها، على الرغم من كل شيء. ولكن البلاد الزرقاء بعيدة جداً عنّا. فهل من أشجار رافالو في مكان أقرب؟



أطرق الغراب مفكّراً:

- إن لم تخنّـــي الذاكرة، فقد سبق لي أن تذوّقت ثمار الرافالو اللذيذة في غابــة النمور السيفيــة الأنياب. إنهــا في منتصف الطريق بين جزيرة الزمرد والبلاد الزرقاء.
- إذاً، أرجــوك أن تصدر الأوامر وترسل كساري السنديان إلى هناك، وليأخذوا معهم مزيداً من الأكياس.

شرع الجمهور في القاعــة بالتناقص. فقد بدأ الأطباء والممرضات والمسعفـــون يغادرون القصر حاملين معهم المـــواد الضرورية لإنقاذ الناس من الضباب الســـام. أمّا الفزَّاعة الذي كان رأسه يعجُّ بالأفكار الحكيمة، فقد انهمك بحديث مع بوريل. قال له:

- إننا، أيها الطبيب العزيز، سوف نبعد خطر المرض عن آلاف مؤلفة من البشـــر، ولكنّ ماذا تقول بخصوص الحيوانـــات والطيور؟ أمن المعقول أن نتركها للهلاك؟
- ولا بأيّ حالٍ من الأحوال، يا صاحب الفخامة!- ردّ بوريل بحماسة. - ولكـــنَّ المسألة مع الحيوانات والطيور صعبة. إذ سيكون علينا أن نثبِّتَ الأوراق على مناخيرها، وهيهـــاتِ أن يكون الربط بالخيطان مجدياً معها.
- ما رأيك لو قمنا بإلصاقها؟- سأل الفزَّاعة متردّداً.

فتألَّق وجه الطبيب وقال:

- لقـــد أوحيتَ لي بفكرة ممتـــازة، يا صاحب الفخامـــة! إننا سوف نُلصقها بالضبط، بالضبط! سنلصق قطعاً من الأوراق على مناخير الحيوانات والطيور، بـــل وأقول لكم، يا سيّدي، بأن العملية ستكون أسهل بكثير بالنسبة إلى الطيور! وها أنا سأُجرّب حالاً! تفضل، أيُّها السيد كاغي كار، بالحضور إلى هنا للحظة!

لم يكـن الغراب قد غـادر القاعة بعدُ، فطار نحـو الطبيب. وأخذ بوريل ورقة رافالو، وتفنَّن فقصَّ منها بالمِقصّ دائرتين صغيرتين، ثم أخرج من حقيبتـه الطبية علبة صمغ، ودهن أطراف الدائرتين وألصقها بخفّة علـى منخري الطـير. وبلمح البصر وجد كاغـي كار قطعتين خضراوين تزيّنان طرفي منقـاره، سوف تقومان منذ الآن بتصفية الهواء ومنعِ مرور جزيئات الضباب السامّة.

– كيـف وجدت هذا، يا عزيزي، ألا يعجبك؟ – ضحك بوريل. – أظنّ أن هذه الأشياء تزّينك. انظر إلى المرآة.

لقد أدهش الطبيب الجميع بخفّته، أما كاغي كار فقد شعر بسهولة التنفس حالاً، وعبّر بحرارةٍ عن شكره لبوريل.

❖ ❖ ❖

افتُتِح في المدينة عدد من النقاط الطبيّة التي كان الأطباء والممرضات يـزوّدون فيها السـكان بمصافي الرافالو، وكانوا يولُـون الأولوية لخدمة الأطفـال والشيوخ. بالطبع، كان لا بد مـن خلْع هذه المصافي وقت تناول الطعام والشـراب والحديث. ولمّا كان تناولُ الطعـام والشراب لا يتطلّب من الإنسان وقتاً طويـلاً، فقد نصح الأطباء بالإقلال من الأحاديث قدر الإمـكان. ومع أن ذلك لم يحظَ بإعجاب بعض الثرثارات، فإنهنَّ رضين به على مضَض.

على أنّ صحة السكان أخذت تتحسن، فكانوا يتضرَّعون إلى السماء بالدعاء للطبيبين المخترعين بوريل وروبيل.

وبأمرٍ من الفزَّاعة أُرسِلـت أكياس من أوراق الرافالو إلى الغمازين وإلى وداي المـاران. كما أن الفزَّاعــة لم ينسَ أورْفِن جوس أيضاً. فقد كان ينبغــي أن يوجَّــه إليه الشكر على مـا أبداه من شجاعــة، وأن يُنقّذ من

الهــلاك. ذلــك أن أورفِن سوف يهلك في عزلتــه لا محالة، لأنه لا يعرف وسائل مكافحة الضباب الرهيــب. أمّا المراسل الخشبي «ريليم» الذي لا يعرف التعب ولا يهاب السموم، فكان لا يكفُّ عن الركض في الليل والنهار إلى جبــال حول العالم وهــو يحمل حقيبة فيها رزمةٌ مــن أوراق الرافالو وتعليماتٌ تبيّن كيفية استخدامها، وعلبةٌ من الصمغ من أجل البومة.

وعلاوةً علــى ذلك، وتلبيةً لطلب الفزَّاعة كتب فارامانت رسالة إلى النجار يدعوه فيها لزيارة مدينة الزمرد.

فقد كتــب له حارس البوابــة قائلاً: «إنه لمــن المستحيل أن نواجه المصيبــة فرادى. أمّا هنا، وسط الناســ، فإنك ستجد المساعدة والدعم. ولتعلَــمْ أن ما ارتكبتَه من أخطاء بحقّ ســكان البلاد العجيبة أصبح طيَّ النسيان، وقد غفرناه لك. إننا نعرف كم كان تصرّفك نبيلاً عندما التقيت أراخْنا، ونعرف أيضاً أنــك رفضت العمل في خدمتها... قد تسألنا كيف عرفنا بذلك. إلا أن هذا سرٌّ عسكري لدينا».

كان أوّل العائديــن هــم كسارو السنديان الذيــن أُرسِلوا إلى البلاد البنفسجية. وقد أرســل الحطاب الحديدي بشكره النابع من القلب على وسيلــة مكافحة السعال التي لا تقدَّر بثمــن، والتي تم استخدامها حالاً. صحيح أنه لم يكن بحاجة إلى هذه الوسيلة، إلا أن أعضاءه الحديدية بدأت تصــدأ بسرعة مدهشة مــن جَرّاء جزيئات الضبــاب الأصفر السامة... ولكي لا يُصدِرَ احتكاكُ مفاصله صريراً، ومن أجل أن يتحرَّك فكّاه أيضاً، كان على الحطاب أن يشحّمها بالزيت مرتين في اليوم، صباحاً ومساءً.

وبعــد عدة أيام جاءت المجموعة الثانية من كسّاري السنديان الذين كانوا قاموا بزيارة إلى بلاد الماران. وقد جاءت هذه المجموعة بخبر يبعث علــى الفضول. إذ تبــيّن أن الوادي خالٍ من الســكان، ليس فيه بشر ولا وحشــ ولا طير! وقد ظن الرجــال الخشبيون في بادئ الأمــر أن سكان الــوادي قد انقرضوا. ولكن أين هي الجثث، في هذه الحالة؟ ولم يتكاسل

غيتون، رئيس فرقة كساري السنديان، عن السير مسافة عدة أميال باتجاه الشمـــال الشرقي. وإذا به يخـــرج من الضباب فجـــأة ليجد نفسه تحت أشعة الشمـــس الحارَّة والسماء الصافية: لقد وصـــل إلى أراضي ستيللا التـــي لم يكن فيها وجود للضباب الأصفر. وقـــد اكتشف غيتون أن قبيلة النطاطين كلَّها موجودة في البلاد الزهرية. إذ كانوا قد طلبوا من ستيللا أن تمنحهم المـــأوى، فرحَّبت الساحرة الطيبة بهم وبكل ما اصطحبوا من متاع بسيط وماشية (بالطبع، لم تكن الحيوانات البريّة والطيور بحاجة إلى إذن مرور!).

وقـــد سكن كثير من الماران عند الثرثارين (هذا هو الاسم الذي كان يطلـــق على رعايا ستيللا)، أمّا أولئك الذيـــن لم يجدوا مكاناً فقد تدبّروا أمرهم في الأكواخ والخيام.

وأرسل زعماء الماران أيضاً بتحياتهم وشكرهم الخالص إلى الفزاعة. ولكنهم احتفظوا بأوراق الرافالو وبالتعليمات الخاصة بطريقة استعمالها، وذلك من باب الاحتياط، فمن يدري ما الذي قد يخطر على بال الخبيثة أراخْنا!

وجـــاء ريليم السريع في الوقت المناسب وهو يحمل رسالة من أورْفِن جوس. لقد كان الملك المخلوع مسروراً من صميم قلبه لأن الناس غفروا له شروره الماضية، وكان يأمل أن يشكرهم، إنْ عاجلاً أم آجلاً، على ما أبْدَوْهُ إزاءه مـــن شهامة. وألمحَ مازحاً بذكاء إلى «السرّ العسكري» الذي كتب عنه فارامانت. بالطبع، إنـــه صندوق ستيللا السحري الذي سبق أن ضربه به على رأسه صبيٌّ من العالم الكبير، ولكن فليبقَ السّر سراً.

أمّـــا الزيارةُ التي عُرِضت علـــى أورْفِن، فقد اعترف أنه سيكون من الصعب عليه حالياً أن ينظر في عيون الناس الذين كان شديدَ الظلم لهم، شديـــدَ البطش بهم فيما مضى. وقد كتب أورْفِـــن قائلاً، فليمضِ بعضُ الوقت، ريثما تعود المياه إلى مجاريها الطبيعية.

لقد أوجد أورفِن جوس طريقته الخاصة لمقاومة الضباب الأصفر. إذ كان لديــه في مزرعته مستــودع صغير كتيم الجدران. فقــام بسدِّ كلِّ شقوقــه بمعجون، وغلّف بابه بجلود الأرانــب المنزلية، أمّا الضباب الذي كان يملأ المستودَع فقــد تخلَّص منه أورفِن بطريقة مبتكرة. إذ أضرم في موقــدٍ حديديّ ناراً من قطــع خشبٍ صغيرة وعُشــبٍ أخضر، محاولاً أن ينجُــم عنها أكبر قدْرٍ من الدّخان. فكانــت جزيئاتُ الدخان، وهي تهبط علــى الأرض، تجتذب إليها قطراتِ الضباب، ممّا أدّى إلى تنقية الجوّ في المــكان. وهناك، في ذلك المستــودع، كان أورْفِن جوس وغواموكو يُمضيان وقتهمــا وكأنهمــا في قلعة محاصرة، لا يغادرانهــا إلا أقصرَ وقت ممكن. وبوجلٍ أعرب أورْفِــن جوس عن أمله في أن يكون الأسلوب الذي اخترعه لمكافحــة الضباب الأصفر مفيداً ولو قليلاً لسكان مدينة الزمرد وغيرها من البلدان.

وعندمــا قرأ فارامانــت رسالة أورْفِن على أعضــاء الأركان، طغى الإعجاب على الفزَّاعة فقال:

- لقــد كنت أقــول دائماً إن جوس يتمتَّع بمخّ خــارقِ الذَّكاء، - صاح حاكم مدينة الزمــرد. - إلا أنه كان في ما مضى يوجِّه هذا الذكاء باتجــاه السوء، أمّا الآن فانظروا مــا أروعَ الفكرة التي ابتكرها!.. إنها وحدَها كافيــة للتكفير عمّا أوقع بنا من ويلات. وهذا بصرف النظــر عن الخدمة العظيمة التــي أسداها لبلادنا حين لم يستجب لرجــاءات أراخْنا. فلو قَبِلَ هذا الرجل الشجاع المبتكِر أن يعمل في خدمة المشعوذة، لكان تسبَّب، بالتعاون معها، في عدد لا يُحصى من المصائب. إن أورْفِن ليس ذلك الغبي الجبان روف بيلان.

وفي ذلــك اليوم نفسه تمت تنقية غرف القصر كلِّها بطريقة أورْفِن جوســ، وتم الإعلان عن هذه الطريقة على المــلأ ليعرفها الجميع. غير

أن الضبــاب كان بين وقت وآخر يتسرَّب إلى الغرف عبر الشقوق الخفية. وبالطبع ظلَّت أوراق الرافالو الوسيلة الأساسية لمكافحة الضباب الأصفر، فقد بات الآن مزوّداً بها كلُّ سكان مدينة الزمرد وضواحيها.

وبالرغــم مــن المقاومة المستميتة التــي أبداهــا فارامانت، أصدر الفزَّاعــة قراراً يسمح للمدنيين بخلع النظــارات الخضراء. وقد استقبل سكان المدينة هذا القرار بابتهاج كبير، إذ غَدَوْا قادرين على الرؤية مسافة خمسين خطوةً حولهــم، وكان ذلك بحدّ ذاته تخفيفاً كبيراً عنهم. ولم يبق أحــد يلبس نظّارة إلاّ حارســ البوابة الذي راح يتسكع في الشوارع متعثراً بالمارّة. فقــد كان النهار بالنسبة إليه ليلاً حالكاً، وعلى الرغم من ذلك لم يكن فارامانت العنيد يرغب في أن يخالف أوامر غودفِن.

لقــد افتُتحت في غابات بلاد الزمرد وحقولها مئات النقاط الطبية مــن أجل الحيوانات والطيور. فكانت الأرانب، والقطط البرية، والذئاب، والثعالب، والدّببة، والسناجب تصطفُّ أمام الممرضات في طوابير طويلة... ولم يَعُــد مسموعــاً بين رفوف الطيــور ما كان مألوفاً مــن زقزقة بهيجة وتغاريد عذبــة. وكانت الغربان، والبلابل، والزُّمَّــت[11]، وطيور السنونو، تقف كئيبة، منكِّسة مناقيرها إلى الأرض.

وفي الطوابــير كان سلام غامرٌ يسُود بــين كل فصائل الحيوانات. وإذا مــا حاول وحش من الوحوش إزعاج حيوان ضعيف كان يتلقّى عقاباً قاسياً ويوصم جبينه بدمغــةٍ لا تزول، فلا تعود تستقبله أي نقطة طبية. وكان للتهديد بهذا القصاصِ تأثيرٌ ممتاز، إذ إن أكثر الوحوش ضراوة بات مسالماً مثل النعاج.

وكانت مراعاة النظام صارمة جداً، حتّى إذا ما حاول دوريٌّ منفوش الريشــ، أو ثعلب ماكــر أن يتخطّى دورَه، فإن الوقحــين كانوا في الحال يُطردون شرَّ طردة، مذلولين.

---

(١١) الزُّمَّت طائر من فصيلة الغُربان، أَسْوَد، أحمر الرِّجلين والمنقار. - المترجمة.

كانت الحيوانات والطيور تقف أو تستلقي دون حَرَاكٍ قرابة ساعتين في مــكان منعزل، وعلى مناخيرها أو مناقيرها أوراق الرافالو بانتظار أن يجفّ الصمغ. وبالمقابــل، كان يعقُب ذلك تحسُّنٌ سريع في صحَّة المرضى من ذوي القوائم الأربع، وأصحاب الأجنحة.

❖ ❖ ❖

مصيبة جديدة

عندما عاد روف بيــلان من زيارته الثانية إلى مدينة الزمرد، أخبر المشعوذة بالنتيجة غير المُرْضية.

- إن شعــوب البــلاد العجيبة ترفض قَطْـ . عاً . رَفْــ . ضيـ . يًّاً [١٢] أن تعترف بسلطانك يا سيدتي! – أعلن بيلان.
- قَطْـ . عاً . رَفْـ . ضيـ . يًّاً ... وما معنى هذا ؟
- لا أعــرف، يا مولاتي. إن الفزّاعة الحكيم يحبُّ كثيراً هذه الكلمات الطويلة. لعلَّ هذا يعني: ولا بأي حال من الأحوال.
- قُلها منذ البداية. ففي أيّامي لم يكونوا يستخدمون مثل هذه الكلمات المعقَّدة.

أمّــا الطريقة التي اخترعها النــاس لمكافحة الضباب الأصفر فقد علِـم بها وأبلغهــا إلى أراخنا أولئك الأقزام الذيــن لا يخفى عنهم شيء. حتــى إنهم جاؤوها بنمــاذج من أوراق الرافالــو (إذ كان الأقزام أنفسهم يستخدمونها عندما يدخلون إلى منطقة الهواء المسموم).

- أوراق الرافالــو... م... م!– أطرقت الساحــرة في تفكير طويل. – وماذا لو أمرتكم بقطف كل الأوراق عن أشجار الرافالو؟ فعند ذلك لن يعود أولئك المسوخ يجدون بديلاً للأوراق التي ستهترئ ولا تعود صالحة للاستعمال.
- مــاذا تقولين، يا مولاتنا الرحيمة!– توسَّــل إليها كاستاليو. – ففي البــلاد العجيبــة آلاف مؤلفة من أشجار الرافالــو وعليها ملايين الأوراق... فهل يمكننا حقاً أن ننهض بمثل هذه المهمة الصعبة؟

---

(١٢) أي «رفضاً قطعيّاً». ويدلُّ جهلُ بيلان بهذه الكلمات والتعابير على مستواه الثقافي المتدنّي. – المترجمة.

- أجـــلْ، للأسف، للأسف... ولكن لا بأس، فما زال في جُعبة الضباب الأصفر ما يُريهم إيّاه!

وحقّاً، لقد فعل. فما إن كاد الناس يتمكّنون بصعوبة من أن يتغلّبوا علــى السعال، حتّــى اكتشفوا أن الضباب الأصفــر يؤثّر في البصر. فقد كانــت العيون تلتهب في الصبــاح ويكون من العسير فتح الجفون المطبقة، فيُضطَــرُّ الناس إلى تبليلها بالمـــاء. و لمّا كان الناس في الأصل لا يبصرون جيــداً من خلال الضباب الأصفر، فإن مجال الرؤية لديهم قد ازداد الآن ضيقاً. إذ بعد مسافةِ خمسَ عشرة أو عشرين خطوة يبدأ الظلام الدامس يغمر كل شيء، وكان هذا رهيباً.

وعندهـــا طلــب الفزّاعة المساعــدة من بوريل وروبيـــل، لأن هذين الطبيبــين لم يعــودا إلى العالم السفلي، بل ظلا يعيشـــان في مدينة الزمرد ويواصلان أبحاثهما العلمية...

- إن لدينـــا وسائـــلَ لمكافحة التهاب العيون، - قـــال بوريل. - فنحن نقطِّر قطرات معينة في عيون المرضى... ولكنْ!- وهنا رفع الطبيب إصبَعَه. - ولكنَّ هذا لا ينفع إلا في حال القضاء على مسبِّب المرض. فأين هـــي القطرات العينيـــة التي تشفي من هـــذا المرض ما دام الضباب الأصفر لا ينفكُّ يؤثّر على العيون باستمرار؟

وهنا تدخَّل روبيل في الحديث.

- النظـــارات!- قال بفخر. - يجب أن يلبســ الناس نظارات تلتصق بالوجه تماماً. وعندئذٍ لا تعود جزيئات الضباب تصل إلى الملتحمة من العين، وبذلك يصبح علاج الالتهاب بالقطرة ممكناً.
- وهنا اندفع بوريل العاطفي نحو رفيقه ليعانقه.
- إنك لعبقـــريٌّ، أيها الزميل! - صاح بوريل. - إنك عبقريٌّ كامل، لا تتكـــرَّر! فاقتراحك سهلُ التطبيق، لأن سكان بلدتنا يحتفظون بعدة

آلاف من النظارات التي لم يَعُدْ يلبسها أحد بعد انتفاء الحاجة إليها منذ حوالي أربعة أعوام مضت.

- لكنهـا عاتمة، - اعترض الفزَّاعة. - فالعيون ستكون محمية، إلا أن الناس لن يتمكنوا من رؤية شيء.

- هـذا بسيط ، - أوضح روبيل. - لأن النظارات مصنوعة من بلّور عاديّ، ومطليّ بلونٍ قاتم. وسوف نزيل هذا اللون بالماء.

ودونَ أن ينطـقَ بحرف واحـد أخرج الفزَّاعة مـن خزانة صغيرة وسامين وعلّقهما على صدرَي الطبيبين.

وبعد ساعة انطلق جميع المراسلين الخشبيين الذين كانوا موجودين في المدينة، مسرعـين باتجاه بلدة سكان المناجم وهـم يحملون الحقائب والسـلال. وكان رئيسُ هذه الجماعة قد أُعطيَ مفتاحَ المكان الذي توجد فيـه النظـارات، وأُمِر بمراعـاة أقصى الحذر في توضيبهـا. وقد تقرَّر استعمـال نظارات فارامانت الخضراء أيضاً، فشعر بالكبرياء حالاً، ورفع أنفه عالياً.

- ألم أقل لكم! لقد قلت! - راح يردّد. - حقّاً، لقد كان غودفِن حكيماً عظيماً! فقد تنبأ بكل شيء، حتى بالضباب الأصفر!

غـير أنه، قبل استخدام النظارات الخضـراء، كان لا بد من القيام بعمل كبـير يرمي إلى تزويدها بإطارات مطاطيـة. وهذا ما جَعَل جميعَ الإسكافيين في المدينة ينكبّون على إنجازه.

فقد جاب المنادون المدينة وهم يذيعون أمر الحاكم:

لقد أدّى الضباب الأصفر إلى تفشّي وباءٍ خطيرٍ، هو التهاب العيون. وكتَّ - دا - بيـ - رَ وِ - قا - ئيَّة (كان السكان يتساءلون فيما بينهم: «ما معنى هذه الكلمات؟») يتوجب على كل سكان المدينة وضواحيها اتِّباع ما يلي:

١- على كل من لديه نظارات مزوّدة بإطار أن يلبسها فلا يخلعها.

٢- عندمـــا يكون المرء في المنزل يجب عليه أن يحيط عينيه برباط من القماش أو الشاش، وأن يُكثِر من ترطيبه بالماء البارد باستمرار.

٣- وأن يحاول إبقاء العينين مكشوفتين أقلَّ مدَّة ممكنة.

٤- ابتـــداء من يوم غـــدٍ تستأنف النقاط الطبية عملهـــا، فنعالج بهذه القطرات كل من يعاني من التهاب العيون.

٥- على جميع الصيادلة أن يبدؤوا حالاً بإنتاج القطرات العينية وبأكبر كمية ممكنة.

٦- البدء بصناعة النظارات المزّودة بالإطارات التي تمنع تسرّب الضباب السام، وسوف يُعلَن للسكان عن مواعيد تسليمها في وقت لاحق.

٧- يأملُ حاكمُ بلاد الزمرد، الفزَّاعةُ الثلاثيُّ الحكمة، أن يتقيَّد السكّان بالـــ. انّـــ. ضِـ. باط، وأن يلتزموا بتنفيذ أوامـــره بِـ. حذا. فيـ. رِ. ها.

- يا لها من كلمات!- كان المدنيون يتهامسون وهم يُصغون إلى المنادين.

- يـــا لها من كلمات رائعة، طويلـــة وغامضة! كلا، إننا بوجود حاكم من هذا النوع لن نضيع، فهو مَن سينقذنا من المِحنة!

❖ ❖ ❖

الفزَّاعة يُصدِر قراراً هامّاً

لقد نجحت مكافحة الإصابات العينية إلى حدّ ما بفضل الإجراءات الوقائيــة والعلاجية التي اتَّخذها الفزَّاعة وقيادةُ أَركانه، وكان قد انضمّ إلى هذه القيادة الآن الطبيبان بوريل وروبيل اللذان تقلَّدا الأوسمة مرّتين. أمّــا الحيوانات والطيور فكانت حالتها الصحيــة سيِّئة. وقد كان الناس يصونــون رئاتها من أذى الضباب السامِّ باستخـــدام أوراق الرافالو. غير أن الحصول على عدد مــن النظارات يكفي الجميع كان شيئاً مستحيلاً، ولكان لا بدَّ من صنْعُ نظارات من شتّى الأشكال والمقاييس.

لذا قدَّم بريد الطيور التتابعي إلى جميع الحيوانات والطيور نصيحةً وحيدة قابلــةً للتطبيق، وهي التقليل من إبقــاء العيون مفتوحة. فكادت الحياة تتوقّف في الحقول والغابات. ولئن كانت الحيوانات العاشبة تتدبَّر أمرهــا على نحوٍ من الأنحاء، لأنها كانت تستطيع أن تقضم العشب وهي مزمومة العيون، فإن الحيواناتِ المفترسةَ كانت تكاد تسقط بسبب الهزال والإنهاك، لأنها لا تستطيع الاستغناء عن العين البصيرة، الثاقبة النظر من أجل مطاردة الفرائس. وكانت الطيور التي تقتات على الحشرات، من قبيل آكلات الذبــاب، والخطاطيف، والدّنّور، وطيور الوقواق، تغطي الأغصان نافشــةً ريشَها باكتئاب، فلا يبقــى إلا نقّار الخشب الذي لا يعرف الكلل، ماضياً في نقر قشور جذوع الأشجار، باعثاً في الغابة الحياةَ بنقره الرنّان.

وخلال هذه الأيام الصعبة على البلاد العجيبة أخذت تتبدّى ظواهرُ مثــيرة للقلق لم يلتفت إليها في البداية إلاّ من هم الأكثر نباهةً بين الناس. فقد ظلَّ الضباب الأصفر مخيِّماً على البلاد مدّة تزيد على ثلاثة أسابيع. وسبــق أن تطرّق الحديث إلى أن الشمس في السماء كانت تبدو على هيئة

قرصٍ أحمرَ قاني اللــون باهتٍ، وقد فقدت أشعتها القوية. ولم تَعُدْ أشعّة الشمس قادرةً، وهي تخترق الضباب أو لا تكاد، على منح الدفء المعهود، فــكان انعكاس هذا الضعف يزداد قوّة يوماً بعــد يوم. ولم ترتفع السنابلُ في حقول القمــح، وأصابها الهزال، ولم تمتلئِ الثمــار في بساتين الفاكهة بالعُصارة، بل تدلّت على الأغصان هزيلة مجعّدة...

كانــت البلاد بانتظار قحط لم تعهده منــذ آلاف السنين. وبالطبع، كان يمكــن تحمُّلُ سنة واحدة من القحط بفضل ما كان لديها من مخزون احتياطــيّ، ولكن ماذا سيحلّ بالحيوانات والطيور؟ بل ولن يحلَّ أبداً ربيع جديد بعدَ هــذا القحط. كانت البلاد العجيبــة تسير نحو الهلاك. لقد وجَّهت لها أراخْنا الشريرة ضربةً قاتلة.

❖ ❖ ❖

وصــل إلى مدينة الزمرد ضيوف أعــزاء من البلاد البنفسجية، هم الحطــاب الحديدي الذي كان يشحِّم بين الحــين والآخر فكَّيه ومفاصلَه بالزيــت من إبريق ذهبي، يرافقه الميكانيكي ليستار ومساعدوه. وقد جاء هــذا الفريق من كسّاري السندیان معه بعدّة حزَم من الأبواق التي صنعها الغمّــازون من قصب الخيزران. كان ليستار قــدَ سمع يوماً من بحّار ذي رِجْــلٍ وحيدة، يُدعى تشــارلي بليك، عن كيفيه الحصــول على التدفئة البخارية، فقرر الآن أن يُهيّئَ قصر الفزَّاعة لأوقات البرد المرتقبة.

وأفاد ليستار بأن إنتاج النظارات المزودة بإطارات قد بدأ في البلاد البنفسجية أيضاً، وذلك بعد أن جاء إليهم مراسل خاص من طرف الفزَّاعة يحمــل معه ثلاثة نماذج من النظارات. كان العمل يسير على قدَمٍ وساق، على أيدي حرفيــين ماهرين، وما أكثرهم بين الغمازين. كما أفاد ليستار بــأن الهــواء في القصر البنفسجي وفي منازل الغمازيــن يُنقّى يومياً على طريقة أورِّفن جوس، وهذا ما يساعد كثيراً في مكافحة الضباب الأصفر. وقد سُرَّ الفزَّاعة وأعضاء أركانه بهذه الأخبار.



وبعـد مُضيّ عدة أيام جـاء الأسد الشجاع يعرج تعبـاً بعد قطعِهِ طريقـاً شاقةً. وأخبرهم وهو لا يكفُّ عـن السُعال ويزّم عينيه الملتهبتين، بأنـه نجـح في نقل أسرته ورعايـاه إلى البلاد الوردية كـي يكونوا هناك تحت رعاية ستيللا الطيبة. أمّا هو فقد قرر أن يذهب إلى مدينة الزمرد ليتحقق من صحَّة ما بلغه مـن إشاعات غامضة حول الكارثة التي حلت بالبلاد العجيبة والتي سببتها مؤامرات الساحرة الشريرة.

شرع الطبيبان روبيل وبوريل في الحال بعلاج ملك الحيوانات. وبعد أن أجريـا له عمليـة تهوية لرئتيه، وكررّا تنقيـط القطرة في عينيه عدة مـرات، شعر الأسد بتحسّن ملحوظ. غـير أنه فقد مظهره الملكي المهيب بسبب قدميه المضمَّدتين، والمِصفاتَين الخضراوين على منخريه، ونظارته الخضراء العملاقة، ممَّا أثار ضحك الفزّاعة.

وحين انتهى الطبيبـــان من إجراءاتهما، وتـــركا الأسد وشأنه، قال الأسد:

- لقد تساقط عندنا الثلج، هكذا أسمته الطباخّة فريغوزا، إذ سبق لها أن سمعت بهذه الكلمة عندما كانت إيللي تحكي لها عن كَنساس.
- ما هو الثلج؟ - سأل فارامانت.

لم يكـــن السؤال غريباً، لأن صيفاً سرمديـــاً كان يعم البلاد العجيبة منذ عدة آلاف من السنين، فوضح له الأسد:

- الثلـــج ندَفٌ بيضاءُ طريَّةٌ تهبط من السمـــاء. إنها تشبه ندف زهر شجـــر الحور، ولكنـــه بارد. على أية حال، فـــإن هذه الندف تذوب عندمـــا تهبط على فـــروة الحيوانات أو على الأرضـــ، فتنتج عنها قطرات من الماء....

تدخَّل الغراب في الحديث قائلاً:

- لقد رأيت كثـــيراً من الثلج، عندما كنت أحلّق فوق جبال حول العالم باحثاً عن طريق لتسلكه إيللي والعملاق من وراء الجبال. إنه أبيض حقّاً، ولكنه ليس طرياً أبداً، كما يصفه الأسد. إن الثلج يتكدّس فوق السفوح الجبلية، ويكون قاسياً، حتى إنَّ المرء ليتمكّنُ من السير فوقه دون أن يغوص فيه.

وأدار الجميع وجوههم لا شعورياً نحو النافذة لإلقاء نظرة على قمم الجبال الثلجية المتألقة التي كانت تظهر من المدينة بوضوح في أثناء الطقس الصافي. لكنّ، وا أسفاه! لقد كان الظلام العَكِر يحجب كل شيء.

وأردف كاغي كار:

- كمـــا أخبرتني إيللي أنا أيضاً بـــأن كثيراً من الثلج يتساقط عندهم، في العـــالم الكبير، خـــلال فصلٍ واحد من السنـــة، وتأتي أيّام البرد. عندها يقول البشر: لقد حلّ الشتاء. وفي الشتاء يتجمَّد الماء ويصبح

قاسيـــاً بسبب البرد، فيُسمَّى بالجليد. إلا أن البشر يتحمَّلون الشتاء بسهولة، لأن لديهم منازلَ دافئة وثياباً دافئة.

تيقَّظ الفزَّاعة فجأة، وراح يتمتم، وهو يضع إصبعه على جبينه:

- ثياب... منازل ...

كان الجميـــع ينظرون إلى الحاكم بِحَيرة، أمّا هو فأمرهم بالصمت، وقال:

- سوف أفكّر!

انتفخ رأس الفزَّاعة حتى بلغ حجماً عملاقاً، وبرزت منه الدُّبّابيس الصدئـــة والإبر، فقد كان واضحاً أنها تأثرت هي أيضاً بالضباب السام. واستغل الحطاب الفرصة السانحة فمسحها بالزيت.

استمرَّ الفزَّاعة يفكِّر وقتاً طويلاً، ولم يتجرَّأ أحد على قطع أفكاره. وإذا بالحاكم يعلن بمهابة:

- يجب علينا أن نستدعي إينِّي وتيم إلى هنا!- ثم مضى يسرد فكرته بالتفصيـــل: - لقد جاء الناس مـــن وراء الجبال إلى البلاد العجيبة بكثير مـــن الفوائد. فمن الـــذي بنى مدينة الزمـــرد؟ إنه غودفِن. صحيـــح أنه، كما تبيَّن، ليس ساحـــراً، إلا أننا جميعاً، أنا والحطابَ والأســـدَ، مدينون له بمناصبنا الرفيعة. وماذا نقول عن إيللي؟ فما أكـــثر ما قدَّمت لنا من الخير! إنها هي التي قضت على الساحرتين الشريرتـــين غنفيما وباستيدا، وهي وخالُهـــا العملاق القادمان من وراء الجبـــال مَن ساعدانا في إلحاق الهزيمـــة بجنود أورّفِن جوس الخشبيين. كما أن إيللي هي التي أخرجت سكان المناجم من المغارة وحررتهـــم من حكم الملوك الظالمين. آه، ومـــاذا يسعنا أن نقول عن إيللـــي، فنحن جميعا نعرف مآثرها. ومن الأفضـــل أن أذكِّركم بأن إينِّي وتيم هما اللذان حققا لنا السلام مع المحاربين المارّان الأشدّاء، وأطاحا إلى الأبد بحكم أورّفِن الماكر... - ثمَّ التقط الفزَّاعة أنفاسه

بعد كلمتـــه الطويلة هذه، وختم حديثه متعَباً: - ولهذا، فإنني أكرر وأؤكِّــد وأخلص إلى القـــول بأنه ما من أحدٍ سوف يأتي بالنجاة إلى البـــلاد العجيبة غيرُ إينِّـــي وتيم. إنهما ســـوف يعلِّماننا كيف نبني منازلَ دافئةً ونخيط ثياباً شتويـــة. وربَّما... ربَّما سيكونان قادرين حتّى على إلحاق الهزيمة بأراخْنا الشريرة!

طغت عاصفـــةٌ من صرخـــات الاستحسان على الكلمـــات الأخيرة التي قالها الفزَّاعة. فقد كانت ثقة أعضاء المجلس الكبير بقدرات الناس القادمـــين من وراء الجبال على قُوَّةٍ جعلتهـــم يعتقدون بأنهم قد تخطّوا جميـــع الأخطار. ولم يبـــقَ عليهم إلا أن يفكروا بطريقـــةٍ تمكِّنهم من نقل الخبر إلى تيم وإينّي، ومن إحضارهما إلى البلاد العجيبة.

كانت تلـــك مسألة جدية، فانغمس الجميع في التفكير. وبعد صمت دام وقتاً طويلاً تكلَّم روجيرو، فقال:

- أيها الأصدقاء، ليس لدينا سوى مَخرجٍ واحد من هذه المشكلة. يجب علينـــا أن نرسل التنين أويخّو في طلبِ الوَلَدَين. فهو مَن سبق له أنْ نقل إيللي وفريـــد إلى كَنساس، وهو يعرف الطريق، ونحن نستطيع أن نطمئنَّ اطمئناناً كاملاً إلى وفائه وذكائه.

كان من الصعب الاعتراض على اقتراح عملي إلى هذا الحد، فَصَوَّتَ الجميـــع لصالحه وانتقلوا إلى مناقشـــة التفاصيل. فهل كانَ من الأفضل لهم أن يرسلوا رسالة أم رسولاً؟

إن كتابة رسالة لا تتطلّب وقتاً طويلاً، غير أنك لا تستطيع أن تقول فيها كل ما ينبغي أن يقال، بل وأضِفْ إلى ذلك أن الحروف على الورق لا تملك قوة الإقناع التي يملكها الحديث المباشر وجهاً لوجه.

ألقـــى الفزَّاعة نظرة إلى كاغي كار، ففهم الغُرابُ معنى تلك النظرة وهزّ رأسه.

- فلتعلمْ، يــا صديقي، أنني كنت سأذهــب إلى هناك بسرور، ولكنك نسيتَ أنني أفقد القدرة على النطق بلغة البشر ما إن أتخطّى حدود البلاد العجيبة. فما هي الجدوى من رسول لا يتكلّم؟ لا بُدَّ لكم من إرسال كائن بشري.

تم ترشيح شخصين، هما فارامانت وليستار. فقد كانت إينّي تعرف كِلا المرشَّحــين، وكانا كلاهما بارعَــين في الحديث ويُحبّان الكلام. إلاّ أنَّ مدينــة الزمرد كانت أكــثر حاجة إلى الميكانيكي الــذي كان ينوي تزويد القصر بالتدفئة المركزية.

- فليذهبْ فارامانت. - قرّر الجميع .

لم يلجــأ حارس البوابة إلى رفض هذا القرار. فقد خُيّل له أن هذه الرحلة البعيــدة لا تخلو من المخاطر، خاصة وأنها رحلة جوّية على ظهر تنّــين. وفي الوقت نفسه كان مغرياً له أن يكون هو الوحيد الذي سيشاهد العالم الكبير، من بين عشرات الآلاف من سكان البلاد العجيبة.

لم يكن هنــاك حاجة لإضاعة الوقت، لأن كلَّ يوم يمضي كان يعجّل بقــدوم الشتاء، تلك الظاهرة الطبيعية الغريبة والمخيفة التي تهدّد البلاد العجيبة لأول مرة منذ قرون طويلة.

كان أويخّــو، كغــيره من التنانــين، يختبئ في المغارة مــن الضباب الأصفــر. وسيكــون استدعاؤه إلى مدينة الزمرد عــديمَ المعنى، لأن ذلك يتطلّــب إضاعةَ عدة أيام ثمينة. ثم إن فارامانت أيضاً سوف يُمضي وقتاً طويــلاً في قطع هذه المسافــة على رجليه القصيرتــين، إذا ما ذهب إلى البلاد الزرقاء سيراً على الأقدام.

وبسرعة صنع ليستار ومساعدوه حمّالةً خفيفة، وعيَّنوا مراسلَين خشبيَّين لحمّلها. فهما سريعــا الخُطا، لا يعرفان التعب، ويستطيعــان بفضل أرجلهما السريعة إيصال فارامانت إلى المغارة في غضون ما يقارب أربعين ساعة. وهناك

يقــوم سكان المناجم بتجهيز الرجل الصغير للرحلــة البعيدة، تلبية لأمر خطّيّ يرسلــه الحاكم روجيرو. وفي اللحظة الأخــيرة قرّر الغراب كاغي كار أنْ يرافقَ فارامانت، فلم يعارِضْ قرارَه أحد. وأياً كان الحال، فإن السفر معاً سيكون أكثر بهجةً، كمــا أن كاغي كار الخفيفَ الوزن لن تكون عبئاً على المراسلَين ولا على التنين الجبّار.

وهكذا مضــى المراسلان الخشبيان بخطا سريعــةٍ، مرِنة يحملان فارامانت الجالس بارتياح في الحمالة.

وكان يجــري في المقدمــة أمامهم مراســلٌ ثالث وهــو يصيح بلا انقطاع:

– افسحوا الطريق! افسحوا الطريق!

ففي تلك الأيام الصعبة لم يكن التنقّل على الطريق المرصوفة بالآجر الأصفــر بالأمر السهل. إذ كانت تكتظُّ بقطعان لا تحصى من الحيوانات التي تعتزم البحث عن مأوى لها في المغارة. ولم تكن تلك الحيوانات تعرف إذا ما كان البشر سيسمحون لها بالدخول إلى هناك أم لا، غير أنها سمعت أنه لا وجود للبرد أبداً هناك، تحت الأرض. وكانت تسير على هذه الطريق أرانــبُ ونُموسٌ(١٣)، وأرانبُ أليفة، فيما الغزلان تشمخ برؤوسها عالياً فوق الحشد بكبرياء، والثيران البرية والأيائل تمشي متثاقلة بصعوبة.

وكانت النمور، والقطط البرية، والضباع، والذئاب، والثعالب تتسلل علــى جانبَي الطريــق. إذ كان للحيوانات المفترســة حساباتها الخاصة. فقــد كانت تعــرف أنه لن يُسمَح لهــا بالدخول إلى المغــارة، ولهذا كانت تنــوي الدخول خلسة إلى بلاد الساحرة الطيبة فيلّلينا، حيث كان الصيف مستمــراً على سابق عهده. وكانت الطيور هي مــن أذاع هذا الخبر. أما الطيور ذاتها فكانت قد وجدت لنفسها مأوى من البرد في أراضي ستيلّلا وفيلّلينا وأراخْنا منذ زمن بعيد.

---

(١٣) المفرد نِمْس، وهو حيوان لاحم، صغير، طويل الجسم، قصير القوائم. يستفاد من فروه – المترجمة.

كانـــت الساحرة الشريـــرة تستشيط غضباً وهي تـــرى كيف يزداد الازدحام يوماً بعد يوم في غاباتها وحقولها بأعداد من الحيوانات والطيور الفـــارّة من المناطق التي سيطر عليها الضبـــاب. لكنها لم تكن قادرة على اتخـــاذ أي إجراء تجاه هؤلاء الضيـــوف الذين لم يَدّعُهم أحد. فقد أصبح تعدادهم كبيراً جداً.

ثـــم إن مقاومـــة الناس كانت تثـــير غضب أراخْنا كثـــيراً. لأن هذه المقاومـــة استمرت مدة طويلة جداً، في حين كانت الساحرة تنتظر نصراً سريعـــاً. كان الضباب الأصفر يفعل فعله القاتل. فكان يفتك برئات البشر والحيوانات، ويجعل العيون تدمع، ويُضعِف البصر... غير أن هؤلاء البشر الماكرين وجدوا أساليـــب ماكرة لمكافحة هذه المصيبة. فكانوا يستنشقون الهـــواء المسموم من خلال أوراق شجر الرافالو، ولم تعد القطرات السامة قـــادرة على التسلل إلى صدورهم. كما أنهم حَمَوْا عيونهم بالنظارات ذات الإطـــارات المحكمة الانطباق التي تجعل الضبـــاب يتكثّف على الزجاج. وعمـــدوا إلى تنقية الهواء في مساكنهم على طريقة أورْفِن جوس، ذلك الـ جوســ ذاته، الذي رفض أن يعمل لحسابها، وهي أراخْنا العظيمة. وبدلاً من ذلك أفسد عليها تحقيق مآربها.

كان النـــاس يتنقلون على الطرقات بسرعتهـــم المعتادة تقريباً، على الرغـــم من غشاوة الضباب التي كانت تكلّلهـــم. فقد نصبوا أعمدة يبعد الواحـــد منها عن الآخر مسافـــة عشرين أو ثلاثين خطوة، وثبّتوا على كل عمود منها لوحاً كُتب عليه إلى أين يؤدّي كل طريق.

أجلْ، لقد تبيَّن أن إخضاع البشر ليس بالأمر السهل.

❖ ❖ ❖

في مزرعة جون سميث

قطع الجــوادان الميكانيكيَّان، سيزار وهانيبــال، المفعمان بالحيوية والقــوة ذلك الطريــق الطويل الممتد من القصــر البنفسجي إلى المزرعة في كَنساســ وهمــا يسرعان في حمل إينّــي وتيم إلى أحضــان والديهما المسرورين[١٤]. وفي الحال تمَّ استدعاء إيللي من المعهد، واستمر الرّحالتان الشجاعــان يرويان قصص مغامراتها عدة أيام. وقــد أعربت إيللي عن أشــد ندمها على كونها أقنعت القضاة بأن يرأفوا بأورْفِن جوس، فيكتفوا بنفيه بدلاً من معاقبته عقاباً قاسياً على ما اقترفت يداه من جرائم.

- لو كنت أعلــم أنه سيتمكن من خداع النطاطــين... وأنه سيستولي ثانيــة على مدينة الزمــرد... لو كنت أعلــم ...- كانت تردد إيللي بحزن.
- لكــن كل شيء قد انتهى علــى ما يرام،- تقول لهــا إينّي مواسية. - وهو لــن يعود ويستولي على السلطة من جديــد أبداً! لقد حطَّم تيــم كل أحلامه بواسطة لعبة الكرة الطائرة، بل ودون إسالة قطرة دم واحدة.

كان المستمعــون يتبسَّمون رغماً عنهم وهم يتخيَّلون المشهد العجيب الــذي تحوّل فيه المــاران المتعطّشون لنزال المــوت إلى لاعبين متحمسين فجأة، وراحوا يضربون الكرة عوضاً عن أن يوجّهوا ضرباتهم للعدو.

ثم ذهب تيم وإينِّي إلى المدرسة، ولم يعد يشغلهما شيء إلا دروس النحو، والحســاب، والخط، وتاريخ الوطن الأم وجغرافيته... كانا يقضيان وقت

---

(١٤) انظر ترجمتنا «إله المارّان الناري»، الجزء الثالث من حكاية «ساحر مدينة الزمرُّد».- دمشق، الهيئة العامة السورية للكتاب، وزارة الثقافة، ٢٠١٠. - المترجمة.

الصبـــاح في الصفّ، وفي المساء كان عليهما تحضير واجباتهما المدرسية. وهكذا بدأت ذكرياتهما عن المغامرات المثيرة تتلاشى شيئاً فشيئاً.

وفي نهايـــة العام الدراسي وقعـــت حادثة أدخلت فرحاً عظيماً على قلوب كل سكان المزرعة، إذ جاء القبطان تشارلي بليك لزيارة أقاربه. وكان البحار الوحيدُ الرِّجْل قد جاء لزيارة آل سميت قبل بضع سنوات مضت، عندمـــا كانت إينّي لا تزال صغيرة جداً. إلا أنهـــا ما لبثت أن تعرفت إلى الخال حـــالاً، لأن تشارلي لم يتغير إلا قليلاً. كان جسمه ما يزال مشدوداً، بـــارز العضلات، وقد لوَّحت الشمس وجهـــه بعض الشيء، وانضافت إلى جبينه تجعيدتان أو ثلاث، وازداد شعره شيباً، وظلَّ على جَرْي عادته يضع بين أسنانه غليونـــه المشتعل. وكالعادة كانت عصاه الخشبية تدق الطريق مخلِّفة دوائر في الغبار.

كان تسارلي بليك قد عاد لتوّه من رحلة بحرية جديدة إلى جزر كورو كوســـو، حيث كان يمارس تجارة المقايضـــة مع أصدقائه آكِلِي لحوم البشر. وقـــد جاء البحّار معه بكثير من الهدايا لأقاربه، بينها أصدافٌ كبيرة تسمَع فيها أصـــداءَ هدير بحريٍّ بعيد إذا ما قرَّبْتَها مـــن أُذُنك، وتماثيلُ خشبيةٌ صغيرة لآلهة بوجوهٍ ملوّنة تلويناً عجيباً، وبَبّغاواتٌ محنَّطة زاهية الريش... ولم ينسَ تشارلي الأولاد في المَـــزارع المجاورة. إذ حصل تيـــم أوكيلّي على قوس مشدود ونبال، فصار يطيل الغياب في البرِيَّة وهو يطارد السوالق[١٥]. وطيورَ الحَجَل.

طبعـــاً، ما إن وطِئـــتُ قدّما تشارلي بليك أرضـــ مزرعة آل سميث المضيافة حتى عرَف قصّة رحلة إينّي وتيم إلى البلاد العجيبة.

– أُقسِـــم بكل أعاصير بحار الجنوب، – صاح تشارلي بليك وهو ينفث الدخـــان من غليونه بغضب، – إننـــي أرى أن حظ الأخت الصغرى في المغامـــرات لا يقل عن حظ أختها الكـــبرى! ولكن مهلاً، ولْتُلْقوا

(١٥) سَوالِق: جمع سَولَق، وهو حيوان صغير من القوارض. – المترجمة.

المراســي! دعوا البنــت تحكي لنــا بنفسها عن مغامراتهــا وبأدقّ التفاصيل، وليصحِّح كلامَها تيم إذا ما أخطأت في أمرٍ ما، وليجلِسْ أرتوشــكا إلى جوارها، ولينظرْ في عينَيَّ ملوِّحــاً بذيله تأكيداً على صدق ما تقول!

تحقَّقَتْ رغبة تشــارلي بليك، فأمضى عدة سهرات جالساً بصحبة الطفلــين على صخرة كبيرة في البرِّية يستمع إلى قصتهما الطويلة عن إله الماران الناري. وكان يعبِّر عــن إعجابَه تارةً، وعن غضبه تارة أخرى وهو يُرصِّع كلامه باللعنات التي يطلقها البحّارة في أثناء الحديث.

- وأين هـي حلقة ملك الثعالــب الفضيّة لديكِ؟ - سأل تشارلي بليك ابنةَ أخته بعد أن أنهتْ قصتّها. - هل جئتِ بها معك؟

- لمــاذا أجيء بها؟ - تعجّبت الطفلة. - ففــي كَنساس تفقد الحلقة قدرتهــا العجيبة، ولهذا السبب تركتُهــا في القصر البنفسجي عند الحطاب الحديدي.

- وا أسفاه، وا أسفاه، - قال البحَّار متجهِّماً. - فإن للفضّة والياقوت ثمناً أينما كان.

- ولكنَّ المال، يا خالي، ليس هــو كلَّ شيء في الحياة!- عارضته إينِّي بشجاعة. - صحيح أننا كنَّا سنقبض هنا ثمنه حَفْنةً من الدولارات، غير أنه قد ينفع هناك أحداً من أصدقائي في قضية هامة...

- أعتقــد أنكِ على حــق، أيَّتُها الطفلــة، فَلْيبتلعْني الحوت!- وافقها البّحار العجوز...

وقد أثار البغلان الآليَّان إعجاباً شديداً لدى تشارلي الذي تفحصهّما منذ أوَّل يوم وصل فيه. كان يُمَسِّد بيده جلدَهما الحريريَّ الملمس، فيشعر بعضلاتهمــا القوية تحتــه، ويداعب شعر الرقبة الكثيــف على البغلين، ويكلِّمهما بلطف، فيردّان عليه بصهيل رنّان.

لقد أدّى سيزار وهانبيال دوراً هاماً في أشغال جون سميث. إذ باتت الفرس المتواضعة «ميري» تتمتع بالراحة الآن، بينما وقع القيام بالأعمال الزراعيــة كلّها على عاتق البغلين. فقد كانا يجرّان المحراث معاً ويحرثان الحقل، ثم يجرّان المشّاطة [١٦] الثقيلة، ويمضيان يعملان على هذا المنوال إلى أن يحين موعد جمْع المحصول.

كان البغلان ينجزان الأعمــال جميعَها بقدْرٍ من السهولة والسرعة جعــل جون سميث ينعم بكثير من وقت الفــراغ، فراح يعمل بالأجرة عند جيرانــه في حراثة الأرض وحصاد القمح، وهذا مــا كان يجلب له دَخلاً مُجْزيــاً. وهكذا كان الفــرح يغمر المزارع جون سميــث بفضل مساعدَيه المطيعَــين اللذين لا يَكِلاّن، ولم يكن يمضي بهما إلى الحظيرة إلا في الأيام التــي لا تطلع فيها الشمس. ومــا أكثر ما أملى على إينّي من رسائلِ شكرٍ كان يرسلهــا إلى فريد كانّينغ الذي أصبــح الآن مهندساً يعمل في مصنعٍ ميكانيكي يملكه الإخوة «أوسّبالديستون» في ولاية مينيّسوتا!

بالطبــع، لقد تجوَّل تشارلي بليك مُمتطيــاً ظهر البغل الآلي، وفعل ذلك غــير مرَّة. إذ كان هذا القبطان، وهو خيّــال ممتاز كسائر البحارة، يسرج هانيبال ويجوب على متنه الطريق البرية المستوية، فيما تزعق إينّي فرِحة، وهي بجواره تتشبَّث بشعر رقبة البغل الآخر سيزار.

– أسرعْ، زِدِ السرعة!– كانت الطفلة تصيح، وهي تدير منظِّم السرعة إلى أقصى مداه.

كانــت زيارة تشــارلي بليك تُشْرِف على نهايتهــا عندما وقع حادثٌ جعــل كل مخططاته تنهار، وورّط هذا البّحار الوحيدَ الرِّجْلِ في مغامرات جديدة مُدهشة.

❖ ❖ ❖

(١٦) المشّاطة (أو المسْلَفة)، من الأدوات التي يستعملها الفلاح، وهي لوحٌ عريض ثقيل، وقد يكون مسَنَّناً، تجرُّه الحيوانات لتسوية الكتل الترابية وتفتيتها بعد حراثة الأرض. – المترجمة.



رسول من البلاد العجيبة

تأخَّـــر تشارلي بليك وإينّي وتيــم في السهب الفسيح ذاتَ يوم ماطر حتى آخر النهار وحلول المساء. كان تيم لا يكّف عن التوسُّل إلى البحّار كي يصطحبه معه في رحلة بحرية.

– فليســ مهماً، أيهــا القبطان، أنني لا أبلغ مــن العمر إلا أحدَ عشر عامــاً،– كان الولــد يقــول. – انظر إليّ كم أنا كبــير وقوي. دعني أصــارع من هو في الخامسة عشــرة، ولتنظرْ لمن منّا سيكون الفوز. إنني أصلُح لأن أكون مساعد بحّار من الدرجة الأولى، أو. و. هو. هو! كان تشارلي بليك يتملّص بالمزاح وهو يدخّن غليونه.

– ألا يعــزُّ عليــك أن تفارق صديقتــك، يا تيم؟ ما أكــثر ما ستشتاق إليك!

قطَّــب تيم حاجبيــه، وردَّد كلمات سبــق له أن سمعهــا من أفواه الكبار.

– علــى الرجال أن يبحثوا عن السعادة في بلاد الغربة، أمّا قَدَرُ المرأة فهو أن تبقى في البيت.

ضحك القبطان حتى دمعت عيناه.

– يا له من قول ظريف، أُقسِم بجبال الجليد! ولكن فليكن في علمك، يــا رجل، أنني سأعود مرَّة أخرى إلى هــذه البلاد بعد ثلاثة أعوام أو أربعــة، وستكون في ذلك الحين قد كبرت، يومَها سآخذك لتكون بحّاراً فوراً.

لم يكن ليُرضي تيم وعدٌ كهذا، وكان الولد على وشْك أن يتابع الجدال لو لم ينتبه البحّار الثاقبُ النظر في تلك اللحظة إلى نقطة قاتمة في سماء

المســاء. لقد كبرت تلك النقطــة بسرعة وهي تقترب إلى أن راحت تتحوَّل إلى صــورة جسم غريب المعــالم. كان في وِسْع المــرء أن يتبيَّن على خلفية الغــروب رأساً دميماً له عــرفٌ على رقبته الطويلــة، وعلى جانبي ذلك الجسم يرفرف جناحان عملاقان، فيما يتراءى على ظهره قفص صغير.

- تنّين، أقسم بأعماق البحــر، إنه تنين!- صاح تشارلي. - إنه نسخة طِبْق الأصل عن التنــين الذي رأيته أنا وإيللي في المغارة عندما كنّا نسير في الممر تحت الأرض.
- ولا يمكن أن يكون هذا إلا أويخّو! - زعقت إينِّي مبتهجة.
- بالطبع، إنه أويخّو!- أيدّها تيم. - فما من أحد سواه يعرف الطريق إلى كَنساس!

كان بطن التنــين يلمع بلونه الأصفر الضارب إلى بياض وهو يحوم راسماً دوائرَ واسعة فوق الطفلين والبحّارِ الذي هبَّ قافزاً من مكانه. وإذا برأســ شخص يعتمر قبعة حادة الزوايا يلتصــق بقضبان القُمّرة ويتأمل وجوه الناس.

- فارامانــت! إنه فارامانت، يا إينِّــي!- صرخ تيم بابتهاج، وراح يلوّح بيديه داعياً التنين إلى الهبوط على الأرض .

أحدث هذا الغول الطائر جَلَبَةً حين هبط على الأرض، وانفتح باب القُمــرة فتدلّى منه سُلَّمٌ من الحبال شرع ينــزل عليه رجلٌ صغير الحجم يرتــدي قفطاناً أخضر، ويضع على عينيــه نظّارة خضراء. ولكن قبل أن يجتــاز الرجل درجتين مــن السُلَّم هبَّ طائراً من المقصــورة طائرٌ أسودُ اللون، وانطلق مسروراً باتجاه صدر إينِّي.

- كاغّي- كارّ! - صاحت إينِّي.

ضّمــت الطفلة الغــراب إلى صدرها وأخذت تمسِّــد بحنانٍ ريشَه الأسود المنفوش.

- عزيزي، كاغّي- كارّ، عزيزي، أيُّها الغالي، كم أنا سعيدة برؤيتك!
كان الغراب ينعق بحنانٍ وصوتٍ منخفض.
أخيراً، هبــط الرجل الصغير ذو النظارات الخضراء درجات السلَّم وحَيّا بلطف كلاً من تشارلي بليك والطفلين.
- إننـــي سعيد جداً برؤيتك، أيها العمـــلاق القادم من وراء الجبال.- قـــال الرجل، - كما أنني سعيد برؤية إينِّي وتيم. لقد جئت إلى هنا على ظهر التنين أويخّو حاملاً معي رسالة فائقة الأهمية...
ومــا إن سمــع التنين اسمه حتـــى أدار نحو إينِّي رأســـه الدميم ذا العينـــين الكبيرتين الذكيتين، فدنت الطفلة منه وداعبت عنقه المحرشفة. وتعبيراً عن فرحته ضرب أويخّو الأرض بذيله الطويل المتلوّي.
روى فارامانـــت باختصـــار وتكثيفٍ ما وقـــع في البلاد العجيبة من أحداث خلال الأشهر المنصرمة، فذكَر استيقاظَ الساحرة الشريرة أراخْنا من نومها الذي استغرق خمســـة آلاف سنة، وعَقْدَها العزمَ على استعباد ســـكان البلاد، والرفْضَ الأبيَّ الذي أبدته الشعوب المحبَّة للحرية، وأخيراً التأثيرَ القاتل الناجم عن الضباب الأصفر الذي أرسلته الساحرة.
- والآن فنحـــن نعلِّق كل آمالنا علـــى إينِّي وتيم. - هكذا أنهى حارس البوابة قصته الحزينة. - لقد سبق لهما أن ساعدانا في قتال أورْفِن جوس والماران الأشدّاء. وإننا لنعتقدُ اليوم بأنهما سيقومان بتعليمنا كيف نواجه الشتاء الزاحف نحو حقولنا وغاباتنا...
وبعد أن استمع القبطان إلى فارامانت هزّ رأسه وقال:
- إنكـــم، يا صديقي، ترتكبون خطأً فادحـــاً إذا ما كنتم تظنون بأنكم ســـوف تتغلَّبون على الشتاء ببناء المساكـــن الدافئة والتدّثر بالثياب الدافئة. فالشتاء عندنا يأتي ويغيب، ثم يجيء بعده الربيع والصيف، أمّا عندكم، فإن الشتاء، بحسب ما فهمت من كلامك، سوف يستمر أبـــداً، إذا لم يختفِ الضباب الأصفـــر. غير أنه لن يختفي ما دامت

أراخْنـــا الخبيثة على قيـــد الحياة. إذاً، فالمسألة هـــي كالتالي: إمّا النصرُ على المشعــوِذة، وإمّا هلاك البلاد العجيبـــة. ولكنْ فلتنبتْ لعصـــاي الخشبيـــة جذورٌ تضرب في الأرضــ إذا لم أُتدخَّل في هذه القضية ولم أبذل جهدي في سبيل إنقاذ بلادكم الرائعة التي لا مثيل لها!

- هـــورا - ا - ا!- هتف الطفلان بصوتٍ رنّـــان، وألقيا بنفسيهما في أحضان البحّار الشجاع.
- حقـــاً، وما الذي يمكن أن يمنع جـــوّابَ آفاق مثلي من فعل ذلك؟ - تابع القبطان كلامه. - إنني سأكتب إلى مساعدي رسالة أطلب إليه فيهـــا بأن تبحر السفينة إلى جزيـــرة كورو- كوسو من دوني، أمّا أنا فســـوف أنطلق في رحلة جديدة على متن التنين! إذ لا بدّ لي من أن أجرِّب هذا النوع من المواصلات أيضاً!

وبينمـــا كان فارامانت يكفكف دموع الفرح التـــي راحت تسيل من تحت نظارته الخضراء، كان الغراب يتقلَّب في الجوّ بسرور.

- تُـــرى، هل فهمتُك فهماً صحيحاً، أيهـــا العملاق المحترم القادم من وراء الجبـــال؟ - سأله حارس البوابة بارتباك. - هل اتّخذتَ قراراً بأن تطير إلينا وتدخلَ في حرب مع أراخْنا الشريرة؟
- نعم، - أجاب البحّار باقتضاب.
- في هذه الحالة تكون مهمتي قد تكللّت بنجاح لم يكن يخطر لنا على بال حتى في الأحـــلام، - أعلن فارامانت ووجهه يشعّ فرحاً. - من كان يتصّور مجرّد تصوُّرٍ أن العملاق من وراء الجبال سيتولّى بنفسه محاربة المشعوِذة من أجلِ سلامتنا! أوه، إنني واثق سلفاً بالنجاح!
- ألا تذهب بعيداً في المبالغة بتقدير قوّتي؟ - سأله تشارلي بليك وهو يبتسم ويُخرج من فمه غليونه المنطفئ لكي يشعله من جديد.

- أوه، كلا، كلا، يـــا صديقنـــا وشفيعنا العظيم! - أكــدّ له فارامانت بحرارة.
- وهــل ستأخذنا نحن معك، أيها الخال تشــارلي؟ - استفسرت إينِّي بحذر.
- أنتمــا؟ - وابتســم البحّار بمَكر. - مــا زال علــيّ أن أفكر جيداً بشأنكما.
- وما الحاجة إلى التفكير هنا؟ - قالت الطفلة بامتعاض. - فلقد جاء أويخّو في طلبنـــا نحن، وليس في طلبك أنت! وهو لم يجدْك أنت في مزرعتنا إلا بمحض المصادفة.
- حسنٌ، حسنٌ. - اعترض تشارلي. - يجب أن نناقش كل هذه الأمور مــع والديكما. أمّا الآن فلتفكِّرا أيــن نذهب بالتنين في هذا الوقت الذي سيقضيه هنا.

قال فارامانت إن أويخّو حَسَب مدّة طيرانه جيداً ليكون وصوله إلى هــذه البلاد في وقت متأخر مــن المساء، كي لا يثير قلق السكان المحليين. فقد سبق له أحدث ما يكفي من الهرج والمرج في المرة الماضية، عندما جاء حاملاً معه إينِّي وتيم. يومها وقع خطأٌ؛ إذ تراكض الناس إلى المرْج الذي هبط عليه التنين فاجتمع هناك قرابة نصف سكان الولاية.

ولحســن الحظ، كان تيم يعرف بوجود وادٍ في مكان قريب، لا تطؤه قــدم. وقد خبّؤوا التنين هناك بعــد أن أوصوه بأن يبقى مستلقياً بهدوء، ووعدوه بإحضار الطعام له كل ليلة.

ظلت الأضواء مشتعلة في مزرعتَيْ سميث وأوكللي طول الليل، وطول الليــل لم تغمض عين للكبار ولا للأطفال. فقد كان هناك اجتماعٌ ناقشوا فيه إذا ما كان يجوز السماح لإينّي وتيم بالذهاب ثانية إلى البلاد العجيبة أم لا. أمّا رغبة تشارلي بليك بالذهاب لمحاربة أراخْنا فلم تطرح للنقاش،

لأن تشــارلي كان رجلاً بالغاً ومســؤولاً عن نفسه، ولأن الحياة قد صقلته من خلال المغامرات الخطيرة التي مرَّ بها.

وعنــد دنوِّ الصباح توصَّل آل سميــث وآل أوكللي إلى قرار جماعي مفادُه أنه ما دام قد سبق للطفلين أن سافرا وحدهما إلى البلاد العجيبة علــى متن بغلين آليين وعادا بسلام، فليس هناك ما يحول دون إرسالهما تحــت إشراف القبطان بليك، بل وبواسطة نقــلٍ آمنة هي التنين الأليف. كمــا أخذ آل سميــث وآل أوكللي بعين الاعتبــار أن القضية ليست نزهة ترفيهية، بل هي تتعلّق بإنقاذ بلاد كاملة من الهلاك.

ولكنهــم بالإضافة إلى ذلك تشدّدوا في تحذير إينّي، وعلى الأخصّ تيــم الذي اشْتَهَرَ في المنطقة بطبعــه المشاكس، من أن يُورِّطا نفسيهما في قتــال مع المشعوذة، وأن يبتعدا ما أمكن عــن شتّى أشكال الأخطار. وقد وافق الطفلان على ذلك بسهولة تثير الشكوك.

وعندمــا أضاءت أشعة الفجر الأولى قبــة السماء، كان الجميع في المزرعتين يغطّون في نوم عميق منهَكين بعد ليلة من الأرق.

تطلَّبــت عملية الاستعــداد للسفر ثلاثة أيام. وعلــى الرغم من أن حقيبة البحّــار الوحيد الرِّجْلِ وجيوبَه كانت لا تــزال على سابق عهدها تبــدو مثل مخزن أدوات لا ينضب، فإن ذلــك لم يكن كافياً لتحقيق هدفٍ جــدّي كالهدف الذي وضعه تشارلي بليك نُصْــبَ عينيه. لذك سافر إلى بلــدة مجاورة، واشترى فيها كومة من صفائــح الحديد السميك، ومِقصّاً لتقطيــع المعادن. وفي مصنع الآلات الميكانيكية طلب القبطان أن يُجهّزوا له بضع عشرات من النوابض المصنوعة من أفضل أنواع الفولاذ، من أكبر النوابضــ وأقواها إلى أصغرها وأضعفها. وقد تضمَّن هذ الطلب تشكيلة هائلة من البراغي والعزقات والمفكّات والرنشات المتنوّعة إلى أقصى حد. ودفع تشارلي بليك لقاء ذلك ثمناً يفوق المعتاد، فلبّى المصنع طلبه متخطّياً نظام الدور.

ورَدّاً علــى كل التساؤلات عن سبب تكديسه هذه الكميةَ الكبيرةَ من المعدن كان القبطان يكتفي بابتسامة غامضة.

ظــل التنين أويخّو قابعاً في مخبئه بهدوء. وكانت إيللي تأتي لزيارته خفيــة، بعد أن أخبرها القبطان بقــدوم رُسُلٍ من البلاد العجيبة. غير أن أكثر ما كان يبعث على الفرح هو لقاء إيللي مع كاغي كار وفارامانت. ولَمَّا كان كاغي كار لا يستطيع أن يعبِّر عن مشاعره بالكلمات، فقد راح يداعب الفتاة بحنان جعل كل شيء واضحاً من غير كلام. أما فارامانت فقد أبلغ إيللي التحيات الحارة مــن الفزَّاعة والحطاب الحديدي والأسد الشجاع وباقي أصدقائها. وقد حدّثها عن الأحداث الرهيبة التي عصفت بالبلاد، وفي الختام أبلغ إيللي دعوة الفزَّاعة لها كي تعمل مدرِّسةً في مدينة الزمرد بعد أن تتخرّج في المعهد.

ووعد الفزَّاعة بأن يشيّد لإيللي مدرسة لم يكن العالم قد شاهد لها مثيــلاً من قبلُ قَطّ. كان مخطّط تلــك المدرسة جاهزاً في رأس الحاكم، وكان كسّــارو السنديــان قد شرعوا بإعداد موادّ البنــاء، إلا أن مصيبة وقعت في هــذا الوقت بالضبط. غير أنهم سيتغلّبون على هذه المصيبة، وينجــزون بناء المدرسة. وابتسمت إيللي ووعدت بأن تفكر بهذا العرض المغري.

وعند الوداع قدَّم فارامانت لإيللي نظارته الخضراء هديَّة، ذكرى من البلاد العجيبــة. وكان ذلك تضحية كبيرة من طرفه، لأن حارس البوابة، تقيُّــداً بأمر غودفِن العظيم، ظلَّ سنواتٍ طويلــة لا ينزع نظّارته، فاعتاد عليها حتّى صارت تبدو له جزءاً من وجهه.

في الليــالي كان تيم وإينّي يأتيان التنــينَ بعربة مليئة بشتّى أصناف الطعام: قِدْرٍ من العصيدة، وخمسةِ دلاء من الشوَندر المسلوق، وكيسَيْنِ من الخبز، ومن غيرِ ذلك كثيرٍ من سَقَطِ المتاع.

وبينمـــا كان المصنع يقوم بإعداد طلبية تشـــارلي بليك، لم يكن هذا البحّـــار يجلس مكتوف اليدين. فبدلاً مـــن القفص الصغير الذي أتى في داخله فارامانت وكاغـــي كار، قام هذا الحِرِفيُّ الماهر بصنع قمرة واسعة تتســـع بسهولة لأربعة أشخاص و لأمتعتِهِمْ. أما اصطحاب البغلين الآليين فـــكان مسألة غير قابلـــة للنقاش. وذلـــك، أوّلاً، لأنَّ نقلهما كان سيتطلب قمرة كبيرة جداً، وثانياً، وهذا هو الأهم، لأن البغلين لن يتمكّنا من التزوّد بالطاقة الشمسية في الضباب الأصفر، وهذا يعني أنهما لن يكونا نافعين.

وهـــا هو ذا أوان الفـــراق قد حان. واجتمع ســـكان المزرعتين عند الوادي النائي في ساعة متأخِّرة من الليل. وعلى مرجٍ منبسط بالقرب من الـــوادي كان يلوح سواد جسم التنـــين العملاق. وابتلع أويخّو قبل الطيران حصّـــة مضاعفة من الطعام كي لا يشعـــر بالجوع في أثناء الرحلة. وعلى جسم التنين المجنَّح تم تثبيت القمرة بواسطة أحزمة متينة، بينما وضعت رزمُ الصفائح الحديدية والنوابض والأدوات على الجزء الأقرب إلى ذيله. كان يتعـــيّن على التنين أن يحمل حمـــلاً ثقيلاً، غير أن ذلك لم يكن ذا بالٍ بالنسبة إلى قوتِهِ الهائلة.

وجاء وقت القبلات الحارّة الأخيرة، والعناقات، والتمنِّيات الطيبة، والوصايـــا الحازمة... وقبل تسلُّقِ السلَّم المصنوع من الحبال سأل البحار ابنة أخته إينّي:

- هل نسيتِ أن تأخذي تيللي فيللي؟
- كلاّ، يا خالي، إنه مستلقٍ في حقيبتي.

كان تيللـــي فيللي هو تمثال الإله الوثني الـــذي قدّمه البحّار هديَّة لإينِّـــي. وكان الأكثرَ دمامة بين جميع تماثيل الآلهة التي أحضرها البحّار من جزيـــرة كوروكوسو. أمّا الهدف السري الـــذي أراده تشارلي بليك من اصطحابه معه فسوف نذكره فيما بعد.

كان تيــم أوكلّلي هو آخر من صعــد إلى القمرة. وكان يحمل تحت إبطه الجــرو آرتوشكا الذي أصبح أيضاً من أعضاء الرحلة الغريبة التي أُعِدَّت من أجل إنقاذ البلاد العجيبة من مكائد أراخْنا الشريرة.

لوّح أويخّو بجناحيه القوِيّتَيْن، فانطلقت زوبعة من الغبار والأعشاب الجافــة تدور حــول المودِّعِين، وما لبث التنــين أنِ اختفى في سماء الليل القاتمة.

❖ ❖ ❖

الطيران على متن التنِّين

نامت مجموعة المسافرين مطمئنّةً عدّةَ ساعات على مقاعدَ مريحة تهتــزُّ بها القمرةُ بانتظام رتيب. وعندما استيقظ تشارلي بليك والآخرون كانت عشرات من الأميالً قد طويت خلفهم. فتناول القبطان ورفاقه طعام الإفطار، وراحوا يتفرّجون من نوافذ القمرة. غير أن ما كان يمكن تمييزُه قليلٌ من ذلك الارتفاع الكبير الذي كان يُحلّق عليه أويخّو، فشعر الطفلان بالملل.

شرع البحّار يروي قصة طويلة عن مغامراته التي عاشها في أفريقيا الجنوبية عندما كان شابّاً.

استمرَّ التنين يحمل الناس علــى جناحيه القويين، وإذا بالصحراء الكبرى تظهــر أمامهم. وقد كانت هذه الصحراء حاجــزاً طبيعياً رهيباً يتعــذّر على المشاة والخيّالة اجتيازُه، ويفصــل بين البلاد العجيبة وباقي العــالم. إلا أن أويخّــو راح يخفــق بجناحيه الجلديــين العملاقين خفيفاً مسرعاً، فلم تكن تخيفه الرمال ولا صخور غينغيما السوداء.

الصخور الســوداء! ما أكثرَ الذكرياتِ التــي ترتبط بها عند ركّاب القمــرة! كان تشارلي بليك يتذكّر، وهو ينظر من النافذة، كيف كاد يموت عطشاً هو وإيللي وتوتوشكا عند الصخرة السوداء، وكيف أنقذهم الغراب كاغــي كار حين جاء وهو يحمل لهم عنقــوداً بديعاً من العنب. ولا بدَّ أن الغــراب كان يفكر بالأمر ذاته، لأنه راح ينظــر إلى البحّار نظراتٍ معبّرةً وكأنه يريد أن يقول:

- إنّني أتذكَّرها، أتذكَّر كلّ شيء، ولا أتفاخر بذلك ولو قليلاً!

مسّــد تشــارلي بليك ريشــ كاغي كار بحنــان، فالتصــق الغراب بصدره.

أما تيم وإينّي، فما إن لمحا النقطتين السوداوين على الرمل الأصفر حتّى راحا يتحدثان كيف كادت الطفلة في العام الماضي أن تموت في هذا المكان، ولولا قوّة هانيبال وجَلَدُه لبقيت إينّي هنا إلى الأبد.

وهـا هي ذي تظهر تحت جناح التنين جبالُ حول العالم التي صنعها الساحـر العظيم غورّيـكاب منذ قديم الزمـان. كان يمتدُّ تحتهم خليطٌ عشوائي من السلاسل الجبلية والوديان العميقة يُخفي أسراراً لم يكتشفها أحدٌ بعدُ، فيمـا كان تيم وإينّي يفكران متعجبين كم كان بغلاهما الآليان يتميـزان بالخفة والرشاقة حتى تمكّنـا من اجتياز هذه الحواجز. وقطع الطفـلان على نفسيهما عهداً، وهما يضحكان، بألا يعودا بعدُ إلى اجتياز جبـال حول العالم إلاّ على مـتن التنانين، أو في أقصى الأحوال على ظهر نسور عملاقة كالنسر الذي التقيا به في أثناء رحلتهما الماضية.

كانت القمم الثلجيـة والسطوح الجليدية تنداح سابحة تحتهم دون أن تـؤذيَ البصر. فقد كانت تحجـب بياضَها وبريقَها طبقةٌ من الضباب الأصفر تمتد فوق الجبال. والحقيقة هي أن الضباب الأصفر لم يكن يعيق الرؤية في هذه الأماكن.

ولكنَّ الأمر اختلف تمامـاً عندما وجد أبطالنا أنفسهم فوق البلاد العجيبة. صحيح أن الضباب نفسَه لم يكن كثيفاً جداً، إلاّ أنه كان يستحيل على المرء أن يرى الأرض وهو على ذلك الارتفاع الذي كان يطلُّ منه أويخّو. وكان التنين الجبّـار يرفرف بجناحيه بقـوّة، إلا أن الظلام الأصفر كان يحيط بالتنين من كل الجهات، حتّى خُيِّلَ وكأنه لن يتحرّك من مكانه أبداً.

بدأ كاغي كار وأرتوشكا بالحديث منذ أن كان أويخّو ما يزال يحلِّق طائـراً فوق الجبال. وقد استفاد رحّالتُنا أيّمـا فائدة من مقدرة الغراب على الكلام. ذلك أنه سبق لكاغي كار أن جاب أرجاء البلاد العجيبة كلِّها بالطول والعرضـ، وكان يعرفها معرفةً ممتازة. وقفز الغراب من القمرة وحطَّ على رأس أويخّو ومضى يلقي إليه بالأوامر.

وكان أوَّلَ ما فَعَلَ كاغي كار أنِ اقترح على التنين أن ينخفض ويطير فوق الأرض طيراناً متعرّجاً. وهكــذا بدت الأشياء على الأرض واضحة، وبات في الإمكان تحديدُ اتجاه الطريق بشكلٍ صحيح.

- إلى اليمين! إلى الأمام ! إلى اليسار!.. - راح الغراب يوجّه الحركة، وأويخّو ينفّذ أوامره طائعاً.

كان الــركّاب ينظرون نحو الأسفــل. وإذا بإينّي تلوِّح بيديها حزينة وتنخرط بالبكاء. ما الذي أصاب البلاد العجيبة؟! أين هي المروج الزاهية التي تغطيها الأعشاب الطويلة والأزهار الرائعة؟ أين على أشجار الغابات الخضــراء تلك الأوراق الكثيفة التي كانت تختبــئ فيها الثمار الناضجة المليئــة بالعصـــارة، وتتقافز من غصن إلى غصن طيــورُ الببغاء المختلفة الألــوان وهي تتجاوب بأصوات رنانـــة. كان كل شيء في الأسفل متشابهاً وميتاً.

كان الثلــج يغطّي المروج المترامية الأطــراف، وأكوامٌ من نُدَفِ الثلج تتوضَّع على أغصـــان الأشجار العارية، فيما يطارد الهــواءُ البارد أكوامَ الأوراق المتطايــرة من مكان إلى مكان. لم يكن هنـــاك من أثرٍ لأيّ حيوان أو طــير في أي مكان، وكانت الأسماك الذهبية والفضية قد توارت تحت قشرة الجليد التي كست الغدران الرقراقة.

وحتى فارامانت أصابــه بالدهشة منظرُ هذا الخلاء الكئيب الذي تكشّــف لأنظـــار المسافرين. فلم يمضِــ على مغادرته البـــلادَ العجيبة، وانطلاقــه إلى ما وراء الجبال سوى ستة أيام، ولكنْ يا للتحولات الفظيعة التي طرأت على البلاد خلال هذه الأيام! يا للجبروت الذي فرضه الشتاء على طبيعةِ بلادٍ كانت مشمسة نيّرة ذات يوم!

وفي مكانٍ غيرِ بعيد من وسط الغابة ظهر خطٌّ مستقيم طويل. وما لبث كاغي كار أن عرف بنظره الثاقب أن هذا الخطَّ طريقٌ معبّدة بالآجُرِّ الأصفر، بالرغم من أنها كانت مغطاة بالثلوج.

- إلى الأمـــام ثم إلى اليمين!- أمر الغرابُ التنـــين. - والآن لن نُضِلَّ الطريق.

- إنهم ينتظروننا بفارغ الصبر!- تنهّد فارامانت.

شرع أويخّو يزيد من سرعته، وإذا بجسم عملاق يظهر على الطريق في وشـــاح أزرق يزيده بـــروزاً على خلفية الثلّج الأبيض. عندها أمسك فارامانت بيد تشارلي بليك وتمتم، ولسانُه يتلعثم من الرعب:

- إنها أراخْنا!

لقـــد جاءت الساحـــرة إلى بلاد العلاكين علـــى البساط الطائر كي تمتع ناظريها بما صنعت يداها. كانت تمشي على الطريق المعبدة بالآجُرّ الأصفـــر متأبّطةً بساطَها الطائر ملفوفاً على شكل إسطوانة، وهي تقهقه بوحشيـــة من شدة الإعجـــاب. فهي نفسها لم تكن تتوقـــع، عندما أرسلت الضبـــاب الأصفر إلى البلاد العجيبة، أن يكـــون لفعلها مثلُ هذه النتائج القاتلة. كانت المشعوِذة تقهقه فتتردَّد أصداء صوتها في الغابة العارية مثلَ هدير الرعد.

وسرعان مـــا خلّفوا هامَـــة أراخْنا الكريهة وراءهـــم، وعاد الهدوء والفراغ يخيّم تحتهم على الأرض.

لقـــد تبيّن تشارلي بليك من هذا اللقاءُ الـــذي فوجئ به كم سيكون الصـــراع شاقاً ضد هـــذه المشعـــوِذة الشريرة التي تتمتـــع بهذه الحجوم العملاقـــة. إلا أن هذه الفكرة لم تُدخِلِ الخـــوف إلى قلب البحّار الوحيد الرِّجـــل، بل زادته إصراراً على أن يخوض ضد المشعوِذة أشدَّ أنواع القتال قسوةً وانعدامَ رحمة.

- انتظري، أيتها اللعينة، - تمتم القبطان، - إنني سأسلّط عليك تيلّلي فيللـــي، وعند ذلك سوف يجعلك الخوف تتقافزين، أُقسِم بأعاصير البِحار الشرقية!

- ماذا تقول، يا خالي تشارلي؟- تعجَّبت إينِّي. - وهل يستطيع صنمُنا الصغير أن يُخيف عملاقة كهذه؟!
- لا بأس يا طفلتي، لا تتعجَّلي، فلكّل شيء وقتُه! - ابتسم تشارلي.

وفي صباح اليوم التالي هبــط التنين في الساحة الرئيسةِ في مدينة الزمرد.

❖ ❖ ❖

الاجتماع الكبير

تحوَّل وصـــول تشارلي بليك والطفلين إلى عيـــدٍ عظيم عند سكان مدينة الزمرّد. كانت المدينة قد فقدت أُبَّهتها السابقة، فبات الثلج يغطِّي الأسطحة والشوارع، ولم تَعُد تتألق فيها أحجار الزمرد، كما نضبت النافورة في الساحة، وبهتت ألوان البيوت الزاهية في الظلام الأصفر.

ولكنَّ خبر وصول العملاق من وراء الجبال ذاع في المدينة بلمح البصر، فــكان له مفعولٌ سحري. كان البرد الذي يتزايــد كل يوم يجعل السكان يتجمَّعون في حشود. ولَجأت النساء مع الأطفال والعجائز من الرجال والنساء إلى قصــر الفزَّاعة الذي لم يتمكَّــن ليستار إلا بصعوبة بالغة من أن يشغِّل فيه التدفئة المركزية. أمّا أولئك الذين لم يجدوا لأنفسهم مكاناً في القصر فكانوا يتجمعون في الغرف الصغيرة ويحاولون تدفئتها بحرارة أجسادهم. ولم يكــن الناس يبارحون بيوتهم إلا في حــالات الضرورة القُصوى، وذلك مثلاً حين يذهبون، كلٌّ في دوره، إلى الغابة من أجل إحضار الحطب لتدفئة القصر. وفي هذه الحالة كان الحطابون يرتدون كل ما يملكون من ملابس.

أمّــا الآن، فقد انفلت سيل من الكبــار والصغار إلى شوارع المدينة، فكانت القبَّعــات تتطاير في الهــواء، وتنطلق صيحــات الابتهاج احتفاءً بالعمــلاق القادم من وراء الجبال ومرافقيه الطفلين الشجاعين. لقد بدا للناســ الساذجين أن أحوالهم سوف تبدأ بالتحسن حالاً، وأن النجاة على الأبــواب. إلاّ أن النجــاة كانت لا تزال بعيدة المنــال. وكما كان الأمر في الماضي، ظل المارّة يتحركون ضمن حيِّزٍ ضيِّقٍ من الرؤية. فكانوا لا ينفكُّون يقتربون من الأعمدة التي تحمــل إشارات الطريق، يقرؤون ما عليها من

كتابة، وأفواهُهم لا تزال مكمَّمة بأوراق الرافالو، وعيونهم تحميها نظارات مزودة بإطارات. زِدْ على ذلك كلِّه هذا البرد القاتل الذي لم يعتادوه، والذي يخترق حتّى نُخاعَ العظام.

خـــرج الفزّاعة من القصر ليستقبـــل ضيوفه الأعزّاء، وهذا ما جاء ذكـــره في مخطوطاتهم التاريخية على أنه علامـــةُ إجلال وتكريم لم يسبِق لحاكم بلاد الزمرد أن شرّف بها أحداً من ضيوفه من قبلُ قَطّ. وأكثر من ذلك، فـــإن الفزّاعة حين طوّق إينّي بيديه الطريتين الضعيفتين قام بعدة حركات رشيقة من رقصة غريبة وهو يغنِّي:

- هاهـــاي- هاهاي- هوو، ها أنا ذا مرّة ثانية - ثانية - ثانية برفقة إينِّي!

غير أن المخطوطة التاريخية أغفلت ذِكر هذه الحقيقة خجلاً، فليس ثمّةَ داعٍ لأن نكشف للأجيال القادمة ما كان لدى حاكم متميز مثل الفزّاعة الحكيم من نقاط ضعف صغيرة.

ومـــا إن انتهت المراسم المهيبة التي أقيمت على شرف استقبال بعثة الإنقاذ القادمة من وراء الجبال، حتى عُقد اجتماعٌ موسَّع لمجلس الشورى الأعلـــى في صالة العرش في القصر. وقد حضـــر الاجتماعَ في هذه المرّة، بالإضافـــة إلى أعضاء الشورى الاعتياديين، أشخاصٌ مرموقون من سكان المدينة، بل وبعضٌ من كسّـــاري السنديان الذين تَميَّز بينهم رؤساءُ الفِرَق فاتيس، وداروك، وجنرالٌ سابق في الجيش الخشبي هو «لان بِيروت» الذي كان في ذلـــك الوقت يعلِّم الأطفـــالَ الرقصَ في إحدى مدارس المدينة. ثم أصبح عاطلاً عن العمل بعد أن أُغلقت المدارس بسبب الأحداث المأساوية التي دارت في البلاد.

افتتـــح الفزّاعة الجلســـة. ولم يقدِّم تقريراً، بـــل اكتفى بتلاوة خبر قصير، لأن جميع الحاضرين كانوا على علم بما جرى، وما كان ثَمّ حاجةٌ

للإكثـار مـن الكلام. وقد اقـترح الفزَّاعة أن يقوم كلٌّ مـن يريد الكلام بتسجيل اسمه.

كان تشارلي بليك أوَّلَ من تكلم.

- لسـتُ خطيباً، بل أنا رجلُ فعلٍ، - صرّح البحّار ذو الرِّجْل الوحيدة بعـد أن سحب نفَساً، كعادته، مـن غليونه المطفأ. - ولذلك فسوف أنتقل فـوراً إلى الاقتراحات المحدّدة. فمن أجـل محاربة أراخْنا لا بُـدَّ لنا من قلعة متنقلة نستطيـع دائماً أن نجد لنا فيها ملاذاً آمناً مـن هجمات المشعوِذة، ونتمكن فيها من القيام بغارات وَفْقَ قواعد العلوم العسكرية. على أن بناء ملجأ كهذا مسألة شاقّة وتتطلّب وقتاً طويـلاً، خاصة وأن أمامنا عملاً هامّـاً آخرَ سوف أتكلم عنه فيما بعـد. ولذلك، فإنني أقترح أن نستخدم لهـذه الغايةِ تلك المقطورةَ التي جاءت فيها إيللي إلى البلاد العجيبة.

تمت الموافقة على اقتراح القبطان بالإجماع.

ثم تابع تشارلي:

- لقد صنعتُ هذه المقطورةَ بنفسي ذات يوم من أجل أختي آنّا وزوجها جون، وأعرف أنها ستظلّ صالحةً للخدمة سنواتٍ طويلة. إننا سنعيد تأهيل المقطورة، ونضعها على العجلات لتكون في الخدمة، وعندئذٍ فلْتحاولِ المشعوِذة أن تؤذي حامتيها!

التهبتِ الأيدي بالتصفيق، وارتفعت صيحات التهليل: «هورا-ا -ا».

وما لبث أن أخبرهم تيم وإينّي بأنهما شاهدا هذه المقطورة في العام الماضي، ووجدا أنها كانت في حالة ممتازة.

لم يؤجـل الفزَّاعـة عمل اليوم إلى الغد، كمـا يحدث عادة حتى في المؤسسـات المحترمـة، فطلب من القائديـنِ فاتيس وداروك أن يجمعا عمالهمـا وينطلقا في الحال إلى بلاد العلاكين في طلب المقطورة. وتطوّع

(لان بِــيروت)، وقد نال منه السأمُ وهو عاطل الأشغال، للقيام بتولّي قيادة هذه الفصيلة.

إن الرجال الخشبيين الذين لا يعرفون التعب ولا يتأثرون بالضباب الأصفــر سوف يَجدّون السير في الليل والنهار ليأتوا بالمقطورة إلى مدينة الزمرُّد بعد ما يقارب ستةَ أيّام. وسرعان ما انطلق كل من فاتيس وداروك والقائد لان بِيروت لتنفيذ هذه المهمة.

– المسألــة الثانية، – تابع تشارلي بليك خطبتــه، – هي أنني أعرف، بفضل ما روته لي ابنة أختي إينِّي، أنها تركت عند الحطاب الحديدي تلك الحلقة الفضية السحرية التي تجعل صاحبها غير مرئي. يجب علينا أن نأتي بهذه الحلقة إلى هنا. وبعد أن يصبح تيم أوكللي غير مرئي، سوف يتسلل إلى أراضي أراخْنا ليستطلع الأمور هناك. ولعلّه يتكمــن من سرقة كتاب التعويذات عندهــا. وحينها سنفكّ السحر اللعين ونزيله عن البلاد العجيبة فوراً.

نهضــ الحطّاب الحديدي من مكانــه، وراح مرتبكاً يقلِّب بين يديه القِمْع المخروطيَّ الذي يستخدمه قبَّعة، فقال:

– أرجــو أن تعطوني الكلمة لأصحِّح. فنحن بالذات كنَّا قد استخدمنا تلك الحلقة الفضية من أجل بلــوغ هذه الأهداف المذكورة نفسها، ولكن واأسفاه...

– لقد أضعتموها!– قالت إينِّي وهي تثب منزعجة.

– نعم، لبؤسنا الشديد، – أقَّر الحطاب، – وإليكم ما حصل. فقد كان لــدى طبّاختي فريغوزا غزالةٌ أليفة تدعى آوونا. وذات يوم وضعت فريغــوزا الحلقة على رأس الغزالة علــى سبيل المزاح، وبغير قصد ضغطت على نجمــة الياقوت، فإذا بالغزالــة تختفي. وعبثاً ظلت المــرأة القلقة تنادي حبيبتها الغزالة كي تخلــع الحلقة عن رأسها.

غــير أن الغزالة كانت قد هربت من القصر ولم يعثروا لها بعد ذلك على أثر...

انخرطــت إينِّي بالبــكاء، وعبثاً حاول الفزَّاعــة والأسد والحطاب تهدئتهــا، فقد كانت مولعة بحب تلك الهدية الرائعة التي قدَّمها لها ملك الثعالب.

- حقاً، إنها لخسارة كبيرة وقاسية، - قال تشارلي بليك حزيناً. - ولكنْ حســنٌ أنني لم أعتمد على الحلقة وحدَها، بل أعددتُ وسيلة أخرى مــن أجل محاربة المشعوذة. هل أنزلتم عن ظهر أويخّو رزَمَ الحديد والنوابض؟- قال متوجِّهاً بالسؤال إلى فارامانت.
- نعم، لقد قام بذلك كسارو السنديان بناءً على طلبي، ونقلوا الحِمْل إلى القبو.
- جيد جداً! أتعرفــون؟ - توجَّه البحّار إلى المجتمعين، - لقد فكَّرت بأن أصنع عملاقاً يتحرّك آلياً كي يكون سلاحَنا الرئيسَ في محاربة الساحرة أراخْنا. وقد جلبت معي ما يلزمنا من أدوات لهذه الغاية، من صفائحَ حديديةٍ ونوابضَ...

بلغت بهجة الحضور حدودها القُصوى. وراح بلور النوافذ يرتجّ من جرّاء الصيحات العالية، والأرضــ الخشبية تطقطق من ضرب الأقدام. فاضطُرَّ الفزَّاعة إلى أن يطيل القرعَ بجرسِ رئاسة الجلسة من أجل إعادة النظام.

وبعد أن هــدأ هياج الناس، توجّه تشارلي بالســؤال إلى الميكانيكي ليستار:

- هل يمكنني الاعتماد على مساعدتكم؟ إننا على عجَلةٍ من أمرنا في إنجاز هذا العمل، وسوف نكون بحاجة إلى عدد كبيرٍ من الناس.

أكد ليستــار للبحّار بحرارةٍ أنه يُجنِّد نفسه ومساعديه بالكامل من أجل صنع هذا العملاق.

- إننا لن ننـــام إلا ساعتين أو ثلاثاً في اليوم، لكي نصنع بسرعة ذلك العملاق الذي سوف يبارز أراخْنا! - صاح الميكانيكي. - وبالمناسبة، فقد اصطحبنا معنا من البلاد البنفسجية كثيراً من المعدات المختلفة التي سنكون بحاجة إليها الآن.
- إينّي، أين تحتفظين بتيلي فيللي؟ - سأل بليك.
- إنه هنا، يا خالي.

أخرجتِ الطفلةُ التمثالَ من الحقيبة وناولته للبحّار. فرفعه تشارلي بليك عالياً كي يتمكن أعضاء المجلس كلهم من رؤيته على خير وجه.

انطلقـــت صيحـــة دهشة. لقـــد كان الصنـــم مخيفاً، تنظـــر عيناه الحولاوان المتطاولتان نظرة شريرة متوعِّدة. وكانت تجعيدةٌ عميقة تخطّ جبينـــه الضيّق. وارتسمت على فمه الكبير ابتسامةٌ ساخرة شريرة تكشف عن نابـــين أبيضين كبيرين. كان مظهره كلّه يتنفَّـــس شراسة وحقداً على العالم برمَّته.

راح المشاهدون يتأمّلـــون تيللي فيللي برهبة، فيما انخرط طفل في السادســـة من عمره في بكاء فظيع بعد أن تسلل إلى قاعة الاجتماع خلف أبيه، فتم إخراجُه في الحال.

- أليس جميلاً ؟- سأل تشارلي بسخرية.
- لم يسبِـــق أن رأى أحـــدٌ دميماً بهذا الشكل في بلادنا من قبلُ قطّ، - صرح الأسد متيقِّناً. - وحتى النمور ذات الأنياب السيفية لم يكن لها مثلُ هذا المنظر الرهيب.
- إذاً، سنتّخـــذ من هـــذا الفتى أنموذجاً نصنـــع عملاقنا الآلي على شاكلته. هل تتخيّلون كيف سيبدو هذا الوحش وهو يبلغ من الطول خمس عشرة ذراعاً؟
- نعم ، إنه سيكون ذا مظهر شديدِ التأثير، - وافقه الفزَّاعة.

❖ ❖ ❖

الفارس الحديدي تيللي فيللي

ولادة العملاق تيللي فيللي

تم إنشـاء الورشـة في قبوٍ واسـع في القصر، حيـث كانت لا تزال موجودة طاولات النجَارة التي نحت عليها أورْفِن جوس كسّاري السنديان. كان المـكان مُناراً بعددٍ كبير من الشموع. وقد قاموا بتنقية الجو في القبو بواسطة النار، وكانت الشموع تؤمِّن إنارة كافية.

كان العمل يسير على قدم وساق. لقد وضع تشارلي الرسوم الهندسية، ووَفقـاً لهذه الرسوم كان يجري قصـ الصفائح الحديدية من أجل صنع الجسم والرأسـ واليدين والرجلين لعملاق المستقبـل تيللي فيللي الذي أطلقوا عليه هذا الاسم نسبة إلى صنم إلهٍ وثني. كان العمل الذي يقوم به بليك يتطلب دقة عالية، إذ كان ينبغيَ أن تأخذ قِطع الصفيح المقصوصةُ شـكلاً منحنياً بواسطة مطارقَ خشبيةٍ لكي تصبح ملويّة بالشكل المطلوب فيكـون لها بعد اللِّحـام ملامحُ جسم بشـري. وكان في وسع أيِّ خطأ في الحسابات أن يؤدي إلى نتائجَ غيرِ قابلَة للإصلاح.

كانت قياسـات جسم تيللي فيللي العملاقة هي مـا يعقِّد المسألة. فقد قرَّر كل من تشارلي بليك وليستار أن جسم تيللي فيللي يجب أن يفوق أراخْنا بطول قامته. فما من شيء غير ذلك يجعل المشعوِذة تشعر بالخوف من خصمها القوي، وهذا ما سيؤدي إلى هزيمتها وهلاكها.

لقـد تطلّب صنع كل يد حـوالي أربع أو خمس صفائح من الحديد، أمّا صنع القدمين فقد تطلّب سبع أو ثماني صفائح، فيما تطلَّبت صناعة

الجســم عشرين صفيحة كاملة. ولحسن الحــظ، فقد اصطحب تشارلي بليك معه من كنساس كمية كافية من المواد.

لمُــدّة تزيد عــن عشرين ساعــةً في اليوم الواحــد كان يستمرُّ أزيزُ المثاقب، وقَرْعُ المطارق في الورشات، فيما كانت تُحمّى القضبان الحديدية في الأفــران حتّى الاحمرار، ويصنع الحــدادون العزقات. وتحت السقف الخفيضــ للقبو كانت حرارة الجوِّ تجعل الناســ يتصبَّبون عرقاً، ويفقد بعضــ منهم وعيــه أحياناً. إلا أنه ما من أحد منهــم ترك عمله، بل كان الجميــع يتفانون في العمل وهــم مدركون أن خلاص بلادهــم الأمِّ إنما يتوقَّف عليهم.

وهكذا ظهرت في مختلف زوايا القبو أعضاء جسم ضخمةٌ للعملاق المنتظــر: وركان، وساقان، وكتفــان. كانت هذه الأعضــاء شبيهة بأنفاق معدنية، يتحــرك داخلها الغمازون الصغارُ القامــةِ بحرّيّة وهم يحملون أدواتهــم. وكان باقياً تجميعُ هذه الأجزاء أعضاءً بطريقةٍ ذكيَّة للحصول على اليدين والرجلين.

وفي الرأســ الضخــم المصنوع للعملاق الميكانيكــي تمَّ صنعُ ثقبين كبيريــن متطاولين على شكل عينين، وثقبٍ آخــرَ للفم. وقد تقُرّر تجميع جســم تيللي فيللي في الباحة، لأنه لو تم ذلــك في القبو لما كان بالإمكان تمرير جسم العملاق عبر الأبواب.

إلا أن صُنْــعَ جسم العملاق ورأسه وأطرافــه لم يكن سوى جزء من العمل، كما أنه لم يكن بالجزء الأهم. إذ كان لا بد لتيللي فيللي من أن يكون قــادراً على السير، والجري، والتعامل مع السلاح، أي مع السيف والدرع. ومن أجل تحقيق ذلك كان ينبغي تزويدُه بعدد كبير من المسنّنات، والأذرع، والنوابضــ الصغيرة والكبيرة التي ستنوب مناب العضلات عند العملاق. ثــم إن ذلك كان يتطلَّب مهارة كبيرة ووقتــاً طويلاً. ومن حسن الحظ أن

الغمازيــن كانوا منذ قديم الزمان مشهوريــن حِرفيّين ماهرين، كما إنهم تــزّودوا في السنوات الأخيرة بخبرة ممتــازة في تفكيك وتركيب الحطاب الحديدي وأجزائه المعقّدة.

كان العمــل يسير بوتائــرَ مضاعفةٍ، ولم يكن هنــاك مجال لتضييع الوقــت، لأن البرد القاســي كان في تزايدٍ يوماً بعد يوم. وقد تولّى تشارلي وليستــار القيامَ بمراحل العمــل الأكثرِ مسؤوليــةً، أي بتركيب المسنَّنات، والأذرع، والنوابض، فكانا لا ينامان سوى ساعتين في اليوم. وقد أُصابهما مــن الإنهاك ما جعلهمــا لا يستطيعان الوقوف علــى أقدامهما إلا بشقّ النفس. ولكي لا يغلبهما النعاس في أثناء العمل كانا يتناولان جُرّعاتٍ من شراب جوز النوخ نوخ.

وأخــيراً تقدَّم العمل حتى وصل إلى المرحلة التي أصبح ممكناً فيها تجميــعُ الآلة المعقدة بالكامل. ولم يكن هناك مــكان يصلح للقيام بعملية التجميع هــذه إلا الباحة. وقد أُتيحَ إخراجُ إجــزاء اليدين والرجلين من البــاب، أمّــا الرأس فتعــذّر إخراجه، فكان لابد من فتــح ثغرة كبيرة في الجدار.

كانت النيران تشتعل في أماكنَ مختلفةٍ، وكان العمّال يتراكضون إليها جيئة وذَهاباً كي يتدفَّؤوا بحرارتها. وكان لهذه النيران فائدة أخرى أيضاً هي أنها كانت تنقّي الهــواء في الباحة، ممّا جعل العمال يتذكّرون أورفن ويثنــون عليه مراراً، فحقاً ليس مريحاً أن يشتغل المرء وعلى وجهه أوراق الرافالو التي تشبه طمّاشات البغال. وكان النجّارون قد أعدّوا سلفاً سلالمَ ومصاطــبَ مرتفعــة يمكن دفعُها من مكان إلى آخــر. فيما كانت الألواح تُدلّى من عارضةٍ خشبية تصل بين عمودين عاليين جداً.

بدأ التركيب بتعليــق جسم تيللي فيللي بحبال متينة تحت العارضة الخشبية. وبأمر من تشارلي بليك كان مائة وسبعون رجلاً، وانضاف إليهم

الحطاب الحديدي، يقومــون بشد الحبال الممرّرة عبر الألواح، وذلك من أجل رفع العملاق إلى العلوِّ المطلوب.

كان الجذع هو القسم الأكثر أهمية وضرورة بين أقسام جسم العملاق الآلي. فهناك يتجمّع مركز التحكم بحركاته كلها، ولهذا فقد أنشأ العمال المعلِّمون في بطن تيللي فيللي غرفة صغيرة مريحة يمكن الولوج إليها عبر بــاب ضيق. وثبّتوا في أرض الغرفة كرسياً دوّاراً مريحاً، إذا ما جلس فيه الشخصــ الذي يتحكم بحــركات تيللي فيللي كان في مقــدوره أن يصل إلى جميــع الأذرع والأزرار التي تشغــلّ النوابض. وقد تبيّن تلقائياً أنه لا يستطيع أحد أن يكون هذا الشخص سوى ليستار، وهو الميكانيكي الأمهر في بلاد الغمازّين. كما أنه هو مَن اخترع العديد من الأجهزة والتقنيات ثم ركبّهــا بنفسه. وقد لعب قِصَرُ قامته هنا دوراً مفيداً. وكذلك أفاد ليستار من أنه كان ما يزال عنده بعدُ ما يكفي من القوة، والقدرة على التحملّ.

وبعــد أن علَّق العمال الجسمَ شرعوا يركبّــون له اليدين والرجلين والرأســ. وأحيط الأساس بشبكــة عنكبوتية كاملة من الحبال التي كانت تنزلــق عليها مَرْكبات صغيرة معلّقــة وسط الدخان والظلمة. وكان يظهر مــن تلك المركبات عمَّــال مزوّدون بالمثاقب وقطّاعــات المعدن، والمطارق والكمّاشات.

وفي هــذا الجو الضبابــي كان يختلط ضجيــج الأصوات، وصرير الألــواح، وطرْق المطارق. وراح جسم تيللــي فيللي العملاق يكتسب عدداً متزايداً من السماتِ البشرية.

وأخيراً، حانت اللحظة المهيبة التي انتهت فيها الأعمال الميكانيكية كلهــا. فقــد تم تركيب النوابضــ والأجهزة في مكانهــا المناسب، فوقف العمــلاق تيللي فيللي بثبــات على قدميه الهائلتين. وقــد تطلّب تشحيمُ جميع نوابضه ومفاصله استهلاكَ برميل كامل من الزيت.

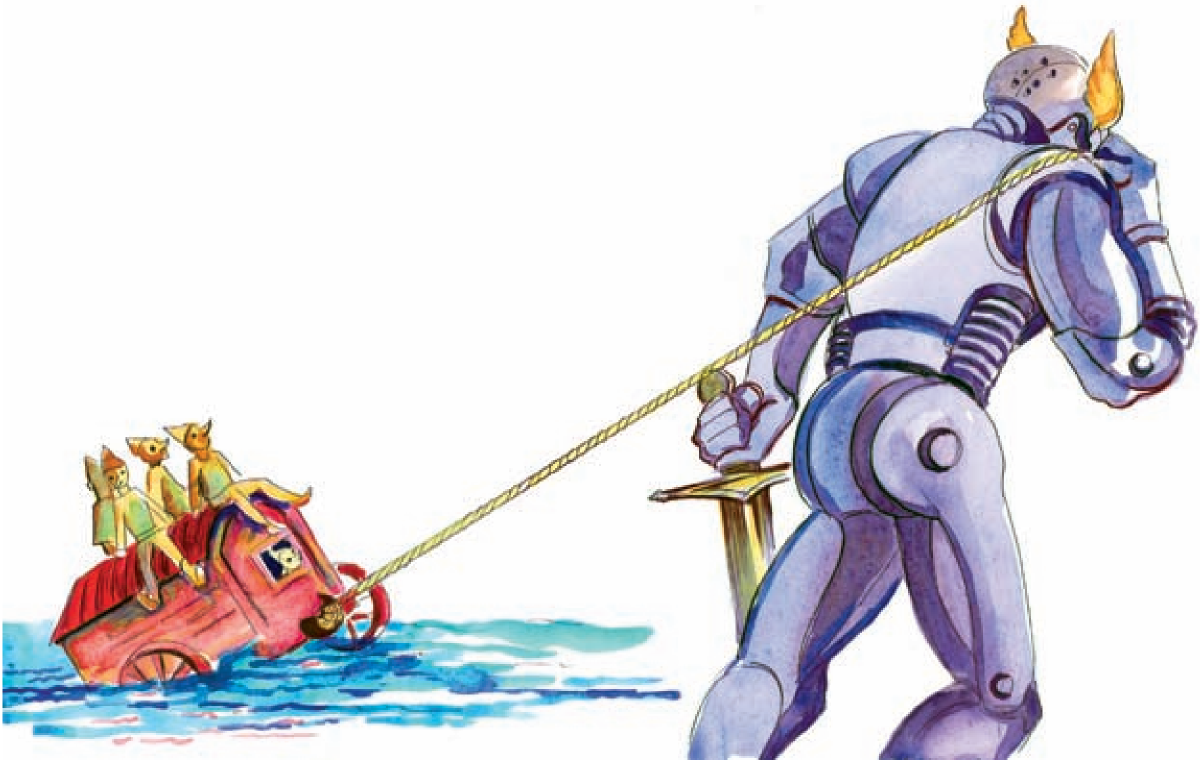
والآن فقد جاء دور الدهّانين. فأُوكلتْ إلى أمهر المعلّمين بينهم، إلى الفنانــين الحقيقيين في هذه المهنة، مَهمّةُ طَلْــي رأس العملاق بالألوان. وتفحّص هؤلاء جيداً ذلك الصنم الذي جيء به من جزر كورور كوسو، ثم أبلَوْا في طَلْيه بلاءً حسناً!

وما من أحد نظر إلى الوجه الشرس لتيللي فيللي، وعينيه الشريرتين الشديدتي الحَوَل، وتكشيرته الرهيبة، ونابيه الهائلين البارزين من فمه إلا وترنّح من الرعب. وقــد طُلِيَ جسمُه ويداه ورجلاه بلونِ الهندام الحربي لفارســ من القرون الوسطى. ولم يكــن ينقصُه، لكي يكون التشابه كاملاً، ســوى درع وسيف ورمح. إلا أنهم كانوا قد صنعوا له سيفاً عملاقاً، وكان ثقيلاً لا يقدر أربعون رجلاً على زحزحته من مكانه إلّا بشقّ النفس. وكان يمكن لمائة شخص أن يحتموا من المطر تحت درعه الحديدي المتين. وكان يَحسُن بهم أن يصنعوا لتيللي فيللي رمحاً لولا أن حَمْلَ رماح الفرسان كان يُناط بحَمَلَة السلاح التابعين لهم، فتخلّوا عن الرمح. فمن أين كان لهم أن يأتوا بتابع يليق بحمل سلاح مثلِ هذا العملاق؟

كانَ صانعو تيللي فيللي في غاية الرضا عن هذا الابن الوليد.

- أجــل، - قال تشارلي بليــك. - إن أراخْنا ستصــاب برعبٍ شديد عندما تلقي نظرة على طفلنا هذا.
- أما أنا فسأبذل قُصــارى جهدي، - قال ليستار، - لكي أجعل هذا الصغير يطارد العدوَّ كما يطارد الذئب أرنباً.

لم يكــن «الطفل» تيللي فيللي أخرس. فقد دُسَّت في حنجرته صفّارةٌ قابلةٌ لتغيــير طبقات الصوت فيها من أدنى درجــة إلى أعلى الدرجات. وحــين قامــوا بتشغلها أوّل مرّة، علــى سبيل التجريــب، دبّت في المدينة فوضـــى عارمة. إذ أدَّتِ الأصوات الوحشية الحادّة إلى طرد السكان كلِّهم مــن بيوتهم. وخُيّل للناســ أن نهاية العالم قد حلّــت، فراحوا يتراكضون في الشـــوارع مرعوبين، يصطدم بعضهم ببعضــٍ في الظلام الأصفر. ولم



يستطــع إدخالَ الطمأنينة إلى نفوسهــم إلا المنادون الذين راحوا يطوفون المدينة راكضين. وكان تشارلي بليك يفرك يديه فخوراً، وينفث الدخان من غليونه بشدة، وهو يُقسِم بأعاصير خطوط العرض كلِّها إنّ العملاق الآليَّ سوف يُثبِتُ مقدِرتَه على أفضل وجهٍ حين تقع الواقعة.

آن أَوان البــدء بالعمليــات العَسكرية ضد المشعــوِذة. وكان كسارو السنديان النزهاء قد جاؤوا، قبل عدة أيام من إنهاء الأَعمالِ والاستعدادات، بمقطــورة إينِّي يجرّونها على أكتافهم. كانت المقطورة مثبَّتة على عجَلات أُعدّت لها خصيصاً، وكانت أبوابُها ونوافذها مغلقة بإحكام، وقد جدَّدوا فَرْشَها الداخلي، وما كانَ عليك إلاّ أن تنطلق في الطريق حالاً!

ولمّــا كانت الخيول الصغيرة في البلاد العجيبة عاجزة عن جرِّ هذه المقطــورة، لذا قرَّرت قيــادة أركان الفزَّاعة أن يكون كسارو السنديان هم من سيجّــرون هذه القلعة المتنقّلة. كما أُلقيَت علــى عاتقهم أيضاً مَهمَّة أخرى بالغةُ الأهمية وهي تشغيلُ العملاق الآليّ.

كانــت النوابض التي تحرك يدَي هذا العملاق ورجليه ورقبتَه قويّةً قوّةً لا يقدر عليها إلا كسارو السنديان. وتسلَّقَ عددٌ من الرجال الخشبيِّين السلالم المُسَنَدةَ على جسم تيللي فيللي وأدخلوا مفاتيح التشغيل في الثقوب المخصّصة لها. فأصدرت المفاتيح صريراً وهي تدور، وطقطقت النوابض مــن شدّة الضغط، إلا أنها ستتمكّن مــن العمل عدّة ساعات حين يكتمل الضغط عليها إلى أقصى حَدّ.

وتمَّ تعيينُ (لان بِيروت)، الذي كان جنرالاً في ما مضى، قائداً عاماً لجميــع كساري السنديان الذين يشاركون في الحملة. فقد تبيَّن أنه إداريٌّ قدير.

❖ ❖ ❖

أُولى خطوات الفارس الحديدي

كانت حامية القلعة المتنّقلة تتألّفُ من أعضاء هم الفزَّاعة، والحطاب الحديدي ديــن غيور، وفارامانت، والدكتور بوريــل، وكاغي كار، والزوّار القادمون من وراء الجبــال: تشارلي بليك، وإينّي، وتيم وآرتوشكا. ولم يبقَ في المقطورة مكان يتّسع لجسم الأسد الضخم، فظلَّ في مدينة الزمرد وهو مستاء أشدَّ الاستياء. وكان ليستــار واحداً من أعضاء الفصيلة القتالية، ولكنّ كان عليه أن يُمضي الرحلة متجوِّلاً في جوف تيللي فيللي.

كان هنــاك عدة نوافــذ زجاجية دائرية صُنعــت في بطن العملاق وظهره من أجل مراقبة المنطقة. ومن خلال هذه النوافذ يستطيع ليستار أن يــرى كل ما يجــري قدّام القلعة ووراءها. أمّا تلــك العينان الكبيرتان الموجودتان في رأس تيللي فيللي، والقادرتان على الدوران في محجريهما، فقــد كانتا مخصّصتين لتخويف الأعداء. هذا ما خطّط له مخترعو تيللي فيللــي في بداية الأمر، إلا أن ما تبــيَّن في الواقع كان غيرَ ذلك، وهذا ما سنتحدّث عنه فيما يلي.

كان كل شــيء جاهزاً للانطلاق في رحلة بعيدة وخطيرة. فقد كانت الأكياســ والسلال المعبّــأة بالمؤن، وبراميل مياه الشــرب موضوعة تحت المقاعد، وكان الهواء المسمــوم قد نُقيّ على طريقة أورْفِن جوس. إذ كان لا بد من فعل ذلك، وإلا فلتجرّبوا أن تستنشقوا الهواء عبر أوراق الرافالو في مقطــورة ضيّقــة مدّة أيام كثــيرة متتالية. أمّا الآن فــلا مجال لتسلل قطرات الضباب الأصفر السامة إلى القلعة المتنقّلة، لأن جدرانها وأرضها وسطحها كانت كتيمة للغاية. وكان ليستار قد قام، من أجل التهوية، بفتح عدة ثقوب في الجدران مزوَّدةٍ بمصــافٍ متينة من أوراق الرافالو. ولكي

تكون الراحـــة مضمونة في المقطورة كان ينبغـــي التقليلُ من الخروج إلى الشارع، وإغلاقُ الباب بسرعة عند الخروج.

وبعد أن أمّنَ ليستار لنفسه وضعاً مريحاً في المقصورة داخل العملاق الآلي قـــام بالضغط على ذراع التشغيل الرئيسي. وإذا بشيء ما في جوف تيللـــي فيللي يطلق صريراً وقرقعة، ثم طقطقت النوابض، فسار العملاق متثاقلاً على الأرض المتجمدة.

وهنا وقعت المعجزة. فما إن خطا تيللي فيللي أوّل خطوة حتّى دبّت الحيـــاة فيه! على أن هذه الواقعة يمكن أن تسمّى معجزة في ولايات مثل كَنساس، أو أوهايو، أو كونّيكتيكوت، أمّا في البلاد العجيبة فقد كانت تُعَدُّ مسألة عادية تماماً.

ألَمْ يكن يعيش هناك، ويتحرّك، ويتمتَّع بكلِّ أحاسيس البشر وقدراتهم كلٌّ من الإنسانِ الفزّاعةِ المصنوع من القش، والحطّابِ الحديدي؟ ألم تدبِّ الحياةُ في البغلين الآليـــين سيزار وهانيبال، ويصبحا قادرين على النطق مـــا إن اجتازا حدود البلاد العجيبة؟ لقد عَدَّ جميعُ المشاركين في الحملة بـــثَّ الحياةِ في تيللي فيللي مدعاةً للســـرور، ولكنْ ليس حدثاً يثير العجب إطلاقاً.

استدار تيللـــي فيللي برأسه وراح يتلفَّت حوله، لأن عينيه الكبيرتين اللتـــين لم تكونـــا مخصصتين إلا لملء قلـــوب الأعداء بالرعـــب، أصبحتا بصيرتين.

تكلم العملاق بصوت عالٍ رجراج:

- هيا، أعطوني مرآة، فأنا أريد أن أنظر إلى نفسي. إنه لمثير للفضول أن تعرف كيف تبدو في نظر الآخرين.

ومـــا هي إلا عدة دقائق حتى جاؤوه بأكبر مرآة موجودة في القصر، ثـــم مسحوها باهتمام كبـــير، وعلّقوها على العارضـــة الخشبية التي تم

تحتهــا تجميع تيللي فيللي. وتغنّج العملاق باختيار مكان يستطيع أن يرى منــه صورته على نحوٍ أفضــل، وظلّ مدة طويلة يتأمَّــل وجهه. ثم قهقه بصوت عالٍ.

- أووووه، يــا لي مــن شجاع، يا لي من جميل! ليســ لأحد منكم، أيها البشــر، عينان معبِّرتان كعينيّ، أقسم بالأعاصير!- أخذ تيللي فيللي يصيح مبتهجاً.

انفجــر المستعمون بالضحك رغماً عنهــم، لأنهم تبيّنوا أن العملاق الحديــدي تمكّن، وهو بعدُ قيدَ الصنع، مــن التقاط كلمات البحّارة التي يستعملها القبطان بليك! فما أكثرَ الأشياءَ الخارقةَ للمألوف في هذه البلاد العجيبة... واستطرد تيللي فيللي قائلاً:

- ويا لَخدّيّ الحلويَن، يا لَذقني الفاتنة! فما أنتم، أيّها البشر، أكثر من مشوَّهــين مضحكين بالمقارنة معي... ولكن، أين هو والدي تشارلي الــذي تمكّنتم بفضل أفكاره، أيها البشر، من صنع صبيّ رائع مثلي؟ هاي، أسرع بالظهور لناظري، يا والدي العزيز تشارلي!

تقدَّم البحَّار إلى الأمام شاعراً بقليل من الخجل، وفخوراً في الوقت نفسه بكلام ابنه الآلي. ولكنَّه لمّا وجد أنه لا يستطيع وهو واقفٌ على الأرض أن يرى تيللي فيللي جيّداً، تسلّق أعلى سُلَّم كان يسنده الغمازون.

- إننــي مسرور بكوني قد تمكنت من إرضائك، يا بنّي!- صاح البحّار عبر مكبر صوت. - لقد بذلنا قُصارى جهدنا...

- أبعِــد، من فضلك، هــذا القِمعَ، ياأبي، - طلب إليــه تيللي فيللي. - فليبتلعْنــي سمك القرش إن لم تكن أُذُنايَ الرائعتان تسمعان، حتّى من دونه، كلَّ كلمة من كلماتك!

أطلق تشارلي بليك ضحكة قويَّة.

- وهل تعلم ما هو سمك القرش؟

فأجاب العملاق دونما حرج:

- ربما يكون شيئاً من قبيل تلك المشعوذة أراخْنا التي اخترعتموني من أجــل محاربتها. فلا تشغل بالك يا أَبي، لأنك أنجزتَ مهمتك بشكل ممتاز. ولقد فهمت أنا ذلك منذ أن تمكنت من التحكم بمشاعري. فليعلــم الجميع أنني قويُّ الهِمَّة، ولْتُهلِكْني صاعقَة إن لم أقاتل قتال الأسودِ!

كان الأســد الشجاع موجوداً في عِداد من حضروا هذا المشهد، وقد أسعده هذا التشبيه، فشكر تيللي فيللي عليه.

أجاب العملاق الحديدي برقَّة:

- أبتــي، أيها الغالي، كم أتمنَّى أن أضمَّك إلى صدري الحنون، ولكنني أخشــى ألا ينتهي ذلك بخير. إذ يبدو أنكــم، أنتم البشر، مخلوقات هشّة جداً!

- نعــم، لقد خُلقنــا كذلك،- أوضح له البحــار وحيد الرِّجْلِ.- ولهــذا، فالأفضل، يــا بني، هو أن تعبّر عــن حبك وامتنانك بالكلام، لأن ذلك سيكون أكثر أماناً بالنسبة إليّ. أمّا الآن فإن عليــك أن تمرّ عبر تلك البوابة، - قــال تشارلي بليك، - هيّا تقدم إلى الأمام!

ولّما اقترب العملاق من البوابة توقف حائراً.

- بابا تشارلي، إنها منخفضة جداً بالنسبة إليّ. ولا أستطيع المرور من تحت هذا القوس...

فاعترف تشــارلي بليك مرتبكاً بأنَّ ثمة خطأ قد حصل، ولا بدّ من كسر القوس.

- سأتولَّى الأمر بنفســي، يا أبتي،- تطوّع العملاق، وطلب أمتن مِهدّة لديهم.

ولمّـا أطبق تيللي فيللي قبضته الحديدية علـى المِهدّة، وشرع يهدم الجـدار بضربات رشيقة، تطايرت حجارة القرميد في جميع الاتجاهات، وراح المشاهدون يفِرّون كلٌّ في اتجاه.

كانـت عدةُ دقائق كافيةً لفتح معبَرٍ خرج منه الفارس الحديدي إلى الساحة. وتبعته المقطورة يجرُّها كسارو السنديان.

عندمـا كان العملاق يمشي في الشارع وهـو يحمل السيف في يده اليمنـى والدرع في يـده اليسرى، كان رأسه أعلى مـن الطابق الثالث في العمارات، وكان سكان المدينة وهم يُطلُّون من النوافذ يشيِّعون تيللي فيللي بصيحات الإعجاب.

– مرحباً بمنقذنا! يعيش من سيقهر أراخْنا!

كان تيللي فيللـي يحيِّي الناس على الجانبين وينحني لهم باعتزاز، قائلاً:

– ضعـوا ثقتكم فيّ، أيها المواطنون! صحيـح أن تيللي فيللي ما يزال شاباً، ولكنه لن يخيِّب ظنكم!!

بالطبـع، لم يكن في وسـع العملاق أن يخرج مـن المدينة من خلال بوابتهـا، غير أن ذلك كان قد أُخِذ بالحسبـان، وأُزيل جزءٌ من السور في الوقت المناسب. ولم يكن بمقدور عبّارة النقل أن تحمل ثِقَلَ الفارس العملاق فنزل في الماء الضحل بعد أن قـال بتلميـح موارب:

– أعتقد أن حبكات اللِّحام متينة بالقَدْرِ الكافي، فلا أتبلَّل.

– كل شيء مصنوع بإتقان، وتستطيع أن تكون مطمئنّاً!

قال تيللي فيللي بسخرية:

– آه، هذا أنت يا قائدي المفترض! إن اسمك ليستار إن لم أكن مخطئاً؟ في الحيقية، لستُ بحاجةٍ ماسّة إليك، ولكن فلتبقَ مكانك. إن نظام البديل الاحتياطي لا يضير في يوم من الأيام...

وبينما كان تيللي فيللي يتباهى بنفسه، فقَدَ السيطرة على حركاته، وانزلق على قاع القناة الطري، فلوّح بيديه موشكاً على السقوط في الماء. ولـو حدث ذلك لوجد تشارلي بليك ومساعدوه أنفسهم أمام مشكلة بالغة الصعوبة، وهي أن يُخرِجوه من القناة.

ولكن لِحسن الحظ، فإن ليستار لم يرتبك. بل سارع بلمح البصر إلى الضغط على الأذرع المطلوبة، فما لبثت الكتلة الحديدية الضخمة أن انتصبت ومضت متوجّهة نحو الشاطئ الآخر وهي تحطِّم القشرة الجليدية التي كانت تغطي الماء.

وبعد أن وصل تيللي فيللي إلى الشاطئ، خاطبه ليستار بلومٍ لطيف:

- كثيراً ما يؤدي الغرور إلى مصيبة.
- وما معنى الغرور؟ - سأله العملاق. وبعد أن استمع إلى الشرح، قال وهو يشعر بالذنب:
- لن أعود إلى الغرور ثانية...

في المساء روى ليستار لتشارلي بليك وباقي المشاركين في الحملة قصة التصرف الطفولي الذي قام به تيللي فيللي وكاد أن يوقِع الحملة في موقف حرج. فردَّ البحار الوحيدُ الرِّجْلِ على ذلك قائلاً:

- هل تعرفون، يا أصدقائي، أنني منذ كنت في كَنساس قررت أن من سيساعدنا في محاربة أراخْنا يجب ألا يكون إلا صبيّاً، ولا أحد سواه. نعم، نعم، لا تستغربوا، بل ويجب أن يكون بالضبط صبيّاً حديدياً طولُ قامته خمس عشرة ذراعاً. وعندما كنا هنا، على أرض جزيرة الزمرد، نُجمِّع أجزاءه الحديدية لتصبح جسماً واحداً، كنت أوحي إليهم بأن تيللي فيللي المنتظَر يجب أن يتحلّى بشجاعة الصبيان، واستهانتهم بالمخاطر، وتعطشهم لاجتراح المآثر...

- لَشدَّمـــا أَحسنتَ صُنعاً، أَيها الخال تشـــارلي! - هتفت إينِّي بإكبار.

- فلو أن طول قامة تيم كان خمسَ عشرةَ ذراعاً، وكان مصنوعاً كلُّه من الحديد، لسلك هذا السلوك نفسه تماماً!

فوافق جميع من في المقطورة على أن تشارلي بليك قد حقق ما أراد، أما الباقي فسوف تتدبَّر الحياة أَمره.

❖ ❖ ❖

ملكة فئران الحقل

عندما أنزل كسارو السنديان المقطورة من عبّارة النقل بحذر، وكانوا على استعداد للمُضيّ بها علــى الطريق المعبدة بالآجُرِّ الأصفر، طرحت إينِّــي على حين غَرَّةَ سؤالاً بدا بريئاً للوهلة الأولى، ولكنه أوقع المجموعة كلها في إحراج كامل. وهذا السؤال هو:

- ومــاذا إذا لم تقبل أراخِنا خوض مبارزة مع تيللي فيللي، وفرّت منه على متن بساطها الطائر؟
- حقــاً، إننا لم نفكر بذلك أبداً، - اعترف تشارلي بليك. - فالمشعوِذة تقطع حوالي عشرين ميــلاً في ساعة واحدة، أمّا نحن فليتنا نقطع هــذه المسافة، بعــون الله، في يوم كامل. بل وبعد ذلــك أين لنا أن نبحث عنها بعد أن تطير؟
- إن هذا التلفاز العجيب هو الذي سيساعدنا في هذه المسألة. - قال الفزَّاعة، وطبطب على الجانب المطليَّ من الصندوق.
- إنــه لن يساعدنا في شيء، - اعترض تشارلي بليك بحزن. - فهو لا يعمل في الضباب الأصفر.

أطــرق الجميع يفكرون. وإذا بأحدٍ يطــرِق الباب، ثم دخل ليستار والقلــق بادٍ على وجهــه. إذ عندما رأى أنّ ثمَّةَ سبــبٌ يمنع المقطورة من الحركة، نــزل من جوف تيللي فيللي على حبــال السُّلَّم وجاء ليسأل عن سبب التأخير. ولمّا علم الميكانيكي بالقصة ألَمَّ به الحزنُ أيضاً.

قال تيم متنهّداً:

- كم هو مؤسف أن الحلقة الفضية قد ضاعت. وإلاّ لكنتُ تسللت إلى مكان أراخْنا، فسرقتُ البساط منها وانتهى الأمر!

خيمّ الصمت ثانية. وإذا بإينّي تضرب كفاً بكفّ.

- أنـــا أعرف كيف نجرّد المشعوِذة من البساط! - صاحت إينّي بفرح، - سوف نجعل الفئران تقضمه!

- ماذا تقولين؟ - تساءل تيم بقلق. - هل فقدتِ عقلك؟

إلا أنه حين رأى الصفّارة الفضية معلقة على صدر إينّي صرخ بملء صوته: - تقصدين رامينا؟! أليس كذلك؟!

طبعاً، - أجابت الطفلة. - فلتُمسِك بأرتوشكا جيداً!

نفخت إينّـــي بالصفارة الفضية التي كانت قد قُدّمت هديّةً لأختها الكـــبرى من ملكة فئران الحقـــل، وإذا برامينا تظهر في الحال على أرض المقطـــورة مصحوبة بعدد من وصيفاتها. فاندفـــع أرتوشكا نحو الفئران، ولكن تيم كان يحكم الإمساك به.

- مرحبـــاً بك، يـــا صاحبة الجلالـــة!- قالـــت إينّي مرحِّبـــة بالملكة الصغيرة.

- مرحبـــاً بكِ، يا عزيزتي! - أجابت رامينـــا، - يسرني أن أراكِ أنت وتيم والعمـــلاق قادمين من وراءالجبال، وأن أرى حتى هذا الكلب، عدوّي الأبدي، كما يطيب لي جداً أن تكونوا جميعاً تنعمون بصحة جيدة. إننا نلتقـــي معكم للمرة الثانية في وقت عصيب بالنسبة إلى وطننا. إن قومي يشكون من صعوبات هائلة...

- ولكني أرجو ألا يكون أحدٌ مـــن رعاياك قد هَلَك؟- سألتها الطفلة باهتمام.

- لم يهلِـــكْ أحدٌ بعد. لقد اختبأنا في ذلـــك النفق الذي يبدأ من عند البرج القديم، والذي لا بد أن يكون قد أخبركم عنه العملاق القادم من وراء الجبال.



- نعم، نعم!- صاحت إينِّي بحيوية.

فيما أردف تشارلي بليك قائلاً:

- وأنـــتِ بالضبط من أرشدَنا إلى هذا النفق في ذلك الوقت. وقد كنا ما نزال في حرب هناك مع سداسيّ الأرجل!

- وهكذا، فإننا وجدنا في ذلك النفق ملاذاً لنا. لا وجود هناك للضباب الأصفر، ولكن، لسوء الحظ، لا يوجد غذاءٌ أيضاً.

– إننا، يا جلالــةَ الملكة، – قالت إينّي، – أتينا إلى البلاد العجيبة من أجــل القضاء على الضباب الأصفــر، ونرجو منك أن تمدِّي لنا يدَ المساعدة!

– ما المساعدة التي يمكننا أن نقدمها ونحن هذه المخلوقات الصغيرة والضعيفة؟ – قالت رامينا متعجّبة.

– لقد رأينا كيف كانت العملاقة أراخْنا تمشي، وهي غارقة في التفكير، لا تنظر تحت قدمَيها، عبر حقل تسير فيه جماعة من رعيَّتي. يومها داست الساحــرة بقدميها على صفٍّ مــن جماعتنا عن غير قصد فسحقت في الحال مائة وأربعين فأراً كان بينها شخصيات جليلة للغاية!

أعرب الفزَّاعــة وأصدقاؤه للملكة عن أعمــق تعازيهم، ثم حدّثهم تشــارلي بليك عن العمــلاق تيللي فيللي القوي الــذي يستطيع أن ينازل أراخْنا. فقد أجلس رامينا ووصيفاتها على راحة كفّه ورفعهنّ إلى النافذة لكــي يكون في مقدورهنّ أن يمتِّعنَ أنظارهــنّ برؤية العملاق الآلي. وقد ارتعدت الفأرات من الرعب عندما رأينَ وجه الفارس الحديدي الشرس.

وأردف البحار:

– إلا أننــا عاجــزون عن مواجهــة أراخْنا ما دامــت تمتلك البساط الطائر. ذلك أن عملاقنا تيللي فيللي بطيء الحركة جداً، ولن يكون في مقــدوره اللحاق بالمشعــوِذة إذا ما راحت تراوغه وتحيد عنه في الجوِّ. ولذلك فإن المهمة الموكلة إلى معشر الفئران ولا تقبل التأجيل هي القضاء على البساط الطائر.

فرِحت رامينا وقالت:

– إننا قادرون على القيام بهذا العمل!– صاحت الملكة بصوتها الرقيق.
– إننــا سوف نقضم هــذا البساط ، بل ســوف نقضمه بطريقة لا تُبقي منه أيّ أثر.

طفق الفزَّاعــة وأصدقاؤه يصفّقون، فاغتنم أرتوشكا الفرصة وكاد أن يُفلِت من يدي تيم.

- إلا أن الطريــق طويلة بــين مخبئنا وأراضي الساحــرة الشريرة، - استطــردت رامينا، - وفيها كثيرٌ مــن العوائق: كالجداول الواسعة السريعــة، والجبــال، والوديان ذات السفوح الشديــدة الانحدار... ونحــن بحاجة إلى مُرافقٍ قوي، رشيق يمدّ لنا يد العون في الأماكن الخطرة.

وتوقف نظرها على تيــم أوكلّي، فسارع الصبيُّ إلى الموافقة حالاً، متأثراً بالثناء. وقد كان البحار ذو الرِّجْلِ الوحيدة خائفاً جداً، في حقيقة الأمر، من أن يدعَ الصبي يذهب وحيداً في هذه الرحلة البعيدة والخطيرة، إلا أنه لم يكن هناك من مَخرجٍ آخر. فلا هو نفسُه، ولا الحطاب الحديدي، ولا ديــن غيور كانوا يَصلحون لأن يكونــوا مرافقين لمعشر الفئران، لأنهم باتــوا قليلي الهمة جداً. كما لم يكن بإمــكان القبطان أن يوكل أمراً كهذا لفارامانــت أو الطبيــب، إذ كان الاثنــان قد خارت قواهمــا وتقدَّما في السن.

- حســنٌ، يا بني، - قرّر القبطان أخيراً وهــو يتنهّد بعمق، - امضِ، ولكنني أحلّفك بجميع صواري سفينتنا أن تكون حذِراً! انطلق، أيها الصديق، ولْتجرِ الرياحُ كما تشتهي سفنُك!..

وبينمــا كانوا منهمكين بتجهيز تيم، يحضّرون له المصافي من أوراق الرافالو، والنظارات الواقية لعينيــه، انهالت ملكة الفئران بالأسئلة على إينّي وتشارلي بليك عن صديقتها الطيبة إيللي، وعن نجاحاتها في الدراسة، وعن صحتها. كما أنها سألت عن حياة غودفِن الذي كان ساحراً في ماضي الأيام، وعمّا يفعله بعد أن أقلع عن حرفة السحر. ولمّا علمت الفأرة الملكة بأن غودفِن يعمل في دكان لبيع الخرداوات هزّت رأسها باستنكار.

وقف تيم عند العتبة وهو يحمل على ظهره حقيبة حقيبة مكتظة بالأشياء. فقد وضع في الحقيبة احتياطيَّه من المُؤن والثياب الداخلية. وكان الصبيُّ مُعلِّقاً على خصره فأساً صغيرة حادة، لها مقبضٌ متين.

- إنــك لن تذهب مشياً، يــا تيم، - قال الفزَّاعــة. - فالوقت ثمين، ويجب علينا أن نوفِّر كل ساعة. هاتِ يا فارامانت، وسلِّم تيم بُسَيِّط روجيرو السحري.

وبينمــا كان مدير التموين يسلِّم البساط ذا الرقــم التسلسلي إلى تيم، ظل وقتاً طويلاً يوصي الصبي ويعلِّمه كيف يمكن التعامل بمزيد من الاعتناء للحفاظ على هذا الشيء الثمين. ثمّ دوَّن في سجلاته: «تم تسليم البســاط لتيم أوكللي بغرض استعماله مؤقّتــاً. السبب: بأمر من الفزَّاعة الحكيم».

خرج تيم أوكللي من المقطورة، ثم فرش البُسَيط على الأرض وجلس عليه، فتدبّرت رامينا وباقي الفئران أمورهم في عبّه على نحوٍ مريح.

- احملني أيّها البُسَيــط إلى مدخل النفق الذي يبدأ من مكان قريب من مزرعة لين رواب، - أمرَه الصبي.

كانت ملكة الفئران هي من دلَّه على هذا العنوان.

فارتفع البساط وطار في الاتجاه المطلوب. وبعد أن شيَّعه فارامانت بنظراتــه، أعطى إشارة لكساري السنديان، فتحرَّكت المقطورة من مكانها ببطء.

كانــت فصيلة المقاتلين الشجعان متجهــةً في طريقها إلى الجنوب. إنهم سوف يسلكون الطريق المعبدة بالآجُرِّ الأصفر حتى يصلوا إلى النهر الكبــير، وبعد ذلك سيكــون عليهم أن يتركوا تلــك الطريق ويبحثوا عن مخبــأ أراخْنا في الجبال النائيــة، في مكان ما بين البلاد الزرقاء وأراضي ستيللا.

كان الجلوس مملاً في المقطورة الرجراجة التي يجرها كسارو السنديان ببطء، فتوجّهت إينّي بالكلام إلى خالها البحّار باستعطاف قائلة:

- إنني، يا خالي تشارلي، أتذكر دوماً تلك القصة العجيبة التي حكيتها لنا عن اللورد بومّتشيرلي، والبروفسور فوغيل.

أحسَّ تشارلي بأنّ ثمَّة خدعةٌ ما، فأجاب متذّمراً:

- وما معنى ذلك؟ لكِ أن تتذكري ما يحلو لك، من يمنعك؟
- أن تتذكر الماضي شيء جيد، ولكنَّ ما هو أفضل من التذكُّر أن تستمع إلى شيء جديد ، - قالت الطفلة وهي تبتسم بمَكر، وطلبت من خالها وهي تتودَّد إليه:
- احكِ لي شيئاً آخر، فأنت نفسك كنت تتباهى بأنك عشت كثيراً من المغامرات.

أخذ البحّار يستسلم:

- يا لك من مخادعة، متوددّة! فعن أي شيء أحكي لك؟
- احكِ لي كيف فقدتَ رِجْلك!- اقترحت إينّي، - لعلّ ذلك وقع في أثناء معركة مع القراصنة؟
- على هذا النحو تقريباً، - وافقها تشارلي بليك، - حسنٌ، فلتنصتوا!

وراح تشارلي بليك يسرد قصته الطويلة.

❖ ❖ ❖

حملة جيش الفئران العظيم

استغـــرق طيران البساط الطائر إلى النفق الذي تختبئ فيه الفئران ساعـــة واحدة. وكان تيم سيحتاج إلى يـــوم بأكمله لكي يقطع تلك المسافة سيراً على الأقدام. وعند هبوطه على اليابسة قال الصبي بإعجاب:

- يـــا له من شـــيء رائع، هذا البســـاط! ليت عنـــدي بساطاً مثله في كَنساســـ! - ثم حمل البســـاط تحت إبطه بعـــد أن لفّه على شكل أسطوانة.

كانت الفأرة الملكة تُطِـــلُّ من عُبّ تيم وترشده إلى الاتجاه الصحيح بصوت رقيق، وسرعـــان ما وجد الصبي نفسه أمام مدخل النفق. وهنا، أشعل المصباح الذي أعطاه له فارامانت تحسُّباً للظروف، ثم انطلق نزولاً على السفح الوعر.

- زِدْ حـــذرك في السير، أيّهـــا الصديق تيم، - نصحته رامينا، - وإلاّ سحقتَ رعاياي.

كانـــت النصيحة في مكانها. إذ رأى تيم بفضل نور المصباح جحافلَ لا تُحصـــى من الفئران التي ملأت النفـــق. كانت الفئران تتراكض في كل مـــكان، وتُطِلُّ من كل الشقوق، وتتدلّى عناقيدَ على الجدران وهي تتمسَّك بأظفارها بالنتوءات على الصخر. وكانت تزعق غاضبة وهي تتشاجر من أجل الأماكن. ولكن الفئران ما إن رأت الفأرةَ الملكة برفقة حاشيتها حتى هدأت بلمح البصر.

ألقت رامينا خطاباً أمـــام شعبها وهي تجلس على يد تيم الممدودة إلى الأمام وكأنها على منصةٍ. وبعد أن تحدَّثت باقتضاب عن وصول حملة الإنقاذ التي جاءت من وراء الجبال، ختمت الملكة خطابها قائلة:

- يجـــب علينا أن نساعد الناس في القضاء على أراخْنا الظالمة. فإنه لن يعـــود إلينا النور والدفء إلا بعد تحقيـــق ذلك. إن مهمتنا هي أن نجرِّد المشعوِذة من بساطها السحري، وإلا فإنها سوف تنجو من العقاب، وسوف يظل الضبـــاب الأصفر مخّيماً على البلاد كما هو الآن.

قال تيم مخاطباً رامينا:

- لقـــد خطرت على بالي فكرة جيدة، يا صاحبة الجلالة. فلنأخذْ من الفئـــران مقدارَ ما يستطيع البساط أن يحمل، ثم نطير باتجاه مقرّ أراخْنا، وعند ذلك تقوم فصيلتنا بإتلاف البساط الكبير بسرعة.
- إنـــك مخطئ، يا صديقي تيم، - اعترضت الملكة. - لا يكفي إتلاف البســـاط، لأن الأقزام سرعان مـــا سيجمعون الصوف السحري، ثم يعيدون حياكته ليصبح البساط قماشاً منسوجاً من جديد. ولكي لا يعود نسجه ممكناً لا بد لنا من أكله بالكامل، وسوف يتطلب القيام بهذه المهمة أن يشارك فيها جميع رعاياي.

حكَّ تيم قَذاله بعد سماع هذا التوضيح وقال:

- حســـنٌ، فلننطلـــق إذاً! ولكـــن ألا تخافين أن تَهلِـــك الفئران بسبب استنشاق كمية كبيرة من الضباب السامّ؟
- إنـــه لا يؤذي إلا بعد أن يمرَّ عليه أسبـــوع أو أسبوع ونصف، ونحن سنحـــاول أن نكون قـــد وصلنا إلى أراضـــي أراخْنا في غضون هذه المدّة.

لقد كان لدى رامينا جواب على كل سؤال، كما هو واضح.

كان تيم يخشى أن تفتقر الرحلة إلى أي نوع من النظام، ولكنْ تبيَّن أن جيشـــ الفئران كان حَسَنَ التنظيم للغايـــة. فقد كان مقسّماً إلى فرق، والفرق إلى ألوية، والألوية إلى كتائب، والكتائب إلى سرايا وفصائل. وكانت

كل وحـــدة من هـــذه الوحدات تحت قيادة ضابط مـــن الفئران ذي خبرة وأوسمة، برتبة ملازم، أو نقيب، أو عقيد، وتنفَّذ أوامره بحذافيرها ودون أي اعتراض.

وقد حددت قيادة أركان الجيش تسلسل حركة الفرق والألوية، وقام المراسلون العسكريون بتبليغ هذا التسلسل إلى الوحدات كافة.

كان تيـــم أول من خـــرج وهو يحمل في عبّه وجيوبـــه كلاً من الملكة وقـــادة أركان الجيشـــ، فيما كان يتبعه المعاونـــون والمراسلون العسكريون راكضـــين. كان الصبي يخشى ألا يستطيع إيجاد الطريق في الضباب، إلا أن رامينا طمأنته قائلة:

– إن الساحرة لا يمكن أن تَضِلَّ الطريق في حقول وطنها الأمّ وغاباته. وأنتَ ما إن تبدأ بالانحراف عن الاتجاه الصحيح حتى أشعر بذلك حالاً وأخبرك.

ظلَّ الجيش يتقدم في صفّوفٍ منظمة حتى حلول المساء، سَرِيَّةً خلف سَرِيَّـــة، ولواء خلف لواء. وكان تيم علـــى وشك السقوط من التعب عندما أعطت رامينا إشارة بالتوقف بعد أن رأت حقلاً من الحنطة.

وسرعان مـــا تراكضت الفئران منتشـــرة في الحقل، وراحت تقضم بأسنانها الحبـــوبَ الذابلة المجعَّدة. وتناول تيم عشاءه أيضاً، ونام متدّثراً بالبساط السحري.

في الصباح، ما إن أطلّت الشمس القانية عبر الضباب حتّى استؤنِف المســـير. وتبيّن أن اليوم الثاني في الطريـــق أصعب من اليوم الأوّل. وكثيراً مـــا كانوا يقعون في طريقهـــم على ينابيع سريعة وعريضـــة، فيتناول تيم الفأس ويقطع عـــدداً من الأشجار، ثم يمدّها من ضفة إلى ضفّة. فكانت الفئـــران تستخدم هذه الجسور في العبـــور متخطّية مجاري الماء بسرعة، لتعـــود وتنتظم من جديد في أرتال على الضفة الأخرى، لأن جيش رامينا كان يخضع لنظام صارم.

بدأ ثالث أيّام الحملة في أكثر الظروف المناخية سوءاً، فقد هبّت فيه عاصفة ثلجية. وانطلقت فوق السهل ريح باردة جعلت نُدَف الثلج البيضاء تتطاير في الهواء.

عاصفة ثلجية في البلاد العجيبة! من كان يستطيع قبل شهر من الآن أن يتخيل حصول ذلك في بلاد الصيف الأبدي؟ ومع ذلك، فقد عصفت الريح، ومضت تعبث بالأدغال، وتكسّر أغصان الأشجار، وتنقضُّ على فيالق الفئران.

كان يستحيل البقاء في مكان واحد لقضاء الليل، لأن ذلك سيُعَرِّض الفئران للتجّمد، ولهذا السبب أمرت رامينا بالانطلاق في المسير. فمضى المراسلون من الفئران، وهم يرفعون ذيولهم عالياً ويتعثّرون في الثلج، كي يُبّلِغوا الوحدات بذلك. فراحت الفصائل والسرايا تجتمع في صفوف وهي تقاوم الريح، وتسعى جاهدة كي لا تُخِلَّ بالنظام.

وكان قائد الجيش الرمادي العجيب، تيم أوكللي، يسير في المقدمة. لقد غطّى ظهره بالبساط السحري، وألصقَ ندفاً من الثلج على نظارته، وراح يمشي ويفكر:

«ليت أمي ترى كيف ألتزم بوعدي لها بأن أتجنَّب المخاطر في البلاد العجيبة...».

كانت رامينا لا تخطئ في الشعور بالاتجاه الصحيح في الطريق، فتعطي تعليماتها للصبي عند كل منعطف. ما أكثر ما كان هناك من الزعيق والفوضى، وما أكثر ما تمّ إنجازه من الأعمال البطولية في صفوف الحيوانات الصغيرة الرمادية التي لا عَدَّ لها ولا حصر! فمرَّةً عندما سقطت فأرة عجوز في هوَّة مخفيَّة تحت الثلج، خرجت جاراتها من الصف ومددن لها أرجلهن وذيولهن كي تتمسك بها لتستطيع الخلاص من الفخ. ومرَّة راحت فأرتان كبيرتان قويتان تحملان فأرة فتيَّة خائرة القوى وهما تجرّانها من إبطيها وتشجّعانها على الصبر والجَلَد.

علــى أن أكثر مــن عانى هم معاونــو القادة والمراسلــون. إذ كانوا لا ينفكّــون يتراكضون جيئة وذهاباً بين الصفــوف، فيجمعون المتخلّفين ويُرجِعونهــم إلى الصــف. ومــا كان في وسع المــرء إلاّ أن يحسدهم على شجاعتهم وتفانيهم.

و قــد أنقذت إحدى المراسلات كتيبةً كاملة كانت قد ضلت طريقها وسقطت في وادٍ شديد الانحدار. وبفضل إرشادات تلك المراسلة انضمَّت تلك الكتيبة إلى القوات الرئيسة من جديد.

ظــلَّ المعاون «الأُذُنُ المشرومة» يســير مسافة ميل كامل حاملاً على ظهره الفأرة «تشيرنوشكا» التي اصطدمت بغصن يابس، إلى أن لحق بتيم وسلّمه الفأرة الجريحة.

لم تكن تلك الفأرة هي الوحيدة التي دخلت تحت وصاية الصبي، بل كانــت جيوبه مليئة بفئران جريحة، ومنهَكــة القوى، ومتجمدة من البرد. فقد كانت الفئران تجلس في عُبِّه، وعلى كتفيه، وقبَّعته، أو تُطِلُّ برؤوسها من كُمَّيه...

استمرّ الصراع الضاري مــع الصقيع والعاصفة عدة ساعات تكبّد جيشــ رامينا خلالها عدداً من الضحايا غيرَ قليــل، وما من أحد يدري كيــف كان سينتهي ذلك الصراع كلُّه لــو لم تبدأ الريح بالخمود. لقد صار الجو أكثر دفئاً، وأَطَلَّت الشمس حمراء قانية.

أمــرت الملكة بالتوقــف من أجل تناول الطعــام وقضاء الليل. وقد تمَّ قبل ذلك سلفاً إجراء تفقُّدٍ للكتائب بالأسماء. ذلك أن خسائر الجيش بلغــت /٧٨٥/ مقاتلاً من الجنود والقادة بين متجمِّــدٍ ومفقود. صحيحٌ أن هــذا الرقم ليس كبيراً جــدّاً بالنسبة لجيش مكوّن من آلاف كثيرة من الجنود، إلا أن وقوع مثل هذه الكوارث إذا ما تكرَّر يجعل المرء يتوقَّف عند هذا الأمر رغماً عنه...

وفي اليوم الرابع من الحملة ازدادت الطريق سوءاً، إذ وصلت الفئران إلى منطقة جبلية يتعذَّر عليها السيرُ فيها بسرعة كما في السهل. وذلك في الوقت الذي كان ينبغي على الفئران أن تتعجّل، لأن مصير البلاد متوقِّفٌ على نجاح مشروعها.

كان لا بُدَّ من التوفيق بين سرعة حركة القلعة المقطورة وسرعة جيش الفئران. وإلا فإن المشعوذة ستفرُّ، إذا ما وصل تشارلي بليك إلى مغارة الساحرة الشريرة قبل الوقت المحدَّد. وعندئذ سيكون من الصعب جداً على العملاق تيللي فيللي والفئران أن يعثروا عليها.

اعترض طريقَ الفئران جبلٌ مرتفع ذو سفوحٍ شديدةِ الانحدار. وقد احتاج جيش الفئران الرمادية إلى مدة بضع ساعات كي يجتازه. فاغتنم تيم هذه الفرصة، وقررّ أن يطير إلى البحَّار ذي الرِّجْل الوحيدة، ويبلغه بالحال هناك. وقد اصطحب تيم ملكة الفئران معه.

أوصل البساطُ الطائر الصبيَّ بسرعة إلى المقطورة التي كانت قد خلَّفت وراءها النهر الكبير، ومضت أيضاً تتوغَّل في المنطقة الجنوبية. وكان تيللي فيللي يتّبعها بدِقَّة، إذ كان كسارو السنديان يقرنون مفتاح تشغيله مرتين يومياً.

فرِح إينِّي وتشارلي بليك والآخرون عند سماعهم من تيم ورامينا أن جيش الفئران مستمرٌّ في حملته، ولكنهم شعروا بالضيق عندما علموا بالخسائر التي تكبّدها الجيش في أثناء عاصفة الأمس. فقد امتدت العاصفة لتشمل أيضاً تلك المنقطة التي كانت المقطورة موجودة فيها، ولكنها بالطبع لم تُلحِق بحاميتها أيَّ نوع من الأذى.

وقد تبيّن، وَفقاً لحسابات الحطاب الحديدي وكاغي كار ورامينا، أن القلعة المتحرّكة سبقت الفئران، ويتوجَّب عليها أن تبطِئ السير مدّة يوم أو يومين لكي لا تجعل المشعوِذة تتنبَّه قبل الأوان. وبعد أن تزوّد تيم

بالمــؤن، وسنَّ فأسه، ووضع رامينا في جيبه انطلقا في الطريق عائدين إلى الجيش. وعندما وصلا إلى جيش الفئران، كانت آخر فصائل هذا الجيش تهبط سفح الجبل الذي كلَّفهم تسلُّقُه جهوداً كبيرة.

كان اليــوم التالي من المسير صعباً جداً. فقد كانت تعترض الطريقَ أحيانــاً شقوقٌ عميقة سفوحُهــا كالجدران. بعضُهــا تمكّنوا من تجاوزه بالالتفــاف عليه، وبعضُها الآخــر راح تيم يمدّ فوقه جسوراً يصنعها من أشجار يقطعها كانت تنمو على جانبٍ من الشق.

وإذا بشقٍّ كان يتعذَّر الالتفاف حوله، ولم يكن هناك من أشجار تنمو علــى جانب منــه. فماذا كان عليهم أن يفعلوا؟ هــل ينقلون الفئران على البساط الطائر؟ ولكن ذلــك يتطلب وقتاً طويلاً. وعندها اقترحت الملكة إنشــاء جسرٍ معلّق حيّ، مؤلَّفٍ من عدة مئــات من أكبر الفئران وأقواها. واقتضــى ذلك أن تتمسّك يــدا كلِّ فأر من تلك الفئران بذيل رفيقه حتى تَشَــكَّل حبــلٌ منها قام تيم بقذفــه فوق الهاويــة، إلى الطرف الآخر من الشق.

وعلى هذا الجسر الحيّ المتمايل انطلقتِ الفئران سَرِيَّةً خلف أخرى، وهي تزعق من الرعب وتحاول أن تتحاشى النظر إلى الأسفل. وقد مرّت الأمــور بسلام لم يعكّــرْه إلا ما أصاب الفأرة الجريحــة «تشيرنوشكا» من دَوارٍ كادت تسقط بسببه إلى القاع، لولا أن أمسكت بها رفيقتها في الوقت المناسب.

وعندمــا تمت عملية النقل، جمع تيم فئــران الجسر على البساط ونقلهــا إلى الطــرف الآخر أيضاً. كان ذلك آخِــرَ ما واجههم من عقبات وأكثرَه صعوبة. ثم كانت الأرضــ التي مرّوا فيها بعد ذلك أكثر انبساطاً. وأخيراً، إذا بفرحة لا توصف عمَّت صفوف الجيش كلِّه، بدءاً من الجنرال وحتّى الفأر البسيط. فبعــد أربعة أيام من السير السريع ظهرت لأعينهم

السماء الزرقاء، فعلموا أنهم وصلوا إلى حدود أراضي أراخْنا. وقد حصل ذلك في الوقت المناسب، لأن كثيراً من الفئران كان قد بدأ بالسعال، فيما شرعت تدمع عيون باقي الفئران.

تنهَّدت الفئران بحرّيَّة بعد أن خلَّفت وراءها منطقة الضباب الأصفر. إلا أنه كان يتوجَّب عليها أن تتوخّى الحذر الشديد هنا، لأن الأقزام يمكن أن يكونوا موجودين في تلك الأنحاء. وإذا ما علِموا بهجوم الفئران أخبروا المشعوِذة، وخسرت الفئران الحرب. ولحسن الحظ تبيّن أن التربة هنا كانت طرية، فأسرعت الفئران بحفر عدد كبير من الأوكار واختبأت فيها آمنة، بعيداً عن أنظار الغرباء. أما تيم فطار باتجاه المقطورة من أجل عقد اجتماع جديد مع تشارلي بليك.

❖ ❖ ❖

تيللي فيللي المخترع

بمحضـــ المصادفـــة البحتة لم يلتقِ جيش رامينـــا في طريقه أياً من الأقـــزام، ولهذا لم تدرِ أراخْنا باقتراب الفئران، وإلا لأرغمها ذلك على أن تتنبَّه للخطر.

ولكنَّ الجواسيس أخبروا المشعوذة بأن بيتاً غريبَ الشكل يقترب من أراضيها، وهو يسير على عجلات، ويجرُّه رجال خشبيّون، وأنه بيتٌ محصَّنٌ جيداً، لأنه يرافقه على الدوام عملاق حديدي له وجه شرس. وعند ذلك قررت أراخْنا أن تعرف مَن هم أعداؤها، وما مدى خطورتهم.

ألقـــت المشعوذة بجسمها الضخم على البساط الطائر وانطلقت في رحلتها مصطحبة معها روف بيلان. وقبل ميلٍ واحد من مكان الأشخاص الذين أخبرها عنهم الأقزام هبطت الساحرة، ثم اختبأت في الغابة وأرسلت بيلان للاستطلاع.

مضى نصفُ ساعة. ثم صدرت على مقربة من مخبأ أراخْنا خشخشةُ الأوراق اليابســـة تحت قدمَي روف بيلان وهو عائد، وما لبث أن ظهر هو نفســـه. كان هذا الرجـــل الصغير يمشي مترنحاً، ووجهـــه قد شحب من الرعب، وشفتاه ترتجفان متشنّجتين. وأخيراً عصر الكلام قائلاً:

- يـــا للشيء الذي رأيتُه، يا سيّدتـــي!.. يا للشيء الذي رأيته... - ثمَّ صمت.

- هيَا، فلتتكلَّم، أيّها الجبان! - صرخت الساحرة في وجهه.

- هناك عمـ... عملاق، - طفق الجاسوس يتكلَّم متلعثماً. - قا..قامته تفوق قامتك طولاً.. أمَّا وجهه... يا له من وجـ...وجه! لقد أختبأتُ جيداً بين الشجيرات، ولكنه عندما نظر نحـ.. نحوي، بدا... بدا لي

أن عَيْ ... عينيه المرعبتين قد اخترقتا جسمي من.. من طرف إلى طرف. ثم إنه يُ...ينادي شخصاً وحيد الرِّجل باسم با... با... بابا! لقد انـ .. انسللت عائداً من هُـ .. هناك بصعوبة بالغة.

- لا يمكــن الاعتماد على مغفــل كهذا، - قالت أراخْنــا باحتقار. - راح وعــاد دون أن يعرف شيئاً. وســوف أُضطر للذهاب إلى هناك بنفسي.

في البداية سارت المشعوذة منتصبة القامة بكامل طولها، ثم انحنت، وأخيراً أخذت تنسّل بين الأشجار زحفاً.

أخيراً ترامــى إلى سمَعها صوتُ ضجيج وتقصُّــف. فزادت أراخْنا اقترابها من مصدر الصوت، وإليكم ما رأته. كان تيللي فيللي يشقُّ الطريق للمقطورة عبر الغابة. كان يقف مستديــراً بظهره نحو الساحرة، منحنياً قليلاً، فيما كان سيفه الضخم يتطاير مثل قشة بين يديه القويتين. وتحت كل ضربــة كانت تسقط شجرة ثخينة فيسارع كسّارو السنديان النشيطون إلى جرِّهــا جانباً. لم تر أراخْنا وجه العملاق، غير أن قامته وقوَّته أوحَيتا إليه باحترام عظيم.

«كلا، - قالــت المشعوذة مخاطبة نفسهــا، - إنني لست قادرة على منازلة شــاب حديدي كهذا. ولكن لا بأس، فأنا عندي البساط السحري، ومــا على هــذا الساذَج إلا أن يــلا حقني في أرجاء البــلاد على قدميه الاثنتين».

ليتَ أن المشعوذة كانت تعلم أن جحافلَ الفئران التي لا تكِلُّ مندفعةٌ في السير نحو مغارتها مثل سيلٍ رهيب!..

رجعت أراخْنا إلى بيتها كئيبة، ساهمة. وفي أثناء العودة كانت ترسم في ذهنها خططاً تجعل العدوَّ يتأخَّر في الطريق أطول مدة ممكنة. فأمرت أراخْنا الأقزام بأن لا يتوقّفوا طول الوقت عن التجسس على الأعداء، وأن يُبلغوها كل مساء عن المكان الذي يكونون فيه.

استمـــرَّت المقطورة في التوقُّف الذي تم الاتفـــاق عليه بين تشارلي بليـــك و رامينـــا مدّة يومين. غير أنـــه منذ الليلـــة الأولى وقع في معسكر الفزَّاعة حادثٌ خطير كان له أثره على مسار الحملة كلّه.

كان ليستـــار نائماً في مقعـــده المريح عندما ترامـــى إلى سمْعه من الأعلى صوت الفارس الحديدي خافتاً:

- ليستار! رُدَّ عليّ، أيها السائق ليستار!

ما من جواب. فرفع العملاق صوته:

- اسمعني، يا ليستار، إنني أناديك!

- مممم... ما الـــذي حصل هناك؟- ردّ الميكانيكـــي بصوت ناعس، - من هذا؟

- هذا أنا، تيللي فيللي! لماذا كنتَ لا تجيب؟

- هـــل تعلم، يا صديقـــي، لقد كنت نائماً، بل ونومـــاً عميقاً، على ما يبدو.

- كنتَ نائماً؟ وما معنى النوم؟ - تساءل العملاق.

- النوم؟!.. إنه شيءٌ يصعب جداً شرحُه، - ارتبك ليستار. - الموضوع كالتالي. إذ يستلقي الإنسان، ثم تُغمِض عيناه، ويسيطر عليه نوع من الخَدَر، فلا يعود يُبصِر ولا يرى، ولا تعود إليه حواسُّه إلا بعد مرور عدة ساعات. وهذا يعني أنه يكون قد استيقظ.

لكـــن، اسمعْ، - قال العمـــلاق بقلق، - فإن ذلـــك خطير! إذ يمكن أن يتسلـــل العدو إلى النائم، فيستطيـــع أن يفعل به ما يشاء، حتى إنه قد يقتله!

- ولكـــن، ليس ذلك بمخيف إلى هذا الحـــد، - ابتسم ليستار. - لأن العدو إذا كان في مكان قريب، فإن الناس لا ينامون، أو إنهم يُسَخّرونَ حرّاساً. غـــير أن الإنسان لا يستطيع الاستغناء عن النوم، لأن النوم يعيد إليه القوة والحيوية.



- يـــا لكم من مخلوقاتٍ ناقصةٍ، يا معشرَ البشر، - قال تيللي فيللي.- فأنتـــم تهدرون كميةً كبيرة من الوقـــت بلا جدوى! أمّا أنا فتراودني أفـــكار شيّقة مختلفة، عندما يخيّـــم الهدوء في الليل على كل شيء. فقد اخترعتُ اليوم، مثلاً، مخططاً صغيراً، أعتقد أنه مفيد للغاية، أُقسِم بالصواري!

لم تذهبْ أيامُ الرحلة سدىً بالنسبة إلى الفارس الحديدي. لقد كان يتحدَّث على مدى ساعة كاملة مع ليستار عن أمور مختلفة، ولكنّ الحديث في أكـــثره كان يدور حول التقنية. لقد تعلم كثـــيراً، وازداد قاموس كلماته على نحوٍ ملحوظ. فسطع وجه ليستار بقوّةٍ، ووثب في مقعده.

- أيّ مخطط صغير؟! هيّا، تكلّم!

- لقد توصّلت إلى طريقة، - قال تيللي فيللي، - تمكنني من أن أشحن نفســي ذاتياً. لأن كسّــاري السنديان هــؤلاء، فليُغرقْهمُ الإعصار، يثيرون أعصابي أشدّ الإثارة بمجيئهم ورواحهم حولي وهم يحملون السلالم ويقرقعون بالمفاتيــح. إنني فكرت على النحو التالي: إذا ما تم تركيب عدة نوابضَـس وأذرعٍ أخرى لي، ونُظِّمتْ عملية شدٍّ ثنائي من الجانبين فإن...

وهنــا انطلق العملاق في شــرح تفاصيل تقنية مــن النوع الذي لن أفهمــه لا أنــا ولا أنتم على أية حال، فما مــن داع لنقل حديث العملاق. وسنكتفي بالقول إن زبدة اقتراحه تتلخص بما يلي:

عندمــا ترتفع إحدى يدَي العمــلاق أو تنخفض فإنها تقوم بشحن اليد الأخرى، وعلى هذا النحو نفســه فإن الرِّجْلَ اليسرى تشحن الرِّجْلَ اليمنى، واليمنى تشحن اليسرى.

كان ليستــار في غاية الابتهاج تمامــاً. حتى إنه فتح باب الكوّة على مصراعيــه وأطــلَّ إلى الخارج كي يتيســَّر له السمع بصــورة أفضل. ثم صرخ:

- اسمع، أيُّها الصبي، إنك ميكانيكي عبقري!
- أيُّ عبقري أنا، - اعترض تيللي فيللي بتواضع. - كلُّ ما في الأمر أن لــديَّ كثيراً من وقت الفراغ الذي تهدرونه، أنتم البشر، على تُرَّهاتٍ مختلفة من قبيل النوم والطعام.

لم يُطِــق ليستار صبراً، فركض إلى المقطــورة وأيقظ تشارلي بليك، وأخبره باختراع الفارس الحديدي. فسُرَّ البحّار أيضاً أشدَّ السرور.

وفي الصباح، ما إن بزغ الفجر حتّى بُدِئ بالعمل. فقد كان موجوداً في عــدة بليك كل ما هــو مطلوب من النوابضــ والأذرع. وسارت عملية إعــادة تجميع العملاق الآلي بهمّة ونشاط على قدم وساق، بل وكان تيللي

فيللـــي يعطي تعليمات نافعة جداً. وقد انتهى العمل في آخرِ اليوم الثاني، فقال ليستار للعملاق:

- لقـــد صار كل شـــيء جاهزاً، أيّهـــا العزيز تيللي فيللـــي! منذ الآنِ فصاعداً أنتَ لستَ بحاجة إلى خدماتي، وإنني أودّعك!
- ماذا يعني ذلك؟ - سأله العملاق متعجباً.
- هـــذا يعني أنني لـــن أعود إلى الجلوس في جوفـــك والإثقال عليك بشخصي التافه.
- عبثـــاً تفعل ذلك، - قال تيللي فيللـــي بحزن. - ليس وزنك بالنسبة إليّ أكثر من وزن ريشة، والسيرُ في الطرقات من دون سائقي، أو إن تجـــرأت على القول، من دون معلِّمـــي وصديقي، لن يكون إلا مملّاً جداً! إذ لن يكون هناك مَن أتبادل معه كلمة واحدة. وإني لأرجوك، أيها المبجّل ليستار، أن تعود إلى مكانك!

فمضى الميكانيكي يصعد إلى مقصورته مبتسماً.

منـــذ ذلك الحين أخذ التطور الذهني عند تيللي فيللي يسير بخطا سريعة، ولكنَّ معلمه ليستار كان يدفع ثمناً باهظاً مقابل ذلك. ففي النهار كان العمـــلاق يسير وراء المقطـــورة، أمّا في الليل فـــكان لديه متسع كبير مـــن الوقت للتفكير، ولذلك لم يكن يـــترك للميكانيكي فرصة يلتقط فيها أنفاســـه. كانت أسئلته تتوالى واحداً تلو الآخر، كأسئلة طفلٍ له من العمر ثلاثُ سنوات، ولم يكن هناك من نهاية لتلك الأسئلة.

- ما هي الشمس، ولماذا تدور في السماء؟
- من أين تأتي الأنهار؟
- لماذا الليل مظلم؟
- لماذا تهب الريح؟
- لماذا ليس لأبي إلا رجل واحدة؟

- كيف يعيش الناس وراء الجبال؟ - وهكذا دواليك، وهلمّ جرّاً.

كان ليستار الطيب يبــذل قُصارى جهده وهو يحاول بقدْر ما لديه من معلومات أن يشرح لتيللي فيللي التوّاقِ للمعرفة، ثمّ ينتهي به الأمر إلى أن يغفو وهو ينطق الكلمة...

ومنــذ ذلك الحين لم يعُدْ يتسنَّى لليستار أن ينالَ القسط الكافي من النــوم إلا في ما ندر من الليالي، فــكان يحاول تعويض الساعات المهدورة ليــلاً في أثناء النهار، عندمــا كان العملاق يدعه وشأنه. حقاً، لقد أُلقيَت مَهمَّة شاقة على عاتق هذا الميكانيكي الصغير من بلاد الغمازين، وهي أن يكون معلم تيللي فيللي الفتيِّ.

❖ ❖ ❖

مكائد المشعوِذة أراخْنا

فلنعُــدِ الآن إلى ذلك المكان الذي كانــت قد تمّت فيه إعادة تجهيز الفارس الحديــدي. فقد انطلقت فصيلة الفزّاعة وتشارلي بليك القتالية في طريقهــا بعد أن ضاعفت قوتها وقدرتها القتالية مضاعفة هائلة. أمّا الآن، وقــد اقتربت المقطورة من أراضــي أراخْنا، فقد كان لا بد من قدْر كبير من الحذر. ولم يكن باستطاعة تشارلي بليك أن يقوم بعملية استطلاع بواسطــة البساط، غير أنه كان يوجد في الفصيلة مقاتل حنّكتْه التجارب هــو كاغي كار. لقد طار هذا الغراب فسبقهم مسافة عدة أميال، وراقب الطريق، ولم يترك مكاناً إلا واستكشفه، ثم عاد بمعلومات قيّمة.

إذا ما صودف في الطريق وادٍ لا بُدَّ من مدِّ جسر فوقه، كان الفارس الحديدي هو من يتولّى القيام بتلك المهمة. فكان يقطع الأشجار الضخمة ويضعها في الأماكن التي يشير إليها ليستار.

وسرعــان ما تيقَّن أبطالنا من أن أراخْنا على علم باقترابهم. فبينما كانت المقطــورة تسير على مرج في الغابة، إذا بكسّــاري السنديان، فجأة وفي أضيق مــكان من المرج، يسقطون عميقاً في الأرض، وبعَجَلتَي المَرْكبة الأماميتين تهويان إلى تحت، وبإطار عجَلة مكسور يطقطق. وتطاير الركاب يتدحرجــون على الأرض المائلــة، فراحت أجسامهــم تضرب الجدران، ويصطدم بعضها ببعض.

وسُمِعت أنّاتُ مَن أصيبوا بــأذى، وزعيقٌ يائسٌ كان يطلقه أرتوشكا الذي وقع الحطاب الحديدي فوقه.

– لقد وقعنا في الفخ! – صاح تشارلي بليك. – وما من شك في أن هذا الفعل من صنع يدي أراخْنا.

وبينمـــا كان الناس يحاولون النهوضـــ، وصل تيللي فيللي إلى مكان الحادث، فأخرج المقطورة من الفخ، ووضعها على أرض مستوية. ثم سأل في الحال بصوتٍ مضطرب:

- بابا تشارلي! هل أنت سليم، ألم ينكسر فيك شيء؟
- كلا، كلا، يــا ولدي العزيز، - ردَّ عليه البحــار ذو الرجل الوحيدة ممتنّاً. - لم أُصَب إلا بكَدَمَة انتفخت في رأسي.
- وما معنى كَدَمة؟

كان لا بدَّ من توضيح ذلك للعملاق المغرم بحب المعرفة. وبعد ذلك فقط شرع تشارلي والميكانيكــي ليستار بصنع إطار عجلة جديد وإصلاح العجلــة المكســورة. وفي هذه الأثناء مضى بوريل يعالــج الأيدي والأرجل المخلوعة، ويدهن الجروح بمرهم طبّي.

لم ينته إصــلاح المقطورة إلاّ مع قدوم المســاء، فاتُّخِذ قرارٌ بالبقاء وقضاء الليل في هذا المكان.

قال بليك:

- أجل، لقد كانت خسائرنا بسيطة، وكان يمكن أن يقع ما هو أسوأ من ذلك بكثير. يجب علينا أن نتوخّى الحذر من هذه المشعوذة.
- ينبغي علينا ألا نقع في الحُفَر، - أعلن الفزّاعة متبجّحاً، - فالحفرة شيء سيء، والمكان المنبسط جيد جداً. وإذا ما ظللنا نسير في أرض منبسطة فإننا لن نقع في حفرةٍ قطُّ.

وافق الجميع على أن الفزّاعة على حق، إلا أن نصيحته، ويا للأسف، لم تمكّنِّ من القدرة على كشف الأفخاخ المموَّهة.

وفي اليوم التالي توقفت الفصيلة لقضاء الليل في وادٍ، على ضفة نهر عميق. فنام الجميع: تشارلي بليك، وإينّي، ودين غيور، وفارامانت، وبوريل وتيم الذي بقيَ ليُمضي الليل في المقطورة، وقد أنهكهم اهتزاز العربة في أثناء الطريــق. ولم يبق يقظاً إلا الفزّاعة والحطــاب الحديدي اللذان لا

يعرفان معنى النوم، فظلا يتحدثان، وكان موضوع حديثهما واحداً لم يتغير على امتداد سنوات كثيرة، وهو: أيُّهما أفضل، المخ أم القلب؟

وبينمـا كان الصديقان يتجادلان بحـرارة إذا بهما يسمعان صوت ارتطام قويّ في مكان بعيد، واهتزَّت الأرض حالاً.

- لقـدٌ وقع انهيارٌ في مكان ما، - قال الحطاب واستمرَّ يثبت أن مَن لديه قلبٌ محبٌّ لا حاجةَ به إلى مخ.

مضى من الزمن حـوالي ساعة. كان تشارلي بليك يحلم بأنه مبحر على مـتن سفينة يترقرق المـاء حولها من كل جانب. ولمّـا استيقظ هذا البحّـار تعجَّب وهو يسمع صوت الماء يترقرق حقـاً ويخفق تحت أرضية المقطـورة. ففتح الباب وألقى نظرة، وإذا به يـرى - على قدْر ما تسمح الرؤية في الماء والضباب - أن الماء غامرٌ كلَّ شيء حوله.

- استنفار!- صاح تشارلي. - إنه الفيضان!

فوثب دين غيور وفارامانت وبوريل وتيم وإينّي من أماكنهم.

- طبعـاً، إن ليستـار نائم في مقصورته، ولـن يخطر على بال تيللي فيللـي أن يأتي لمساعدتنـا، - أفصح دين غيور عن توقعه، - إنه لا يدرك خطورة الوضع الذي نحن فيه. سوف أجري إليه!

وبعد أن ألقى على كتفـه بلحيته الفاخرة التي كانت إينّي، لمحاسن الصدف، قد ضفرتها ليلةَ أمس في جديلة مؤلفة من ثلاث خصلات، خرج ديـن غيور من المقطورة. وقد اضطر وهو في الطريق إلى تيللي فيللي إلى أن يخوضـ في الماء الذي يغمره حتى صدره، إلا أن هذا الجندي الطويل اللحية تمكن من الوصول إلى عند ساقَي العملاق وراح يدقُّهما بقبضته.

- ما الذي حصل؟ - صاح ليستار بعد أنْ استيقظ، وكان قد غفا لتوّه بعد حديث مع ربيبه.

- انظر إلى الخارج تعرفْ! - أجاب دين غيور.

وفي هذه الأثناء أدرك تيللي فيللي أنّ ثمّة شيء غيرُ طبيعي يحدُث، فالتقط دين غيور بعناية وأجلسه على كتفه.

أغلــق تشارلي بليك باب المقطورة خلف دين غيور، وأنّحى باللائمة على الفزّاعة والحطاب الحديــدي ولان بيروت الذي جاء يحمل تقريراً، علــى أنهم لم يعلنــوا إشارة الخطــر في الوقت المناسب. فأخــذ الفزّاعة والحطاب يتذّرعــان بأنهما كائنان برّيّان ويجهــلان صوت رقرقة المياه، أما الجــنرال السابق فقد قال لهم بأن فيضان النهر وقع فجأة، ولم يتسنَّ لجنوده أن يعوا ما حدث حتى وجدوا أنفسهم وسط الماء.

علــى أية حــال، لم يكن هناك من داع للبحث عــن مقصّرين، مادام الجميع قد فهموا سبب ما وقع. فالارتطام الذي سمعه الحطاب والفزّاعة كان صــوت انهيار دبّرته المشعوذة كي تجعــل النهر يفيض. وقد راح الماء يرتفع شيئاً فشيئاً حتى طَفَتِ المقطورة ومضت تتأرجح على الأمواج. غير أنه لم يكن فيها شق واحد، وهذا ما حال دون تسرّب المياه إلى داخلها.

- لقــد تحوّلت قلعتنــا إلى سفينة قبطانُها تشــارلي بليك، فليحيَ! - صاح تيم بابتهاج. - فلتُصدرِ الأوامر، أيها القبطان، ليقوم المساعد البحَّار تيم أوكللي بواجبه!

إلا أن الوقت عنــد تشارلي بليك لم يكن وقت مرح. لقد كان الوضع يتحول إلى خطير. وكان ممكنــاً أن يجرف الماءُ المقطورةَ إلى أماكنَ وعِرة يصبــح انتشالها منها مستحيلاً. ولم يكــن في مقدور كسّاري السنديان أن يتحكّمــوا بالمقطورة، لأنهــم مصنوعون من خشب، فكانــوا هم أنفسهم يسبحون مع المقطورة.

ولحســن الحظ، فقد وصل تيللي فيللي في الوقت المناسب. فاقترب من القلعة الطافية، واطمأن قبل كل شيء على صحة بابا تشارلي وحالته المعنويــة. وبعد ذلــك فقط قبض بيده العملاقة علــى حلقة جرِّ العربة، فتوقفت الحركة حالاً.



كان ظلام الليل دامســاً مما جعلهم مضطرين لانتظار الصباح من أجل اتخاذ قرار. وبصعوبة صبرت حامية القلعة إلى أن بزغ الفجر ضعيفاً شاحبــاً. وعندها قرّر تشارلي الانتقال إلى مكان جافٍّ، لأن تحطيم السد الذي شيّدته أراخْنا كان يعني هدْر كثيرٍ من الوقت الثّمين.

وانطلق الغراب في رحلة استطلاعية. ثم عاد بعد نصف ساعة بنبأ يقول إنه عثر على ضفة مستوية يمكن إخراج المقطورة إليها بسهولة.

كان القبطان قد أحضر معه من المدينة كمية احتياطية من الحبال، فألقــى بأطرافهــا إلى كسّــاري السندیان الذین قامــوا بربطها بحلقات جــرِّ المقطورة وبعجلاتها. ومضى تيللــي فيللي يشقُّ عُباب الماء وهو يجرُّ المقطورة خلفه. وطار الغراب أمام العملاق يرشده إلى الاتجاه الصحيح.

- اليابسة، اليابسة!- هتف ركاب المقطورة، مثلما هتف بحارة كولومبوس ذات يوم.

خـــرج حطابو السنديان بقيادة لان بيروت مـــن الماء مبللّين، يثيرون الشفقـــة، وقد تقشّر طلاؤهم، إلا أنهم ظلّـــوا محتفظين بقوتهم، على كل حال. وبعد أن أُعيدت الأمور كلها إلى نصابها، انطلقت الفصيلة الصغيرة إلى الأمام سالكة الطريق الذي استطلعه الغراب.

- أجـــل، إن هذه المشعوِذة خصم خطير، فهي شديدة الدهاء وسريعة البديهـــة، - قال البحـــار بقلق،- فما هي المفاجـــآت الأخرى التي ستُعدُّها لنا، يا تُرى؟

ولم يَطُـــلِ انتظارهم مفاجأة جديدة. ففـــي مساء اليوم التالي، بينما كانـــت القافلة تمر عبر فَجّ صخري، اهتزَّت الأرض فجأة، وتدحرجت من سفوح الفَجّ صخور كبيرة. كانت القِطع الصخرية تهدر وتتقافز متحطّمة على السفح، فتتناثر شظاياها وتطير بسرعة قذائف المدافع.

حجب تيللي فيللـــي المقطورة بجسده الهائل بمهـــارة تثير العجب، ودفع بدرعه العملاقة أمامه ليصدَّ بها ضربات الأحجار المتدحرجة.

استمرت هذه العملية من القصف عدة دقائقَ تمكّن خلالها الفارس الحديدي اليافع من صدِّ عشرات القذائف التي كانت قادرة على تحطيم المقطـــورة وجعلِهـــا نثرات من الخشب، والقضاء علـــى من في داخلها من النـــاس. كانت الأحجار تصطدم بالدرع فتُصدِر قرقعة مرعبةً تُصمُّ آذان المقاتلين المختبئين في القلعة المتحركة.

وأخـــيراً، هدأ القصف. وبفضل سرعـــة بديهة تيللي فيللي ومهارته انقضـــى الأمر دون وقوع خسائر فادحة. فقـــد تحطمت بالكامل واحدة مـــن عجلات المقطورة، وبُتِرت ذراع حطـــاب السنديان آلغين، فيما تشكَّل علـــى الدرع عدد من التقعّـــرات الكبيرة. وبعد تبديـــل العجلة (فقد كان تشارلي يحتفظ بعجلاتٍ احتياطية) وتركيب ذراعٍ لآلغين، أسرعت الحملة

بالرحيل عن هذا المكان الخطير. وحين تخلَّصت المقطورة من ذلك الفَجّ، لمح المسافـرون مرور أراخْنا فوقهم وهي تطـير في الضباب، وتتدثر من البرد بوشاحها الأزرق.

- يبدو أن رامينـا لم تنفذ مهمتها العسكرية، - قال الفزَّاعة، - إذ ما دامت المشعوذة تطير على بساطها، فهذا يعني أن الفئران لم تأكله.

- ليس ذلك بالأمر السهل. - تنهد تشارلي بليـك، - آملُ ألا يكونوا ساهين، إنما ينتظرون الساعة المناسبة.

وفي أول استراحة خطرت في بال الفزَّاعة فكرة تقضي بتقليد تيللي فيللـي وساماً على ما أبداه من شجاعة فائقـة عندما هاجمتهم أراخْنا. فقد كان الحكيم المصنوع من القش يُبقي دوماً في حوزته عدداً احتياطياً من الأوسمـة التي تظل محفوظة عند مدير التموين فارامانت. غير أن المسألـة تطلَّبت وقتاً طويلاً من الشرح لإفهـام العملاق اليافع ماذا يعني الوسام، ولماذا يُعطى. وحين فهم العملاق ذلك أخيراً، سأل:

- وهـل تقلَّد بابا تشارلي وساماً؟ فبنـاءً على ما رواه لي ليستار من قصص عن بطولاته، يجب أن يكون لديه كومة كاملة من الأوسمة، أقسم بعواصف خطوط العرض الجنوبية!

وهنـا لطم الفزَّاعة نفسه على رأسه بقنوط. ولو كان بمقدور حاكم بلاد الزمرد أن يحمرَّ خجلاً، لكان تضرّج حُمْرةً بالتأكيد وهو يسمع هذا السؤال البسيط.

- يالي من جاهل، أحمق!- صـاح الفزَّاعة وهو يُخرِج الدُّبّابيس التي بـرزت من رأسه وانغرست في يده المصنوعة من القش. - فيمَ كنت أفكر سابقاً؟! لقد قام العمـلاق القادم من وراء الجبال في سفرته الأولى بتحريـر مدينة الزمرد من سلطـة أورْفِن جوس، وبتحريري أنـا والحطاب الحديـدي من الأسر... ولكـن، في الحقيقة، لم يكن

الحِرَفيون المَهَــرة عندي يصنعون الأوسمة بعدُ في ذلك الحين. أمّا الآن، فأين كان مخّي، يا تُرى؟ أين كان الآن، عندما جاء العملاق من وراء الجبــال يُسرع مرة ثانية ليمدَّ لنا يد المساعدة، ويُعرِّض حياته الثمينة للخطــر بمشاركتنا في القتال ضد هــذا العدوّ الرهيب؟.. وأنــا، أنا الشقيَّ، الساذج، الأحمــق، لم أفطن ولم يخطر في بالي ولو مرة واحدة أن أكافئ هذا الرجل المتفاني على ما أسداه من خِدْمات بمنحه وسامَ النجمة المرصّعــة بالزمرد؟! فلْتغفرْ لي، أيها الصديق الغالي، هفوتي، ولتتقبّل مني هذه المكافآت...

وعلى الرغم ممّا أبداه تشارلي بليك من رفض (كان رفضاً ضعيفاً، علــى كلِّ حال)، ثبّت الحاكم على صدر سترة البحّــار ثلاثة أوسمة دُفْعةً واحــدة، وكانت هذه الأوسمة مصنوعة من الذهب ومرصّعة بالزمرُّد. ثمَّ بعد ذلك فقط تم تثبيت وسام على صدر تيللي فيللي الحديدي.

فتنهّد العملاق قائلاً:

– وا أسفاه، فليس هناك مرآة. لقد كان بودِّي أن أنظر لأرى كيف يبدو على صدري هذا الشيء...

كانــت العقبة التالية التي اعترضت طريقهم تتمثَّل في رُكام صخري مرتفــع. لقد بذلت أراخْنــا جهوداً ليست قليلة في سبيــل إقامةً كلِّ هذا الجبل من القطع الصخرية الهائلة الحجم. إلا أن ما بذلته من جهود كان عبثاً. فبعد عملٍ دام حوالي ثلاث ساعات تمكّن العملاق تيللي فيللي من تنظيف الطريق. وما إن خلّفت المقطورة هذه الجبال وراءها حتّى وصلت إلى أرضٍ سهلية، فتوقفت الفصيلة بانتظار استلام الأخبار من رامينا.

❖ ❖ ❖

نهاية البساط السحري

كان جيش الفئران يعيش منذ عدة أيام في جحور بالقرب من حدود أراضي أراخْنا. وكانت الفئران في النهار تتفنن بالاختباء بعيداً عن عيون الغربــاء، أمّا في الليل فكانت تذهــب في صفوف منتظمة لتحصيل قُوْتها فيما للمشعوذة من حقولٍ لم يقترب منها الضباب السام.

كان الحرّاس الموزّعون في أماكن مستورة، يرون كيف تطير الساحرة كلَّ يــوم على مــتن بساطها إلى مكان مــا، ولا تعود إلا بعــد مُضيّ عدة ســاعــات. وبعد أن قامــت رامينا بزيارتين إلى العمــلاق القادم من وراء الجبــال كانت تعــرف أن المشعوذة تقوم بأعمال عسكريــة ضد أعدائها، ولكــن دون أن تُحرز أيَّ نجاح يُذكــر. وكان جنود الاستطلاع من الفئران يتسللون في الليالي عبر دروب سرية إلى مقرِّ أراخْنا، ثم يعودون بخبر يقول إن البساط مخبّأ في المغارة، وما من سبيل للوصول إليه.

وإذا بالبساط وقد تبلَّل بشدَّة في أثناء الطيران في أحد الأيام الماطرة. فنُشر ليجفَّ في الباحة أمام المغارة، وظلَّ هناك الليل بطوله أيضاً. وبهذا النبأ السارِّ جاء فريق فئران الاستطلاع إلى رامينا.

فانطلق المراسلون في الحال مسرعين إلى الحقول التي كانت الفئران تحصِّــل فيها طعامها بعــد قضاء نهار من الجوع، ونشــروا هناك الأمر التالي:

- يجب على جميع الوحدات أن تنتظم في صفوف، وترابطَ في الأماكن المحدَّدة لها في الخطة.

وهكــذا لم يمضِ نصــفُ ساعة حتّى كانت الفِــرق والأفواج جاهزة للبدء بالهجوم. واختلط لون فراء الفئران الرمادية بلون الأرض في ظلام الليل.

راحت الفئران تدنو من البســـاط متسلّلة أفواجاً أفواجاً من جميع الجهـــات، دون أن يَصدر عنهـــا صوت. فلم يكن مسموعـــاً إلا خشخشة الأقدام الصغـــيرة، وأصداء الأوامر بصوتٍ خافتٍ بين فينةٍ وأخرى. وقد كان القزمان العجوزان اللذان يحرسان البساط يغطّان في نومٍ عميق، كما كانت أراخْنا نائمة أيضاً بعد أن أنهكتها الأعمال خلال النهار.

تراكضت عشرات الآلاف من الفئران منتشرةً على البساط السحري، وانغـــرزت بنسيجه مئات آلاف من أسنانها البِيض الحادّة. وإذا بالصوف يتقطّع، وتبدأ أولى الثقوب بالظهور في البساط هنا وهناك.

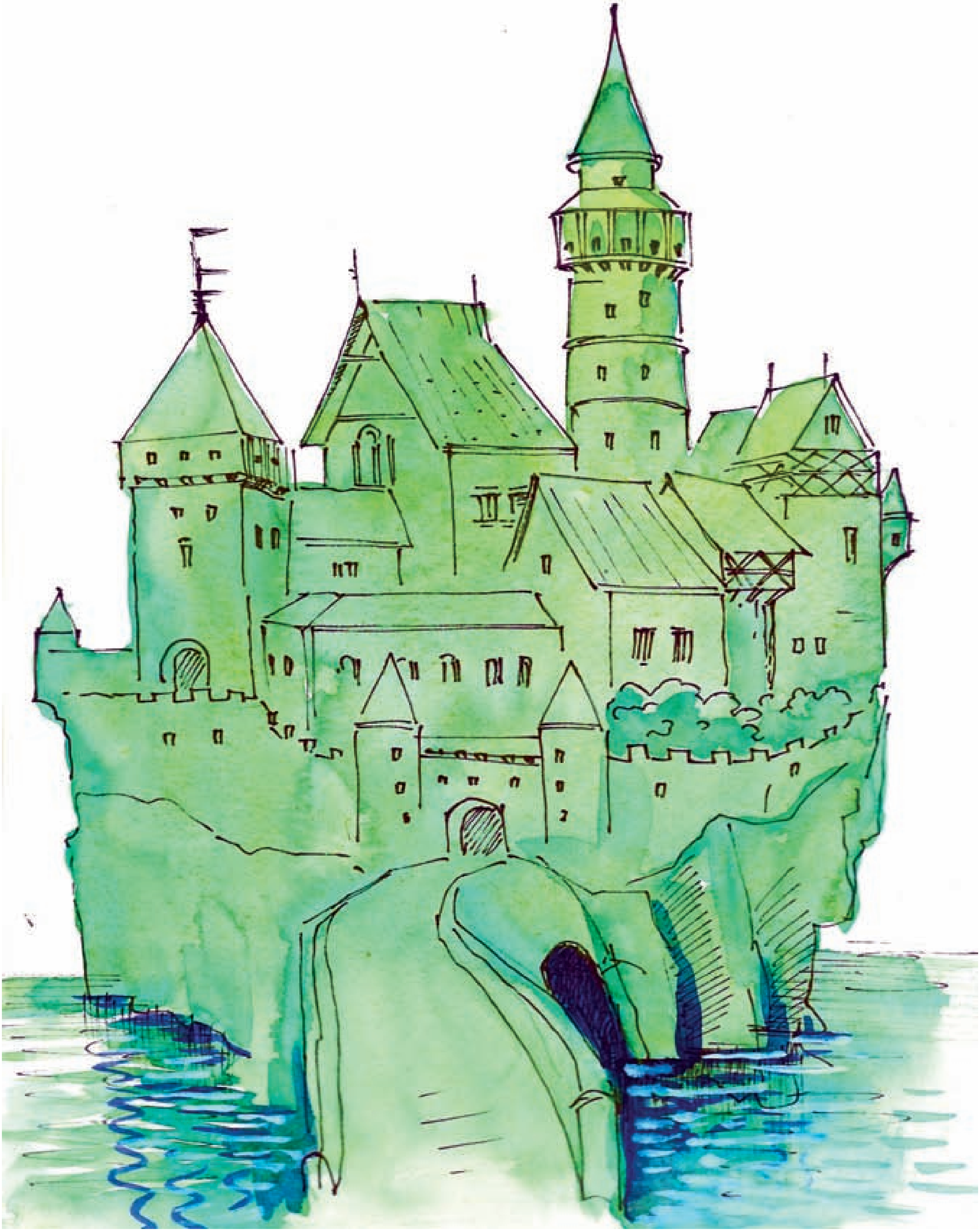
فقد أعطت الملكة أفرادَ رعيّتها أمراً صارماً:

« يجـــب عليكم أن تعملوا بتفانٍ ونُكرانٍ للذات، وألا تكتفوا بتفكيك البساط إلى خيوط متفرِّقة من الصوف، بل ويجب عليكم أيضاً أن تبتلعوا هـــذه الخيوط الصوفية، وإن كان ذلك مقرفاً. كما يجب عليكم أن تكونوا قد فرغتم من هذا العمل مع حلول الصباح، فلا يبقى من البساط أيُّ أثر على المكان الذي كان مفروشاً فيه».

وقد بذلت الفئران قُصارى جهدها. فكان رؤساء الفصائل حريصين أشـــدَّ الحِرص علـــى ألا يبقى في الباحة ولو خيـــط واحد من الصوف. وعندمـــا تعجز فأرة عن ابتلاع أيٍّ من الخيوط الطويلة، كانت واحدة من صديقاتها تقضم ما يزيد منه.

كان القزمـــان الحارسان يشخران بســـلام، فيما كان البساط يزداد شَبَهـــاً بالغربال أكثر فأكـــثر. وأخيراً شرعت الفئـــران تبتعد عن البساط وهـــي تطبطب على بطونها المتخمـــة، عندما لم يكن باقياً من الصوف إلا القليل.

كانـــت رامينا الحكيمـــة قد توقعت ذلك أيضـــاً. فانطلق معاونوها يتقافزون مبتعدين عن الباحة، وسرعان ما انقضّت فرق جديدة من قوات الاحتيـــاط على ما تبقى من البساط بعزم جديـــد. كان من المضحك أن



يــرى المرء كيف أمسكت فأرتان بخيط طويل، فشدَّته كل واحدة منهما في اتجاههــا إلى أن انقطع الخيط، ووقع كل من الرفيقتين الخصمتين على ظهرها ومضت ترفرف بأرجلها في الهواء.

أُنجِــز أمرُ رامينــا بدقة عسكرية: فقد اختفــى البساط مع حلول الصباح، غير أن أفراد الجيش الرمادي لم يكن بمقدورهم أن يتحركوا من مكانهم، لشدّة ما أثقل الفئرانَ ما أكلته من الصوفُ.

استيقظت أراخْنا في هذا الصباح في وقتٍ أبكرَ من المعتاد، فشعرت وكأنّ شيئاً وخزها في خاصرتها، وأجبرها على الخروج من المغارة. وعندما نظــرت إلى المكان الــذي كان البساط مفروشاً فيه منــذ المساء، صُعقت المشعــوِذة، لأنها بدلاً من ألــوان البساط الزاهية لم تــرَ إلا شيئاً رمادياً يتماوج غير واضح المعالم.

وعبثاً راحت الساحرة تبحث بعينيها عن الحارسَين. إذ كان القزمان قد اكتشفا اختفاء البساط قبلها بوقت طويل، فلاذا يختبآن في مكانٍ خفيّ عــن الأنظار، لأنهما يعرفان أن عقابــاً رهيباً سيحلُّ بهما جزاء تهاونهما في الحراسة. وحين قامت أراخْنا بعدة خطوات إلى الأمام، تَمَلْمَلَ الغطاء الرمادي وطفق يغيّر شكله.

- آه، إنها الفئران! - تأوَّهت المشعوِذة. - إن بساطي أكلتْه الفئران!

كان أبســط ما يمكن أن تقــوم به هو أن تنقضّ علــى هذه الكتلة الحية فتسحقها بقدميها. ولكن أراخْنا كانت، مثلَ كثير من النساء، تخاف الفئــران. ويجب على القارئ ألاّ يستغــرب ذلك، فليتذكَّر كيف أن الفِيَلَةَ، وهي عمالقةُ عالم الحيوان، تخاف من الفئران.

«ستساعدني القطط»، - فكّرت أراخْنا.

وانطلقــت المشعــوِذةُ تجــري إلى المغارة، وهنــاك أخرجت دفترها السحري وأسرعت تتمتم بالتعويذة التي تستدعي القطط. وكان قد اجتمع في ذلــك الوقت عدد كبير من القطــط البرية في بلاد أراخْنا. لقد جاءت

تلك القطط من المناطق المجاورة لأراضي أراخْنا طلباً للنجاة من الضباب الأصفر.

فأسـرع بالتوافد مـن كلّ حدب وصوب مئاتٌ مـن القطط ، تلبيةً لنداء المشعوِذة. وقد كانت قططاً مختلفةَ الألوان، بينها الأمغر، والمخطَّط، والأسـود، والمعضوض، والمصاب بخدوشٍ مـن جرَّاء القتال مع خصومه، جـاءت تلك القطط تجـري رافعة ذيولها في الهـواء، وهي تموء بصوت عال.

وهنا وقع ما تتحدَّث عنه مدوَّنةُ الأقزام بإعجاب واستغراب.

كانـت الفئران تتمنّى من صميم قلوبها أن تجد نفسها في منأى عن القطـط. ولمّا كانت القطـط تتقاطر مقتربة من جميـع الجهات، لم يكن هنـاك من طريق أمام الفئران للنجاة إلا في السماء. كانت بطون الفئران محشوَّة بالصوف، ولكنَّ الصوف السحريَّ لم يفقد قوَّته الرافعة حتّى وهو في بطـون الفئران. وهل من حاجة لكثير من هـذه القوة كي يرتفع الفأر محلِّقاً في الهواء؟

وتلبيـةً لأمر الرغبة الكامنة عند الفئـران، لبّى الصوف السحري نداء سادتِه الجُدُدِ فقام بواجبه. وهكذا انطلق سرب الفئران الهائل محلِّقاً في الهـواء وعلى رأسه ملكته. ولمّا لم تقع القطط الشرسة إلا على فراغ في المـكان الذي كانـت تنتظر أن تجد فيه فريسة لذيـذة، نشبت فيما بينها معركة طاحنة.

أمـا الفئران فراحت تتحكّم بحركة ذيولها وكأنها دُفَّةُ قيادة، وباتت الآن تعطـي أوامرَها عن وعي لخيوط الصوف السحرية، وتبتعد مسرعة عـن مغارة أراخْنا. وكانت الفئران تصوصـئ مرحة في طيرانها، وتتبادل الانطباعات بخصوص مزايا هذه الوسيلة الجديدة من وسائل التنقل.

ولكـن هل طال الزمن الذي ظلت فيه الفئران قادرة على الطيران؟ كلا، ويـا للأسف. فقد عادت الفئـران سيرتها الأولى شيئاً فشيئاً لتصبح

مــن جديدٍ مخلوقات أرضية عادية، كُتِبَ عليها أن تتنقل على أربع أرجل. إلا أن الصــوف السحــري تناثر في أرجاء البلاد العجيبــة كلِّها، ولم يكن جمعُه ممكناً حتى للأقزام المحبِّين للعمل.

وهكــذا خسرت المشعوِذة أراخْنا بساطهــا الطائر. ففهمت بوضوح كامل أن المعركة مع العملاق الحديدي الذي يرافق المقطورة، آتيةٌ لا ريبَ فيهــا. ولكنّ، لئن كانت تستطيع التملُّصَ من تيللي فيللي في الجوِّ، عندما كانــت تملك البساط الطائر، فإنها باتــت الآن محكومة مثلَه بالبقاء على الأرض. ومن جديد، وكما حدث مراتٍ عديدةً، جالت في خاطرها النبوءة الشنيعة التي نطق بها أورْفِن جوس...

جمعت أراخْنا حوالي عشرين قزماً من أولئك الأقزام الذين لم يتسنّ لهم الفرارُ بعدُ، وأرسلتهم في مهمة استطلاعية. كانوا مكلَّفين بأن يتبيَّنوا جيِّــداً المكان الذي توجد فيه القلعة التي تتحرك على عجلات، وهل هي تسير في الطريق الصحيح الذي يؤدِّي إلى المغارة. أمّا أراخْنا فشرعت تهيِّئ لنفسها سلاحاً هو هراوة عملاقة من خشب حديدي مشهور بمتانته.

❖ ❖ ❖

الحليف الجديد

عندمــا حطَّ تيم على بساطه الطائر في مخيَّم الأصدقاء، وأخبرهم بــأن بساط أراخْنا لم يعد له وجــود، عمّت البهجة الجميع، وأُقيم احتفال عــامٌّ شارك فيه بسرورٍ حتى كسّارو السنديــان الذين أدّوا رقصة خرقاء عكّرت مزاج لان بيروت، وهو الخبير في هذا المجال.

- لــن تُفلِتَ منّا المشعوذةُ بعــد الآن، - أعلن الفزَّاعة واثقاً من نفسه.
- لقــد كانت تستطيع الطيران، ولم نكن نحن قادرين على ذلك. إننا الآن أيضاً لا نستطيع أن نطير، ولكنها هي كذلك لا تستطيع، وهذا يعني أننا سنقبض عليها.

وافــق الجميعُ الفزَّاعةَ على رأيه، ما عــدا تشارلي بليك، فقد علَّق هذا البحّار بقلق قائلاً:

- أخشى أن الأمر ليس على هذا النحو البتَّةَ. بالطبع، إن حظوظنا في تحقيق الانتصار قد تضاعفت كثيراً. فهذا الفتى تيللي فيللي يتطور ليس بمــرور الأيام، بل بمرور الساعات، كمــا يحدُث في الحكاية. فأنتم جميعاً ترون بأعينكم تماماً كيف أنه بات يزداد حِنكة وسرعة وذكاءً. غــير أني أخشى ألا يتمكن من اللحاق بأراخْنا إذا ما وصلت المسألة إلى المطاردة. ذلك أن المشعوذة خفيفة الحركة، وتقوم بقفزات طويلــة، وهي تستطيع في لحظة واحــدة أن تغير اتجاه جريها، أمّا فتانا فثقيل جداً في هذه المجالات...

اكتأب الجميع بعد أن سمعوا ما قاله تشارلي من كلام منطقيٍّ.

- وما العمل، يا خالي تشارلي؟ - سألت إينِّي.

- إننا نحتاج إلى البحث عن حليف يتمتّع بخفّة أراخْنا وقوة تيللي فيللي. وأعتقد أن نسراً عملاقاً هو من يمكنه أن يكون هذا الحليف.
- أهوَ النسر كارْفاكْس؟ - صاح تيم وإينّي بدهشة.
- أجــل، إنه النسر كارْفاكْس عينــه، - أكَّد البحّار. - لقد أدركت من خــلال قصة مغامراتكم في العام الماضــي، أن هذا الطير النبيل لا يرضى بالكذب والخداع. فما إن كشف هذا النسر مخططات أورْفِن جوس الدنيئة حتى تخلّى عنه في الحال. ثم إن موقف كارْفاكْس من الناســ جيّد، فقد نقلكما عبر الهاوية مــن غير أن يطلب إليه أحد ذلــك، عندما لم يكن بمقدور بَغلَيكما أن يجتازاها. كما أنه، مثلُه في ذلــك مثلُ جميع سكان البلاد العجيبة، يــرى مصلحته في القضاء على الضباب الأصفر الكريه في أسرع وقتٍ ممكن.
هذا صحيح، كله صحيح، أيها القبطان، - صرخ تيم، - وأنا سأطير لأدعو كارفاكس كي يساعدنا.
وهنا غضبت إينّي غضباً شديداً.
- كلُّ شــيء يجب أن تفعله أنت، وفي كلِّ مــكان أنت. - قالت الطفلة بغضــب. - إن مَــن قاد حملــة جيش الفئران هو أنــت، ومن طار للاستطلاع أنت، فمتى سيأتي دوري أنا؟
- هــل تعلمين، يا إينِّــي، أن البحث عن وادي النســور أمرٌ خطير، - تدخل البحّار. - والتحليق على متن البساط الطائر ليس كالركوب علــى البغل. ثمَّ مَن الذي أعطى والدَيــه وعداً بألا يُقحِم نفسه في مغامرات خطيرة؟
- ألم يُعطِ تيم وعداً مثلَه؟ أم ماذا؟ آها، آها!
لم يجد القبطان ما يقوله رداً على ذلك.
- وفي جميــع الأحوال، فأنا من سيذهب في طلب كارْفاكْس، - أردفت إينّي- إنه سيكون أكثر قبولاً لطلبي أنا.

- ولماذا ؟ - تعجَّب تيم.
- لأنني امرأة!- أعلنت إينِّي باستكبار.

انفجر الجميع ضاحكين، وانتهت المسألــة لصالح إينِّي. ولتخفيف رهبة الطيران عليها وهي وحيدة، اصطحبت الطفلة معها أرتوشكا.

أَحَسَّتْ إينِّي بشيء من الرعب عندما انطلق البساط محلِّقاً في الجو تلبية لأوامرها، ومضى يطير فوق الحقول والغابات، ثم راح يزداد ارتفاعاً حين اقترب من الجبال. كانــت الطفلة والكلب يشجع كلٌّ منهما صاحبه، فلم يشعرا بخوف شديد.

كانت الشمســ فوق الجبال أكثر سطوعاً ممّــا على الأرض بكثير، وكان الهــواء أكثر نقاءً، فشعرت إينِّي وأرتوشكا بارتياح كبير. كان البساط يحلِّق فوق متاهة من القمم الجبلية التي يكسوها الثلج. فلاحظت إينِّي أن الثلــوج تغطِّي مساحة من السفوح أكبر ممّا في العام الماضي. وقد فسَّرت الطفلــة ذلك تفسيراً صحيحاً، وهو أن الجو أصبح أكثر برودة في الجبال، مثلما هو الحــال في سائر أرجاء البلاد العجيبة. ولم يكن ممكناً أن يتبيَّن المرء أيَّ شيء في أعماق الوديان بين الجبال بسبب الضباب، إلا أن هذين المسافرَيــن جوّاً كانا على يقين تامٍّ بأن البساط سوف يوصلهما إلى المكان المطلوب.

ولقد أوصلهمــا، حقّاً. وعندما نزلت إينِّي عــن البساط رأت على مقربــة منها عشّاً هائلاً يعادل ارتفاع بناية مؤلَّفة من ثلاثة طوابق. وكان يُطِــلُّ من العشّ رأسُ فــرخِ طائرٍ هائل الحجم. وسرعــان ما ارتفع أزيز الهــواء تحت خفْق جناحين، وهبط علــى الأرض نسرٌ عملاق. وكان ذلك النسر هو كارْفاكْس.

راح النســر في البداية يتأمل الزائرة متعجبــاً، إلاّ أن ذاكرته كانت جيِّدة، فتعرَّف إليها.

- مرحباً، يا كارْفاكْس النبيل!- انحنت إينِّي تحية له.
- أهلاً بكِ في جبالنا، أيتها الطفلـــة،- أجابها النسر بصوت خفيض أجشّ. - أعتقد أنك تحتاجين إليّ في أمرٍ بالغِ الأهمية، وإلا لَما كنتِ جازفتِ بحياتك وجئتِ على هذه القطعة الحقيرة من القماش.
- انزعجت إينِّي بسبب مـــا قيل بحقّ البساط، وقالت إنه كافٍ تماماً بالنسبة إلى حجمها.
- ولكننـــا، على أية حال، لسنا بصدد الحديث عن هذا الموضوع. فقد كان وراء مجيئـــي إلى هنا طلـــب هامٌّ. ألا تخبرني، يا سيّدي، إن كان هـــذا الضباب المنتشر فـــوق الأرض يضايقكم كثـــيراً، أنتم النسور العملاقة؟
- فلأُوَضِّحْ لك الأمر، - قال كارْفاكْس ساهماً. - إننا هنا، في الأعالي، ما زلنا قادرين بعدُ على أن نتعايش معه، غير أنه أصبح من الصعوبة علينـــا بمكان أن نعثر على التيوس والثيران البرية في الوديان، حتّى بتنا في الفترة الأخيرة نتضوَّر جوعاً.
- فلتَعلَمْ، إذاً، ما هو سبب ذلك كله!- هتفت الطفلة.

ثمَّ روت له قصة سُبـــات أراخْنا الطويل، وقصة استيقاظها، وكيف أرسلـــت الساحرة الشريرة الضباب الأصفر المسحور، من أجل أن تستبعد شعوب البلاد العجيبة.

- لقد جئنا، أنا وخالي تشارلي بليك وصديقي تيم أوكِلّلي، إلى بلادكم بنـــاءً على طلـــب سكانها. وقـــد بدأنا بخوض حرب ضـــد أراخْنا، وحققنا بعض النجاحـــات، ولكن ليس لدينا ما يكفي من القوة كي نظفر بالنصر النهائي. وإذا لم تساعدْنا أنت، أيُّها النسر العظيم، فإن الضباب الأصفر سيظل مخيماً فوق البلاد العجيبة، - أنهت الطفلة حديثها بحرارة.

- يتبـــيّن لي، على قدْر ما فهمتُ من حديثــك، أن أراخْنا هذه شبيهة بأورْفِــن جوس الذي استولى في العــالم الماضي على الحكم في بلاد المارّان؟

- ما أكبر الفــرق، - قالت إينّي وانفجــرت بالضحك رغماً عنها. - فليســ أورْفِن جوس أكثرَ من حشرة بالمقارنة مع أراخْنا، كما يقول خــالي تشارلي. فحتى حين استولى جوس على مدينة الزمرّد، ظلَّت الشمســ على عادتها تشرق ساطعة، وكانت السماء زرقاء. أمّا الآن فقــد حُرِمت البلاد العجيبة من الشمس والسماء، وهي تسير اليوم مسرعة نحو هلاكهــا المحتوم. على أنني سأخــبرك، بالمناسبة، أن أورْفِن كفَّ منذ مدّة طويلة عن إعلان نفسه إلهاً أو ملكاً، لأن الناس عرفــوه على حقيقته وطردوه. وبعد ذلك أصبح رجلاً صالحاً، فهو لم يقبــل بالعمل عنــد المشعوِذة، وابتكر طريقــة لمكافحة الضباب الأصفر.

- إنني مســرورٌ بما تقولين، - قــال كارْفاكْس. - امّــا أراخْنان فأنا مستعدٌّ لدخول الحرب ضدَّها، ما دام ذلك أمراً لا بد منه.

- إنك لن تحارب وحدك، وإنّما بالتحالف مع فارس حديدي جبَّار هو تيللــي فيللي. إنه قوي جداً. ولكــنْ، كيف لي أن أعبّر لك عن ذلك، - ارتبكــت الطفلة، - إنه لا يــزال تنقصه السرعة والخفَّة من أجل تحقيق النصر على أراخْنا.

وبعد أن انتهى النسر من الاستماع إلى هذا التوضيح، قال:

- لــن نجلس ونهدر الوقت في الأحاديــث، ولننطلق في الطريق. إنكِ ستطيريــن راكبــة على ظهري، وليســ على هذه الخرقــة، وبهذه الطريقة ستشعرين بقــدْر أكبرَ من الراحة. إلا أنني لا أعرف كيف لك أن تصعدي على ظهري، فليس لدينا سلالمُ في وادي النسور.

- لا تقلــق بهــذا الشأن. - ابتسمت إينِّي. ثــم جلست على البساط ، ووضعــت أرتوشكا في حضنها، وأمرت بصوت خفيض: - احملني، أيها البساط، إلى ظهر كارْفاكِس.

ومــا هي إلا بضــع ثوان حتى وصلــت الطفلة والكلــب إلى المكان المطلوب.

- إن هذه الخرقة أيضاً، كما أرى، تنفع في بعض الأمور، - قال النسر متعجباً.

ثــم أوصى الفرخ بأن ينتظر بهدوءٍ عــودةَ أمِّه التي ذهبت في طلب الفرائس، وبعدها انطلق كارفاكس بصخبٍ محلِّقاً في الجوِّ.

❖ ❖ ❖

صراع العمالقة

أثبتَ ظهــور كارْفاكْس في معسكر تشارلي بليك أن إينّي قد نجحت في تنفيــذ المهمة الخطيرة التي أوكلت إليهــا. وحين هبطت الطفلة على الأرض وهي على بساطها الصغير كان أول ما فعلت أن مدّت لسانها لتيم وهتفت بابتهاج:

– انظرْ! فماذا كنتَ قلت!

– حسنٌ،حسنٌ، إنني أستسلم، – تمتم تيم.

رحّــب تشارلي بليــك وفرقته بالنسر العملاق ترحيبــاً عظيماً، أمّا تيللي فيللي فقال بأدب:

– إنني مسرور جداً برؤيتك، أيها الطير المحترم! وبي أملٌ في أن نتغلب أنا وإيّاك معاً على على الشريرة أراخْنا.

تعجَّــب كارْفاكْس عندما رأى ملامح العمــلاق الحديدي الشرسة، ولكنــه كان طــيراً ذكياً ومهذباً فلم يقل أيَّ شيء، بــل بالعكس، أثنى على عينيه الكبيرتين الشديدتَي الحَوَل. لعلّهما ثاقبتا النظر، قال النسر، فشعر تيللي فيللي بفخر بالغ.

– إننــي نادرُ المثال في جمالي، أُقسِم بجبال الجليد! – صاح العملاق.

– وهذا شيء يعرفه جميع سكان البلاد العجيبة.

والآن، وقــد تمّ جمع كل القوات القتالية معاً، بات البدء بالعمليات العسكريــة أمراً ممكناً. ولكن قبل الانطــلاق بالقوات كاملة صوب مغارة أراخْنــا كان لابد مــن التأكد ممّا إذا كانت الساحــرة موجودة هناك، أم لا. وقــد أُوكِلت مهمة القيام بآخر استطــلاع إلى تيم، رغم أن إينِّي كانت مندفعــة إلى تولّي ذلك. إلا أن الطفلة وجدت نفسها وحيدة في هذه المرة، ولم يؤيدها أحدٌ، حتى أرتوشكا.

طــار تيم وأرتوشكا على متن البســاط السحري، وعادا بعد حوالي ساعتين مُحبَطين، لأن أراخْنا كانت قد اختفت. وقد حاول الصبيُّ العثور ولــو على قزم واحد لكــي يفهم منــه أيّ شيء، غــير أن الناس الصغار اختفوا وكأنَّ الأرض انشقت وابتلعتهم. وعلى الرغم من ذلك، فإن عملية الاستطلاع لم تكن عديمة الجدوى. وقد أعلن أرتوشكا أنه إذا ما سُمِحَ له باقتفاء أثر المشعوذة فإنه سوف يجدها أينما كانت تختبئ.

قال الفزَّاعة:

– يبــدو أن نظرك جيّدٌ جــدّاً، ما دمتَ تأمل في أن تــرى آثار أقدام الساحرة. ولكنّ، ماذا إذا لم يكن يظهر أيُّ أثرٍ على الأحجار؟

انفجر أرتوشكا بالضحك وقال:

– إن عندنـــا، نحن الكلاب، حاسَّةً تسمح لنـــا باقتفاء الآثار حتى في الظلام الدامس: إنها حاسَّةُ الشّمِّ.

هز الفزَّاعة رأسه مرتاباً.

ولَمّا كان أرتوشكا لا يستطيع اقتفاء الأثر إلا من مكان البداية الذي ينطلــق منه، فقد تقــرّر أن تسير المجموعة كلُّها معاً إلى المغارة. ولكنَّ تيم الذي طار فوق ذلك المكان عدة مرات على متن البساط، أعلن بأن المنطقة صعبــة المسالك، ولا يمكن الوصولُ إليها في المقطورة. وأياً ما كانت درجة الأسف، فإنهم كانوا مضطرّين للتخلِّي عن القلعة المتحرِّكة. فقد دفعوها إلى دغل من الشجيرات وغطّوها هناك بالأغصان.

ومنــذ الخطوات الأولى على الدرب الضيّــق المليء بالحجارة تَبيَّن لهــم أن القيام بهجوم على العدوّ ســيراً على الأقدام مع مصفاة من ورق الرافالو على الشفتين لا يقارن إطلاقاً بالسفر في مركبة مريحة. وهنا سُرَّ تشارلي بليك لأنه لم يصطحب معه من كَنساس مدفعاً وكمية احتياطية من البــارود والقذائف، رغم أن هذه الفكرة كانت قد خطرت على باله. فأين لكَ أن تتمكّــن من اللحاق بتلك الساحرة الخفيفــة الحركة عبر الوديان الجبليــة الضيّقة ومعك سلاحٌ ثقيلٌ صعبُ النقل؟ ثمّ إن أيَّ سلاحٍ من أيِّ عيار لم يكُن بالنسبة إلى أراخْنا أكثر من ألعابٍ ناريَّة للأطفال.

لقد كانــت الطريق صعبة على القافلة حتّى مــن دون مدفع. وإنه لمــن حُسْنِ الحظ أن الفصيلــة كانت تضمُّ أكثر مــن عشرين من كسّاري السنديــان الذين يقودهم لان بِيروت. فقد حمل هؤلاء الجنود الخشبيون الأقويــاء على أكتافهــم كل حمولة المقطورة من مُــؤَنٍ، وفَرْشٍ، ومُعِدّات. وكانــوا يسيرون في مقدّمة الحملة يشقّون الطريــق، ويستكشفون إن كان هناك من كمين أو فَخّ، ويبعدون الأحجار الكبيرة عن الطريق.

وكان يســير في إثْرهم تشارلي بليك وتيــم وهو يحمل أرتوشكا على يديه (كان ينبغي على الكلب أن يحافظ على قواه من أجل مطاردة أراخْنا فيما بعد). وخلفَهما كان يسير الحطاب الحديدي وهو يجرُّ الفزَّاعة، لأن هــذا المسكين كان يتعثّر طول الوقت ويقع فيعيق حركة الرتل. وكان دين غيور وفارامانت يسيران برفقة الدكتور بوريل البدين الذي كانت حقيبته الطبيــة تتدلّى على جنبه كالعادة. وكان دين غيور يحمل التلفاز السحري الذي لم يتجرّأوا علــى تسليمه إلى كسّاري السنديان، بينما كان كاغي كار متَّخذاً وضعية مريحة على كتف فارامانت. وأخيراً، كان الفارس الحديدي تيللي فيللي يسير خلف الجميع متبختراً، يحرس مؤخرة الرتل.

وكان كارْفاكْســ يمثّــل القــوى العسكريةَ الجويــة في هذا الجيش الصغير. وقد كان هذا النسر يحمل إينّي على ظهره ويُلقي بنظرات ثاقبة إلى جميع الجهات، غير أن كل شيء حولهم كان هادئاً.

كــم كان سرور أبطالنا عندما اجتــازوا حدود أراضي أراخْنا! كانت السماء الزرقاء التي تمتدُّ فوقهم صافية ليس فيها غيمة واحدة، ولم يتسنَّ لهــم رؤيتُها منذ مــدّة طويلة. وكانت الشمس الساطعــة تنيرهم بأشعتها بسخــاء. وأخذ الهواء المنعش العليل يتدفّق أمواجاً إلى رئاتهم التي لم تعد معتــادة على التنفُّــس بحرّيّة. ثم رمى الناس كمّامــات ورق الرافالو إلى الأرضــ بعد أن ضاقوا بها ذَرعاً، وراح يهنِّئ بعضُهم بعضاً. وحتى كسّارو السنديــان كانوا يحتفلون مبتهجين بصخبٍ، لأن أجسامهم الرطبة نتيجةَ عدم رؤية الشمس سوف تجفُّ الآن بسرعةٍ. ووحده كان تيللي فيللي ينظر

إلى السمـــاء بحَــيرة تامة، لأنه لم يكن قد رأى بعــدُ خلال حياته القصيرة شمسَ النهار بكامل روعتها وبهائها.

ولَمّــا كانت الفصيلة قد أمضت في المسير عدّة ساعات، وكان يقترب حلــول المساء، فقد تقرّر التوقف هنا حتى الصباح. فقد تقترب من مغارة أراخْنا في الظلام، وإذا بك تجد أن المشعوذة قد نصبت لك كميناً هناك.

كم كانت تلك الليلةُ جميلــةً في الهواء الطَّلْق الدافئ، تحت النجوم الكبيرة الساطعة في السماء الغامقة الزُّرْقة!

قــال تشارلي بليك بغضب، وهو مستلــقٍ على فراشه القاسي ينظر إلى الأعلى:

- لقد حرمَتِ الساحرةُ اللعينة البلادَ العجيبة حتّى من هذه الروعة! إنها تستحق الموت بسبب هذا وحده!

أمضــت إينّي وتيــم وأرتوشكا ليلة رائعة بعــد أن وجدوا لأنفسهم ملاذاً مريحاً تحت جناح كارْفاكْس الوثير.

وعند الفجر انطلقت الحملة كلُّها في الطريق، بمن فيها من عناصرَ متنوّعة، فوصلــتْ بعد ثلاث ساعات إلى مأوى أراخْنا. كان المكان خاوياً. ولم تكنْ ترى أثراً للأقزام، فقد اختفوا جميعاً عن الأنظار.

وقبل المُضيّ إلى المعركة الأخيرة الحاسمة مع أراخْنا، خطر على بال الفزّاعة أن يُلقيَ عليها نظرة من خلال التلفاز.

وضعوا الصندوق السحري على صخرة مسطحة، واحتشد الجميع أمــام الشاشة. نطــق الفزّاعة بالكلمات السحرية فأُنــير الزجاج العاتم، وظهرت عليه أراخْنا. كانــت تختبئ بين ركام من الصخور البرّيّة متدثّرةً بوشاح أزرق. وكان ظاهراً على وجه المشعوذة أن الغيظ والرعب يسيطران عليهــا. كانت تتلفَّت حولها خائفة مــن أن يكتشفها الأعداء حتّى في هذا المــلاذ السري. وعلى مقرُبة من أراخْنا كانــت مُلقاةً خشبةٌ ضخمة يمكن للساحرة أن تتناولها في أية لحظة.

- أوهــو- هووو، لقد تسلَّحت هــذه السيدة اللطيفة بسلاح عتيد! - قال فارامانت.

فردّ عليه تيللي فيللي:

- إن هــذه القطعة الخشبية لا تســاوي شيئاً مقابــل سيفي، اُقسِم بالسارية الرئيسية!

ولمّــا لم يُسفر البحث في المغارة عــن أيّ نتيجة في العثور على كتاب أراخْنــا السحري، انطلق أبطالنا في طريقهــم، تاركين متاعهم الثقيل في الباحة الصغيرة أمام المغارة.

وفي مقدِّمة الرَّكْــب كان أرتوشكا يجري وهو يتشمّم الأرض بأنفه. لقــد كان يقتفي أثر المشعــوذة بسهولة، لا يحيد عنه، مثلما يسير المرء في شــارع من شوارع المدينة. ولمَّا كان مــن الصعب على تيللي فيللي وليستار أن يتابعــا بأنظارهما أرتوشكا الــذي راح يتدحرج مثل كرة سوداء صغيرة بــين الأحراش، والأعشاب الطويلة، ورُكامات من الأحجار، كان كاغي كار يطير محلِّقاً فوقهما، جاعلاً من نفسه خيرَ دليلٍ للعملاق. ووراء هؤلاء كان كسّارو السنديان والناس يسيرون في سلسلة طويلة يخفق كارْفاكْس فوقها بجناحيــه العملاقين. وفي هذه المرة لم يكن النسر يحمل أحداً على ظهره، فما من مجال في المعركة لأنْ يفكر بمن على ظهره، ولأنْ يعتني به.

بعــد كلِّ نصف ساعــة كان الفزَّاعة ينظر إلى التلفــاز كي يتحقَّق ممَّــا إذا كانت المشعوذة باقية في مخبئها أم لا. ولكنَّ أراخنا كانت لا تزال هنــاك، إلا أن سلوكها أخذ يزداد اضطرابــاً أكثر فأكثر. لقد كانت تدقِّق النظر إلى السمــاء باهتمام، فهل كانت قد لاحظت النسر، يا تُرى؟ وعند ذلــك أرسل تشارلي بليك إلى كارْفاكْس إشارة بأن يهبط في طيرانه قليلاً، فاستبدل النسر بطيرانه التحويمَ.

- لقــد أصبحــت آثار أقدام أراخْنــا أكثر طــراوة ووضوحاً،- أخبر أرتوشكا القيادة. - إننا نقترب من مخبأ المشعوذة.

مضــت الطريق تــزداد ســوءاً. إذ كان يظهر فيها عــدد كبير من الفِجــاج الضيقة حيناً، والعريضة أحياناً. فكان كسارو السنديان يُقيمون فــوق الفِجاج الضيقة جسوراً ممّا حملــوه معهم من أخشاب، أمّا الفِجاج

العريضــة فكانوا يضطــرّون للالتفاف حولهــا . وكان لا بد لتيللي فيللي الذي يسير علــى رأس المجموعة من أن يتوخّى أقصى الحذر، لأن أصغر خطأ قــد يرتكبه كان يمكن أن يؤدِّي إلى سقوطــه وإصابته بأذى شديد . وهذا كان يعني فشل الحملة بأكملها .

- انظــر إلى أين هربت هذه المشعوذة اللعينــة! - قال بوريل القصير الرِّجْلَيْنِ لاهثاً، وهو يكاد يلحق برفاق الدرب.
- فلتبــقَ في مكانــك، أيّها الطبيب! - اقترح عليــه تشارلي بليك غير مرّة.
- ولا بــأي حال من الأحــوال! فعين الطبيب يجــب أن تكون ساهرة دوماً!

وتابع الطبيب الضئيل الشجاع سيره وهو يتصبّب عرقاً .

وعلــى حين غَرّة انتصبــت قامة أراخْنا على قمــة الجبل عملاقة سوداء. لقد لاحظت المشعوذة اقتراب الأعداء.

انقلب وضعُ فصيلة تشارلي بليك فبات خطيراً، لأن الفصيلة وجدت نفسها تحت مرمى القصف. كانت المشعوذة لا تنفكّ تنحني وتقوم حاملة بيديهــا القويتين أحجاراً كبيرة تقذف بهــا إلى مسافة هائلة. وكانت هذه الأحجــار تتناثر شظايا . وقد حطّمتْ إحدى تلك الشظايا جسم واحدٍ من كسّاري السندیان. أمّا القذائف التي صوّبتها إلى تيللي فيللي، فكان الفارس الحديدي يتصدّى لها بخفة كبيرة مستخدماً درعه.

ووقــع نظر القبطــان بليك على شــيء بالقرب منه شبيــه بخيمة حجريــة مائلة السطحين، مؤلّفة من بلاطتــين ضخمتين تتّكئ إحداهما على الأخرى. فاختبأ تشارلي بليك ورفاقه تحت سقف هذه الخيمة المتين متفادين قذائف أراخْنا .

قال بليك:

- عندما تقع الحرب بين العمالقة يحسن بنا، نحن الأقزام، أن نتنحّى جانباً . فضرباتنا بالنسبة إليهم ليست أصعب من لسعة حشرة.

اتّخــذ البحار مكاناً له بالقرب من بــاب الخيمة لكي يتسنّى له أن يراقب مشهد المعركــة بارتياح. كان يرى العملاقَ تيللي فيللي وهو يتقدّم بإصــرارٍ صاعداً سفح الجبل، فيما ترميه المشعوِذة بحجارة ضخمة. وراح تشارلي بقلبٍ هدّه الرعــب يراقب كيف تتدحرج قِطَعٌ من الصخر هاوية إلى الأسفل وهي تئزّ وتتقافز. كان حجم القِطع كبيراً فكان صدُّها بالدرع مستحيلاً، ولكنَّ تيللي فيللي كان في كل مرّة يميل إلى هذا الجانب أو ذاك، فيتفاداها برشاقة، وتمرُّ القذائف دون أن تصيبه.

- أيّتهــا العواصف والأمواج! – زأر البحار فجــأة بصوتٍ متوحّشٍ، ولوَّح بيديه. – ها هو ذا النسر أخيراً يدخل المعركة!

ظــل كارْفاكْس وقتاً طويلاً يترقَّب اللحظــة المناسبة، ثم انقضَّ من الجوِّ بغتة، ودقَّ أراخْنا في ظهرها بمنقاره الهائل الحجم دقّةً قويّة جعلت المشعوِذة على وشْك أن تفقد توازنها، فسقط من يدها الحجر الذي كانت تتأهّــب لقذفه. والتفتت الساحــرة بغضب عارم نحو عدوّها الجديد، ثم التقطت عصاها الخشبية عن الأرض، وحاولت أنْ تهوي بها على كارْفاكْس.

ولكــن النسر، رغم حجمه الهائــل، كان في غاية الرشاقة، واستطاع بمهارة أن يتفادى ضرباتها. وبينما كانت أراخْنا تتصدّى للنسر، راح تيللي فيللــي يتسلَّق السفح بخطوات عملاقة. كانت نوابضه كلُّها تَصرِف وتئنُّ، وكانت عضلاته الآليّة في أقصى درجات التوتر، أما ليستار فكان يدقُّ أرض المقصورة بقدميه الصغيرتين، نافد الصبر، وهو يردّد محموماً:

- هيّــا، زِدْ خطــوة أخرى، هيّا، زِدْ واحدة ثانيــة! استجمِعْ قواك، يا صغيري!..

كان العملاق يتسلَّق السفح مسرعاً وهو يتوعَّد صائحاً:

- أيّهــا الرعد والصواعق! ها أنــا ذا سأريك، أيتها المشعوِذة اللعينة، دعيني فقط أصعد الجبل!..

كانت أراخْنا متجمِّدة رعباً، مصعوقة بالخوف من الشراسة الطاغية على ملامح تيللي فيللي، ومن النظرة الشريرة في عينيه الشديدتَي الحَوَل.

وكان الفارس الحديدي يزيد في سرعة صعوده. لقد أثبت تشارلي بليك أنه معلّم عظيم في فنّ الحرب عندما دعا كارْفاكس لقتال أراخْنا. إذ لم يكن سهلاً على الساحرة الجبّارة أن تقاتل على جبهتين. فعندما كانت تلتفت لمواجهة تيللي فيللي وتحاول القضاء عليه بقطعة صخر، كان النسر ينقضُّ على ظهرها، فينهشها بمنقاره ومخالبه الحادّة، ويضربها بجناحيه. وما إن كانت الساحرة تلتفت نحو كارْفاكس حتى يكون العملاق قد قطع مسافة جديدة من الجبل بأمان.

شرعت المشعوذة تدرك أنها في وضع ميؤوس منه. آه، لو أن البساط السحري معها! حينها كانت ستتملّص من العملاق الحديدي، وتقاتل النسر العملاق في الجوّ وجهاً لوجه، وما من أحد يعرف من الذي كان وقتها سيحالفه النصر. إلاّ أن بساطها السحريَّ كان قد تناثر في شتّى أرجاء البلاد، فكان مقدّراً لها أن تخوض هذه المعركة القاسية على الأرض.

لم يبقَ أمام أراخْنا إلا حلٌّ وحيد هو أن تبحث عن النجاة في الفرار. لقد تمكّنت من إرباك كارْفاكس لمدة قصيرة بضربة رشيقة من عصاها، فانطلقت تجري على سفح الجبل بقفزات عملاقة بعيداً عن تيللي فيللي الذي كان يقترب منها مسرعاً لا يلوي على شيء.

وفجأة توارت قامة المشعوذة العملاقة عن عيون تشارلي بليك وأصدقائه الذين كانوا يراقبون مشهد المعركة. وهذا ما أدّى إلى إصابة البحّار باليأس. وعندئذ خطف تشارلي البساط من بين يدَي تيم، فقفز جالساً عليه وأمره بأن يمضي به إلى ميدان المعركة.

ولكن البساط السحري قام بأقصى ما يستطع من جهد ولم يتمكّن إلا بالجهد من أن يرتفع عن الأرض عدة سنتيمترات، فقد كان وزن البحار ثقيلاً جدّاً عليه. وعندئذ وثب تيم، الذي كان يراقب هذا المشهد باهتمام كبير، نحو تشارلي بليك وصاح:

– عفواً، أيها القبطان، فأنا من يجب عليه أن يطير!

– حسن، أيها الفتى، إنه حظك الطيب، – وافَقَ بليك متجهِّماً، وتخلّى عن مكانه للصبيّ.

وسرعــان ما حلّق البساط في الجوّ حاملاً تيــم أوكللي السعيد إلى قِمّة الجبــل. وهناك شاهد الصبي منظراً مذهــلاً لا يُنسى. فقد كانت المشعــوذة ترتدي وشاحها الأزرق ممزّقــاً وهي تجري على سفوح الجبال بخفَّة غزالة، تتوكّأ على عصاها الطويلة، وتقفز فوق الفِجاج، وتركض في خطوط متعرّجة ودائرية في محاولة منها لتضليل من يطاردها.

ربّما كانت ستنجح في ذلك، لولا كارْفاكْس. إلا أن العملاق كان يحوم فوق رأس المشعوذة، ويسدد ضربــات منقاره إلى وجهها، ويضرب ظهرها بجناحيه، ويغرز مخالبه بكتفيها.

أمّا من الخلف، فإن الفارس الحديدي ذا العينين الرهيبتين، والروح الفتيَّــة التي لا تعرف الخوف، استخدم كلَّ ما في عضلاته الآلية من قوة، وراح يجري بقفزات خفيفة رشيقة في إثر المشعوذة الهاربة.

وبينما كان كارْفاكْس يطير عالياً، ألقى نظرةً شاملة على تلك المتاهة من المرتفعات والفِجاج، فرأى في مكان بعيد جُرْفاً صخرياً ضخماً، تحيط به وديــانٌ سحيقة من ثلاث جهات. كان النسر يعرف منذ زمن بعيد هذا الجــرف المعروف باسم «جرف الهلاك»، لأنهم كانوا غيرَ مرّة، هو وأمثالُه مــن النسور الأخرى أيضاً، يستمرّون في مطاردة الثيران والتيوس الجبليّة إلى أن تجد تلك الحيوانات حتفها هناك.

فقــرّر النسر في سريرتــه: «إلى هناك، وإلى هنــاك فقط يجب أن يمضيَ الطريق بالساحرة».

وكيفما كانت المحــاولات التي تقوم بها أراخْنــا للانحراف جانباً، بُغيــةَ الابتعاد عن هذا الطريق الخطير، كان كارْفاكْس يمنعها من تحقيق ذلك. فلم يكن يمكّنها من الانحراف يميناً ولا يساراً، بل يدفعها إلى الأمام فقط، حتّى كانــت كل خطوة وكل وثبة تقوم بها الساحرة الشريرة تقرِّبها من ذلك المكان الذي كان يجب أن تنال جزاءها فيه.

وها هو ذا، أخيراً، جرف الهلاك!

وعندمـــا رأت أراخْنـــا ذلك الفخَّ الـــذي استدرجها إليـــه أعداؤها الجبّارون، أطلقت زئيراً وحشيّاً ناجماً عمّا في قلبها من حقدٍ ورعب.

ثـــمّ استدارت المشعـــوِذة بجسمها نحو تيللي فيللـــي، ورفعت يائسةً عصاها العملاقة في الهواء.

ونَشَبـــت بينهما معركةٌ خارجة عن المألوف. كان تيم أوكللي يراقبها وهو يزعق ابتهاجاً، ويقوم علـــى متن بساطه الصغير بحركاتٍ كان يمكن أن تؤدّي إلى سقوطه عنه عشر مرّات لو لم يكن البساط يرفع هذا الطرف من أطرافه أو ذاك، تحسُّباً لكل طارئ.

كان العملاقـــان يتبـــارزان بسلاحهمـــا وكأنهما يلعبـــان بقصبتين خفيفتـــين: أراخْنا بعصاها الخشبية الثقيلـــة، وتيللي فيللي بسيفه. ومن يدري إن كان الفارس الحديدي فاز بالنصر، أم سقط في هذه المعركة لولا مساعـــدة كارْفاكْس له. فقد كان النسر المستشيط غضباً يخاطر بسلامته وهو يمزّق المشعـــوِذة بمخالبه، ويضربها بجناحيه على وجهها كي يمنعها من رؤيةِ الخصم.

وها قد جاءت لحظة النصر المنشودة!

فقد تمكّـــن تيللي فيللي بضربـــة رشيقة من كســـر عصا الساحرة نصفـــين. ولمّا لم يبقَ في يد أراخْنا إلا قطعـــة خشب عديمة النفع، قذفت الساحرة الشريرة بها النســـر، ثم أطلقت صرخة الموت الأخيرة: «لقد كان أورْفِـــن على حق!!»، ثم ألقت بنفسهـــا إلى الهاوية التي كان يتصاعد من قاعها البخار.

- لقد انتصرنـــا! لقد انتصرنا!! - أعلن النسر بصـــوتٍ مُدَوٍّ كصوت البوق.
- لقـــد انتصرنا!! -جأر تيللي فيللي. فردّد ليستار في مقصورته هذه العبـــارة وراءه بصوت ضعيف، وهو يشعر بسعادة لم يعرفها يوماً في حياته، على الرغم من أنه كان منهكاً تماماً بسبب الهزّات التي كان عليه أن يعانيها وهو في جوف العملاق خلال وقت المطاردة والمعركة الشرسة.

تعجز الكلمات عن وصف السرور الذي انتاب تشارلي بليك وباقي أبطالنا، عندما عاد تيم أوكيلِّلي على متن بساطه الطائر، وأخبرهم بنتيجة المعركة الأخيرة. وما لبث أن عاد المنتصران نفسهما: النسرُ مُثخَناً بالجِراح، والفارسُ الحديــدي تيللي فيللي، العملاقُ ذو الوجه الشرس والقلب الطيب، مكلَّلاً بالغبار، تظهر على صدره وخاصرتيه الآثار العميقة التي خلَّفتها الضربات.

يا للمدائح، ويا للتمنيات الطيبة التي أغدقها الناس على كارْفاكْس الشجاع الذي استمات في القتال!

قال النسر:

– لا تشكــروني، يا أصدقائي! فقــد كان الضبــاب الأصفر يهدِّدني بالمــوت، مثلما كان يهددكم جميعاً، وهــذا يعني أنني لم أحارب من أجل الآخرين فقط، بل ومن أجل نفسي ومن أجل قومي أيضاً. أمّا الآن فإننــي سأعود إلى أهلي، إنهم هناك ينتظرونني بفارغ الصبر، قلقــين. ويمكنني وأنا في طريــق العودة أن أحمــل إينِّي إلى مغارة أراخْنا، فلماذا يجب على هذه الطفلة أن تنهك نفسها سدىً؟

وقبل أن ترتقي إينِّي ظهر النسر، نفخت في الصفارة فظهرت أمامها رامينا.

– فلتفرحي معنــا، يا صاحبة الجلالة، – قالــت إينّي. – لقد هلَكت أراخْنا الماكرة، وكان لقبيلة الفئران فضل عظيم في هزيمتها!

تناولت الطفلة بيديها ملكة الفئران التي لم يكن لسرورها من حدود، ورفعهــا البساط إلى ظهر كارْفاكْس. وبينما كانت تطير مبتعدة، رأت إينِّي أصدقاءها وهم ينطلقون في طريق العودة صفاً يغمره السرور.

❖ ❖ ❖

زوال الضباب الأصفر!

ظلّت إينِّي تشيِّــع كارْفاكْس بنظراتها إلى أن تحوَّل إلى نقطة قاتمة في السماء البعيدة، ثــم اختفى. كذلك ودّعت رامينا الطفلةَ، ومضت إلى شعبها لتقوده إلى المناطق التي ألِفها منذ قديم الزمان، إلى بلاد الزمرّد.

دخلت إينِّي إلى مسكن أراخْنا متلهِّفة، وتوقفت مدهوشة: فقد كانت المغارة كلها مكتظــة بأناس صغار. وكان بينهم شيوخٌ ينظرون إلى الأعلى، رافعــين لِحاهم الشائبة، وعجائزُ نظيفات، يرتدين قمطات بيضاءَ ومآزرَ مطرَّزةً، وشبــابٌ، وأطفالٌ صغارٌ جدّاً يحملــون في أيديهم ألعاباً ضخمة جميلة.

تراجــع الأقزام أمام إينّــي، وتقدم من بينهم شيــخ جليل في قبعة حمراء. كان هذا الشيخ هو مؤرخ الأقزام وكبيرهم كاستاليو.

- مرحباً، أيتها العزيزة إينِّي! - قال القزم وهو ينحني تحيَّة لها.
- أنت تعرف اسمي؟ - تعجبت الطفلة.
- إننا نعرف كل شيء عنكم، أيها القادمون من جزيرة الزمرُّد والضيوف مــن وراء الجبال. - أردف كاستاليو باعتزاز. - فقد أمضينا عدداً غير قليل من الليالي تحت مقطورتكم، فكنّا نتنصَّت على أحاديثكم، ونتعرَّف إلى مخططات حملتكم العسكرية.
- وطبعاً، كنتم تبوحون بها لأراخْنا؟! - صاحت الطفلة بحنق.
- لم يحصل ذلك قَطّ ، - اعترض القزم بهدوء. - لقد كنا نلتزم جانب الحــ - يا- ا- ا - د، كما يحبُّ أن يعبِّر صديقكم الفزَّاعة الحكيم. كلُّ مــا في الأمر هو أن قبيلتنا ابتُليَت بنذرٍ عاهدت نفسها على أن تلتــزم به منذ أقدم العصور. وبمقتضى هذا النذر كان ينبغي علينا

أن نكــون في خدمة أراخْنــا، وأن نطيعها في كل شيء، ولا نقوم بأيّ فعلٍ يؤذي تلك الساحــرة. غير أن هذا النذر لم يتضمَّن التزاماً منّا بــأن نحارب أعداءهــا، - ابتسم الشيخ بمَكــر، - ولذلك فنحن لم نحارب.

تعجبت إينِّي من حنكة الأقزام وسألته:

- ولماذا ظللتم مختبئين عنّا حتى الآن؟
- لأنكــم كنتم ستطلبون منا أن نعمل لصالحكم، ولكننا لم نكن قادرين على فعل ذلك. أمّا الآن، بعد أن ماتت أراخْنا، وفَقدَ النذر مفعوله، فإننا نضع أنفسنا تحت تصرفكم بشكل كامل.
- وأنتــم على عِلْم بموت المشعوِذة؟ - سألــت إينّي وهي تزداد دهشة أكثر فأكثر.
- عندمــا كنتِ تسيريــن قاصدةً مخبأ أراخْنــا في الجبال، ألم تري في الطريق أعمدة رمادية صغيرة؟ - سألها كاستاليو مبتسماً.
- أجــل، رأيتها، ولكننــي لم أُعِرْها انتباهي، فقــد ظننت أنها حجارة عادية.
- لقد كنّا، نحن الأقزام، تلك الأعمدةَ، وكنّا متدثرين بمعاطف رمادية مــن رؤوسنا حتى أخمص أقدامنا. إننا معلِّمون ماهرون في التمويه لا نُضاهى.
- حقاً، يجب الاعتراف بذلك! - وافقته الطفلة.
- وهكــذا، وما إن هلكت أراخْنا في المعركة حتّى طار الخبر السارُّ من موقع إلى آخر بسرعة تفوق سرعة بريد التعاقب عند الطيور.
- يا للعَجــب! لا يسعني إلا أن أكون مسرورة لأنكم في حرب المشعوذة ضدنا التزمتم جانب الحيـ ... ياد، - قالت إينّي متعثّرة بنطق هذه الكلمة. - إنني أتخيل كم كان بإمكانكم أن تسيؤوا إلينا.
- كوني على يقين كامل بذلــك!- أكّد لها كاستاليو مفتخِراً. - ولكنْ،

دعينا ننتقل إلى المطلوب. إنني أفترض أنه ما دمتم أنتمُ المنتصرين، فإنكم ستبحثون حتماً عن كتاب أراخْنا السحري لكي تُبطِلوا مفعول ما نشرته من سحرها الشرير؟

- إنك على حق، يا أيها الجد العزيز!
- وأنا الآن سأريك مخبأ السيدة السري.

وإذا بالمَخبــأ السرّيّ موجود في أبعد زاوية من زوايا المغارة وأشدّها ظلامـــاً. كان المخبأ تجويفاً محفــوراً في الجدار ومغلقـــاً بواسطة حجر مسطَّـــح، مستوٍ مع الصخر. ولـــولا المساعدة التي قدَّمهـــا القزم لَمَا كانَ ممكناً بأيِّ حالٍ من الأحوال أن يجد أحدٌ تلك الأزرار التي تجعل النوابض السرية تعمل.

وبعد أن أجريت العمليات اللازمة كلُّها، وانفتح التجويف، اختطفت إينِّي بلهفةٍ ذلك الكتاب السميك ذا أوراق البُردي والتجليد البنِيّ الحائل اللون.

- شكـــراً، شكراً عظيماً، يا أيها الجد العزيز! - صاحت إينِّي بحرارة.
- ولكن كيف كان لك أن تعرف بسرِّ الساحرة؟
- إيه، لقد سبق وأن أخبرتك بأنه ما من شيء يَخفى عن أنظارنا. على أن أكـــثر ما كان يبعث على الضحك هو الثقة التي كانت لا تتزعزع عند السيدة أراخْنا بأن هذا المخبأ السري لا يعرفه أحد سواها.

ونهنه الشيخ بالضحك، فشاركه الضحكَ الأقزامُ الآخرون.

- أكـــرر لكم شكري مرّة بعد مرّة، أيُّهـــا الأصدقاء. ولكنني أقول لكم بصراحة، إنني لا أرغب بأن يكون لي في بيتي جواسيس من أمثالكم،
- وانفجرت إينِّي بالضحك.

فقهقه الأقزام بصوت أكثر ارتفاعاً.

وبعـــد مُضيّ بضع ساعات عادت فصيلة تشارلي بليك من الجبال. وكـــم كانت سعادة أصدقاء إينِّي كبـــيرة، عندما رأوا بين يدي الطفلة ذلك

الكتــاب المنشود الــذي كان الغاية من كفاحهم العظيــم. فلو لم يُعثر على الكتــاب، لذهبــت جهودهم كلها أدراج الرياح، ولــكان الهلاك الأكيد هو المصير المحتوم الذي ينتظر البلاد العجيبة.

وحين غمر صخبُ أصــوات السرور المرجَ الواقع أمام المغارة، انسلَّ روف بيلان يحبو خارجاً من مخبأٍ مجهول.

كان وجه الخائن رمادياً من العار والخوف. وتوسَّل روف بيلان، وهو ينحني ذليلاً أمام الفزَّاعــة والعملاق من وراء الجبال، ألا يكونا شديدَي القسوة في معاقبته على خيانته الجديدة.

- لستُ مذنباً، - قال الخائن المرعوب متلجلجاً. - فعندما استيقظت من نومي الطويل في المغارة، بدأ أحد عمّال المناجم يعلِّمني ويلقِّنني، ولكن في هذا الوقت...

- خطفك الأقــزام، رُسُلُ أراخْنا، - قاطع الفزَّاعةُ بيلان. - إننا على علم بكل ذلك. ونعرف أنك وقعت في يدَي تلك المشعوذة عندما كان يمكــن أن يُصنعَ منك أي شيء. وهذا ما يخفف من وطأة ذنبك، - أضاف الحاكم العادل.

فألقى روف بيلان بنفسه تحت قدميه.

- إذاً، فأنتــم ستحافظون على حياتي؟- صاح بيــلان ذاهلاً. - أوه، سيكون في وسعي أن أكون جديراً برحمتكم!..

- صحيح، ولكن من أنت الآن؟ إنك عارٌ على قومك. ولا بد من تنويمك مــرّة ثانية... - ولمّا لاحظ الفزَّاعة الرعب على وجه بيلان طمأنه قائــلاً: سيُنوِّمونك مدة قصيرة تستغرق شهــراً أو شهرين، ثمّ بعد ذلــك سيعيدون تربيتك بشكل حقيقــي. فامضِ إلى مدينة الزمرّد، وبلِّغ روجيرو أنني أطلب إليه أن يجعلوا منك إنساناً محترماً.

- أيّتها الصواري والأشرعة! - صاح تشارلي بليك. - إنها فكرة رائعة، يا صديقي الفزَّاعة!

انحنى روف بيلان بقوّة، وهــو يردِّد آيات الامتنان، ثم انطلق للقاء حلُــم جديد. وعندما تــوارت قامته خلف أقرب تلّة، خــرج كاستاليو من حشدٍ الأقزام، وتوجَّه بخطابه إلى الفزَّاعة باحترام:

- يــا حاكم جزيرة الزمــرد الثلاثيَّ الحِكمة، لقــد سمعنا كثيراً منذ مدة طويلة عن محاسن أخلاقكمُ العظيمة، وإننا نطلب إليكم، نحن الأقزام، أن تقبلوا بنا وتجعلونا تحت حمايتكم السامية!
- وماذا يعني ذلك؟ - سأله الفزَّاعة مستغرباً.
- هــذا يعني، أننا نريــد أن نصبح من رعاياكم. بالطبع، نحن ندرك أننا لم نكن جديرين بشرفٍ كهذا، ولكننا موافقون على أن ندفع لكمُ الجزية التي تتكرّمون بفرضها علينا.

انتصب الفزَّاعة بقامته فخوراً، وهو مستند إلى عكّازه البديع الذي تمكَّــن من الاحتفاظ به في أثنــاء الحملة. لقد جعله طلب الأقزام يشعر بالاعتزاز.

- هــم... هم. - قال الفزاعــة. - إن طلبكم مفاجئ تماماً، ولكني لا أعتقد بأن هناك ظروفاً تتدخل لتكون حائلاً يحول دون تلبيته.

هذه الجملة الضبابية المبهمة جعلت الأقزام يشعرون باحترام عظيم لثقافــة الفزَّاعة، لأنه لم يسبق لسيدتهم السابقــة أن استخدمت عبارات طويلة كهذه!

- هــل ينبغي لنا أن نفهم من ذلك، يا صاحب الجلالة، أنكم موافقون على تلبية رغبتنا؟ - استفسر كاستاليو بوجل.
- نعــم، أعتقد ذلــك، - وافق الفزَّاعــة بلطف. - أمّــا فيما يخص الجزية... فقد سمعت أنكم كنتم تقومون بتدوينٍ تفصيليٍّ لأحداث بلادنا؟
- نعــم، يا صاحب الجلالة، إننا نقوم بتدوينها منذ خمسة آلاف سنة! - ردَّ كاستاليو بافتخار.

- إذاً، فلتستمرّوا بتدوينها في قادماتِ الأيام أيضاً، وليكن هذا التدوين هو الجزية التي نفرضها عليكم!
- هوراااا!! يعيش الفزَّاعة الثلاثي الحكمة! - صرخت جماعة الأقزام عالياً بصوت واحد.
- ولكنكــم، طبعاً، ســوف تقدِّمون لنا ثمار عملكــم، - ختمَ الفزَّاعة كلامه بلطف.
- إذاً، فلتسمحوا لنا بأن نقدم لكم كلَّ مجلَّدات مدّونتنا التي احتفظنا بهــا على مدى خمسة آلاف عــام. لقد تجمَّع لدينــا منها ما بات أكداســاً عديمة النفــع، أمّا في مدينة الزمــرد فسوف يعكف على دراستها المؤرخون، وسيؤلفون عنها أعمالاً علمية طويلة...

تمَّ توضيبُ مكتبة المدوَّنات، ثم حُمِّلت على ظهور كساري السنديان الصبورة على النقل...

ولا يــزال الأقزام إلى يومنا هذا أوفياء تمامــاً لالتزامهم بوعدهم أن يستمــروا في كتابــة هــذه المدوَّنة. وكان قد وصــل في وقت سابق إلى مكتبــة مدينة الزمرد المجلد رقم ٥٧٩ من «المدونة الشاملة لتاريخ البلاد العجيبة»، وهو المجلَّد الذي يمكن للراغبين أن يقرأوا في فصل منه تحت عنوان «سرِّ القصر المهجــور» وصفاً للأحداث الغريبة وغير المألوفة التي جرت في بلاد العجائب.

وافــق الجميع على أن يتولّى تشارلي بليك شــرف فكِّ الوعد الذي نذره الأجداد للمشعوذة أراخْنا، والقضاء على الضباب الأصفر. ذلك أنه هو العملاق القادم من وراء الجبال، الذي اخترع الفارس الحديدي الجبار تيللــي فيللي، وفطِن إلى ضرورة ضمان الاعتماد على مساعدة كارْفاكْس. فلولا هذان العملاقان لكان الانتصار على المشعوِذة مستحيلاً.

وقــد تقرر إجراء المراسم الاحتفالية، بمناسبة إلغاء سحر الشعوذة، علــى حدود الأراضي التي كانت مُلْكاً لأراخْنا سابقاً، وبالضبط في المكان

الــذي يبدأ منه انتشار الضباب الأصفر. فهنــاك سيظهر حالاً إن كانت كلمات التعويذة تؤدي إلى النتيجة المنشودة أم لا.

وما هي إلا ساعــات معدودات من السير حتّى توقّفت القافلة على الحدود بين البلاد المشمسة ومنطقة الضباب الأصفر. كانت تمتدُّ أمامهم ظلمــةٌ عكرة، تنبعث منها الرطوبــة والبرودة. أمّا المكان الذي توقّفوا فيه فكان يضجُّ بزقزقــة العصافير وهي تتنقّل على أغصان الأشجار، وترفع فيه الأزهار البديعة رؤوسها من بين الأعشاب، وترفرف الفراشات الزاهية الألــوان. أمّا هناك فكان الثلج يغطــي الأرض، وتنتصب الأشجار عارية، وكانت الغابة ميتة، خاوية.

كانــت قلــوب الجميع تدقُّ بشــدة، حين أخذ تشــارلي بليك ينطق الكلمات السحرية عالياً وبوضوح، وهو ينظر إلى الكتاب:

- أوبــوررو- كوروبوررو، تاندارا- أندابارا، فــارادون- غارابادون، شابــاررا- شارابــاررا، اختــفِ إلى الأبد من البــلاد العجيبة، أيها الضباب الأصفر اللعين!

ويــا لها من معجزة! لــكأن يداً عملاقة أزالت الستــارة الضبابية، وفوق تلك الجهة التي كان فيها صحراء جليدية، انبسطت السماء الزرقاء بكل أبهتها، وتألقت الشمس ساطعة!

كانت فرحــة أبطالنا شيئاً يكلُّ عن وصفه اللســان. فتعانقت إينِّي وتيــم، وقذف تشارلي بليك بغليونه عالياً في الهواء ثم تلقّاه ثانية بمهارة، وراح الدكتور بوريل يلوِّح بحقيبته الطبية، فيما رقص لان بِيروت برشاقةٍ فذّة «رقصة الغزال» التي نال عليها الجائزة الأولى في مسابقة للراقصين في المدينــة. كان أرتوشــكا ينبح بصوت يُصــمّ الآذان، ناسياً أنه يستطيع أن يتكلــم، أمّا كاغي كار فكان يقوم في الهــواء بحركات جنونية متنوِّعة. وانخــرط كسّارو السنديان في ألعابٍ مرحة، في حين بدأ الصبي العملاق

تيللـــي فيللـــي يغنّي بفرحٍ أول أغنية في حياتـــه، وكان قد ابتكر في الحال كلماتها ولحَّنها بنفسه.

لقد تمَّ إنقاذ البلاد العجيبة مـــن الهلاك، وستعود الشمس الحارَّة تسطع من جديـــدٍ فوقها إلى الأبد، فتُؤتي الأشجـــار الثمار اللذيذة على مـــدار السنة، ويعمل الناس في الحقول مسرورين وهم يجمعون المحاصيل الوفيرة على مدار السنة أيضاً.

جمـــع تشارلي بليك الحطب وأضرم النار، وحـــين شبَّ لهيبها ألقى فيها بكتاب أراخْنا السحري.

– فلتختـــفِ إلى أبد الآبدين تلك التعويذات الشريرة التي يضمُّها بين دُفَّتيـــه هذا الكتاب الملعـــون، – قال البحار. – فمن يدري في أيدي مَن قد يقع هذا الكتاب، وما الأذى الذي يمكن أن يتسبَّب به للناس إذا لم نتلِفْه!

راحت النـــار تُقلّب على مهْلٍ أوراقَ الكتاب التي تخشَّبت على مدى آلاف السنين، وأخـــيراً اشتعل الكتاب، وانطلق من ناره لهيبٌ دخاني كريه الرائحـــة. ولمّا لم يبقَ من صفحـــات السحر العتيقة إلاّ الرماد، لفحته هبّة ريح قويَّةٌ، وحملته إلى مكانٍ بعيد.

– فليهلكِ الشرُّ كلُّه في البلاد العجيبة وفي العالم أجمع! – قال تشارلي بليك بنبرةٍ مهيبة.

❖ ❖ ❖

العـــودة

تهيَّـأ أبطالنا، وهم في غايــة البهجة والسرور، للبحث عن المقطورة التي كانوا قد تركوها على مقربة من هذا المكان.

- أيهــا القبطان، إننــي سأطير قبلكــم، وأجهِّز كلَّ شــيء استعداداً لقدومكم، - تطوَّع تيم.

غير أن البساط لم يتحرك ولو مجرَّد حركةً عندما جلس عليه الصبي وأمره بــأن يمضي به إلى المقطورة. وعبثاً راح تيــم يكرِّر أوامره مرَّة تلو مرّة، لكن جهوده كلّها لم تُفض إلى شيء.

- حقاً، ما الذي أصاب أخيراً هذه الخرقة؟ - صاح تيم غاضباً.
- إن ما أصابها أمرٌ في غاية البساطة، - أوضح الفزَّاعة. - لقد ماتت أراخْنا، وأُحرِق كتابها السحري، وبذلك انتهى مفعول سحرها كلِّه.
- فلتبقَ هنا، إذن، أيها البساطُ الخرقةُ العديم النفع!

بل ورفس الصبيُّ البساط بقدمه.

- يــا للعار، - أنَّبته إينِّــي. - أهذا هو ردُّك على المعروف، بعد كلِّ ما قدَّمه لنا هذا البساط العزيز من خدْمات! - ثمَّ طوَت إينِّي البساط وحملتــه تحت إبطهــا. - إنني سأحتفظ به ذكــرى لِما قمنا به من مغامرات.
- حسنٌ، هاتيه لأحمله، - قال تيم شاعراً بالخجل، وأراح الطفلة من حمله.

أمّــا فارامانت فقــد أخرج من جيبه دفتر الجَــرْد، وقلّب فيه عدة صفحات، ثمّ بَلَّ القلم بلُعابه وشطب هذا التسجيل:

«بساطٌ طائر، مستعمَل، طوله متران، وعرضه متر ونصف المتر[17]...»

---

(١٧) في النص: «٤×٣ نصف ذِراع». و«نصف الذراع» وحدة قياس قديمة تساوي حوالي نصف متر. - المترجمة.

ثمّ وضع إشارة على الهامش للإيضاح:
«مشطوب، لأنه فقد قدرته السحرية».
وأوضح فارامانت بمَهابة وهو يخبّئ الدفتر:
- النظام مطلوب في كلّ شيء. فمَنِ الذي سيكون مسؤولاً عن النقص حين تُجرى عملية الجَرْد؟ إنه مدير التموين، بالطبع.

كان رفاق الطريق يسيرون عبر منطقة يغطّيها الثلج، فيما كانت تدور حولهم أمور عجيبة. فقد كان البخار يتصاعد من الأرض، والجداول تتدفّق رقراقة من التلال، والبراعم تنتفخ سريعاً على أغصان الأشجار، وطفقت الأعشاب تُطلّ برؤوسها الخضراء على حياء هنا وهناك.

لقد أحيَتِ الشمس الحارّة بأشعَّتها الفتّانة أوّل الربيع في البلاد العجيبة!

كانت البلابل، وطيور أبوالحِنّ، والحساسين، وطيور السحيلي تسابق البشر وهي تطير مغرِّدة في السماء. إنها الطيور التي كانت مرغَمة على أن تحِلّ ضيوفاً على أراضِنا في ما كان لها من أراضٍ سابقاً، وها هي ذي تعود إلى أعشاشها التي طردها منها الضباب الأصفر. وكانت السناجب وأقطاط الشجر تتقافز على الأغصان، فيما يتطوّح دبٌّ في طريق قريبة منها بخطا خرقاء وهو يسترق النظر بخوفٍ إلى وجه تيللي فيللي الرهيب.

لقد لاحظ العملاق النبيه خوف الدُّبّ، وتذكَّر أن الدُّبّ ليس وحده، بل هو وغيره من الحيوانات كانوا ما إن تقع أنظارهم عليه حتّى يحيدوا عن طريقه خوفاً، طالبين النجاة في الأحراش.

توقّف تيللي فيللي ونادى الدُّبّ. فلم يتجرأ الدُّبّ على مخالفته، واقترب منه على مضض. ولمّا لم تواته الشجاعة طأطأ الدُّبّ رأسه بكآبة دون أن يجرؤ على النظرٍ إلى عينَي الفارس الحديدي المخيفتين.

- اسمَعْني، أيّها الصديق،- خاطب تيللي فيللي الدُّبّ بلطف، - يبدو أنك تخاف منّي؟

- كَـ - كـَ. كَلا، أ - أ - أ. أنا لا أخاف منـك، - تمتم الدُّبّ بصوت مرتعش. - ولـ. لـ. لِمَ يجب عليَّ أن أخاف منك؟
- وهذا ما أظنّه أنا أيضاً، - وافق العملاق. - وفي جميع الأحوال فأنا قدّمت للبلاد خدمات جُلّى. فلماذا لا تريد أن تنظر في عينَيّ؟
- للـ. لا. لا تعذّبْني، أطـْ. أطلقْني...

وفجأة راح الدُّبّ يجري مسرعاً نحو دغلٍ قريب.

فشيَّعه تيللي فيللي بنظرة مليئة بالحَيرة والحزن.

- هذا هو الشكر والامتنان عندهم... - تمتم بحزن.

وعندما رأى الفزّاعة حسـرة تيللي فيللي، قرر بحكمته المعهودة أن يواسيه.

- لا داعـيَ للانزعاج، يا صديقـي، - قال بلطف. - بل على العكس، ينبغـي لـك أن تفتخـر بأن قوَّةً مغـ - نا - طيـ - سيّة تكمن في عينيك...
- منـ - غا ... أيةُ قوة؟

فكرَّر الفزّاعة الكلمة.

- إن هذه القوة لا تُمنَح لأيّ كان على الإطلاق، - أوضح له الفزَّاعة. - هل رأيت عند أحد منَ البشر عينين مثل عينيك؟
- لا، - قال العملاق الحديدي.
- هذا هو بيت القصيد. إن في وجهك، وخاصّة في عينيك، خُـ - صو - صيَّـ. ـةً فريدة، وهذا هو سِرُّ تَـ. ـفّوُّ - قِك على جميع الكائنات الحيَّة وغير الحيَّة!

نسيَ العملاق الطيِّبُ حزنه مسحوراً بهذه الكلمات الطويلة الرنانة، وهتف مسروراً:

- لن أعود أعير اهتماماً لخوف هؤلاء المضحكين!
- هذا خيرُ ما تفعل!- شجَّعه الفزَّاعة.

ثمَّ تابــع الرفاق طريقهم. كانت الطبيعــة تنتعش وتعود إلى الحياة أمــام أنظارهم تماماً. وبينما كان كاغي كار يطــوي الطريق جالساً على كتف الفارس الحديدي، إذا به يهبُّ طائراً فجأة من مكانه بقلق.

- كلا، لم أعد أطيق صبراً! - صرخ بقوّة. - يجب عليَّ أن أباشر القيام بتنفيذ واجباتي حالاً!
- وما هي واجباتك؟ - سأله تيم ببراءة.
- ألا تعــرف أنني المدير العام للاتصــالات في البلاد العجيبة؟ - رَدَّ عليــه الغراب مغتاظاً، - كما أني قُلّدت وساماً جزاءً على ما قدَّمت مــن خِدْمــات، ولكنّ لمّا كنتُ غير متبجِّح، فأنــا ليس من عادتي أن أتزيّن به.

وهنا استرق الغراب نظرة ساخرة إلى صدر بوريل المزيَّن بوسامَين.

- معذرة، يــا صاحب السعادة، إنني غريب هنــا، ولم يكن لي من عِلْمٍ بمنصبك الرفيع، - قال الصبي بحرج.

شعــر كاغي كار بالإطــراء عند سماعه هذ اللقــب الرنَّان، فأطلع المجموعة على نواياه.

- إنــي الآن سأرسل رسائــل تعاقبيَّة في جميــع الاتجاهات، - قال الغــراب. - يجب أن يعلم جميع النــاس، والحيوانات، والطيور، في أسرع وقتٍ ممكن، أن الضباب الأصفر زال إلى الأبد، وأن بإمكانهم أن يعــودوا إلى ديارهم. وسوف أُرســل رُسُلاً إلى بلاد الأنفاق، وإلى العلاكــين وعمّــال المناجــم. وسأستدعي كلَّ من اختبــأ، هرباً من الضباب الأصفر، في أراضي فيلّينا وستيللا الطيّبتين. وليعُدِ النظام إلى البلاد العجيبة على أسرع وجه!

كان تيم وإينّي ينظران باحترام إلى هذا الطير المنفوش الريش الذي كان يتوقّف عليه كثير من الأشياء، وكان يحاول تقديم أقصى ما يمكنه من النفع لسكان البلاد العجيبة.

أمّــا كاغي كار فكان قد أصبح في مكان بعيد يُعطي أوامره لمن لبّى نداءه وجاء طائراً إليه من طيور السنونو وعصافير الدوري.

كلُّ يــوم من الرحلة كان يأتيه معه بتغــيرات عجيبة. لقد زال الثلج والجليــد منذ زمن، وشرعــت الأعشاب تنبت بسرعة مــن تحت الأرض، واكتست الأشجار بأوراقها الخضــراء الكثيفة، فباتت تُغري النحل بأريج أزهارها البديعة.

ومضى تيم وإينّي وتشارلي بليك يتعرَّفون بسرور إلى المناظر الرائعة في البــلاد العجيبة. فهُمْ أنفسُهم من أعــاد بعث الحياة في هذا الجمال، وهذا ما كان يزيد فرحهم شدة على وجه الخصوص.

كانت قطعان الغزلان والجواميس والأيائل تسابق هؤلاء المسافرين؛ بينما كانت الثعالب المَغراءُ الوهّاجةُ اللون تتسلَّل في عمق الغابات وهي تترقَّب بأنظارها آملة أن يقع بين براثنها أرنبٌ طائش؛ وراحت السَّحالى والجرابيع تزحف خارجة من أوكارها العميقة التي كانت تختبئ فيها من الزمهرير.

كان كاغــي كار يتلقّى التقارير من مراسليــه عدة مرات في اليوم. وكانت الأخبــار كلُّها مطَمْئِنَة. لقد غادر الماران بــلاد الثرثارين، وعادوا إلى واديهم فشرعــوا بزراعة الحبوب. وأخذ الماران وهم يغادرون أراضي ستيللا يؤكدون للأهالي المضيافين أنهم سيصبحون منذ الآن أصدقاءهم إلى الأبد، ولن تعكِّر صفْوَ العلاقات فيما بينهم ولو ذرَّةٌ من الكراهية.

كذلــك رحل العلاكون وســكان المناجم أيضاً عــن المغارة المظلمة، وعادوا إلى منازلهم المريحة التي دفَّأتها أشعة الشمس الحارّة. وقد تبعتْهم، طبعــاً، تلك الحيوانات التي وجدت لنفسها ملاذاً في النفق تحت الأرض. وكانت الوعول والثــيران والغزلان والأرانب والنُّموســ تترنَّح من الجوع، وتزمُّ عيونها تفادياً للضوء غيرِ المعهود، وهي تنتشر في الغابات عائدة إلى أماكنها المألوفة.

واستفسر الفزَّاعــة الطيِّب عن مصير أورْفِن جوس، متسائلاً: كيف تحمَّــل الملك المخلوع الأسابيــع القاسية من الأَسْر وقــت الثلج في عزلته الكئيبة؟ ألم تُصَب صحتُه بسوء؟

فعرضَــ الصندوقُ السحري أمام حاكم مدينــة الزمرد وأصدقائه وادياً مريحاً يقع عند سفوح جبال حول العالم، وفيه المنزل الصغير البهيج الــذي عاد أورْفِن جوس وطلاه مــن جديد، كما ظهرتِ الخضرة المنتعشة التي تضجُّ بالحياة في المزرعة.

كان المزارع يحفر خطوطاً في الأرض، ويقذف رفشُه التراب بحركات قويــة. وقد كان يعلو وجهَه تعبيرٌ لطيفٌ مسالم، لم يكن يظهر عليه من قبلُ إطلاقاً. لكأن ما كان في نظرة أورْفِن جوس من كآبة فيما مضى لم يكن له من وجود في يوم من الأيام. وعلى مقربة من جوس كانت البومة غواموكو واقفة بمهابة على جُذْمور[١٨]، ويظهر للعيان أن صحتها قد بدأت تتحسَّن بعد جوع طويل.

- ... هكــذا إذاً، يا صديقتي غواموكولاتوكينت، - تابع أورْفِن حديثه مــع البومة. - ألا توافقين الآن على أنني كنت نبيّاً؟ ذلك أن أراخْنا لم يعد لها أثرٌ في وجه الأرض...
- وكيف لكَ أن تثبت ذلك، يا سيدي؟ - عارضته البومة وقد بلغ بها الإطراء مداه بعد أن سمعت جوس يناديها باسمها الكامل: فما أندر مــا كان يَحدُث ذلك! - إذ قــد لا يكون هناك إلا أن المشعوذة ثابَتْ إلى رشدها، فأعادت الشمسَ للناس بمحض إرادتها؟
- بمحضــ إرادتها، ها-ها-ها! - انفجر أورْفِن بالضحك. - ما أكثر مــا عندها من نيّة طيبة! كلا، فأنــا أرى بوضوح كامل، أن الفزَّاعة الحكيم قد توصّل إلى طريقة غير مألوفة من أجلِ التخلص من هذه الشريرة!

---

(١٨) الجُذمور هو ما يبقى من جذع الشجرة في الأرض بعد قطعها. - المترجمة.

بعثت كلماتُ أورْفِــن في الفزَّاعة شعوراً قويّاً بالاعتزاز، فراح رأسُه ينتفخ ويدور من إغداق المديح عليه. و تابع المزارع قائلاً:

- حقاً، إنني في أشدِّ الشوق لمعرفة ما هو عازم عليه. ولَعلّي أرسلكِ في مهمة استطلاعية. هل من اعتراض لديكِ، يا غواموكوتوكينت؟

- علــى الرحب والسعة، يا سيدي، إننــي سأُحيط علماً بكل شيء، - ردَّت البومــة بنشــاط، وهي في غاية الرضى بسبــب هذا الإطراء البسيط الذي خصّها به أورْفِن.

ثمَّ كفّ الفزَّاعة عن متابعة الاستماع إلى مزيد من حديثهما، وأطفأ التلفاز.

- إننــي أرى أن هــذا المغْ - تَ - صِب للسلطة سابقــاً، قد تغيّر كلّيّاً. - قــال الفزّاعة. - وسيكــون علينا أن ندعو أورْفــن مرّة ثانية إلى مدينــة الزمرد. لقد نال ما يكفي من العقــاب جَرّاء ما ارتكبه من جرائــم في الماضي، فلْيَعشْ بين الناســ. إن سلوكه خلال زمن هذه القصة كلِّها مع أراخْنا، أرفعُ من كل مديح.

تابعــت القافلة سيرها إلى أن وصلت أخيراً إلى حدود بلاد الزمرد. كان الفزَّاعــة وأصدقــاؤه قــد تخلّوا قبل ذلك عن السفــر في المقطورة. فبعــد أن أوكلوا مهمة العناية بها إلى كسّاري السنديان، تابعوا السير على أقدامهم، مسرورين بعودة الحياة إلى الطبيعة من جديد.

بــدأوا يمرّون في طريقهــم بأولى المزارع، وكان قــد تسنّى لسكّانها أن يعــودوا من المدينة التي كانوا يختبئون فيهــا من الزمهرير والضباب الأصفر. وكان المزارعــون يعملون في البساتين والحقول، وهم مسرورون، علــى جَرْيِ عادتهم فيما مضى، ومــا كانَ من شيء يدلُّ على مدى قسوة الزمن الــذي عاشوه إلا وجوههم المنهَكة. ويا للحماسة التي استقبلوا بها مخلّصيهــم: العملاق من وراء الجبال، وإينّي، وتيم، والفزَّاعة، والحطاب، وقبَّــلَ الجميع طبعاً العملاقَ الطيّب تيللي فيللــي. لم يعُد وجهه الرهيب

يُخيــف الآن أحداً، لأن الجميع باتوا يعرفون أنه ليس إلا قناعاً مخصَّصاً لتخويف الساحرة الشريرة.

وها هي ذي أبراج مدينة الزمرُّد تظهر أمامهم. فلم يعُد في مقدور هؤلاء المسافرين، وقد أصيبوا بالذهول، أن يحيدوا بأنظارهم عنها.

كانت مدينة الزمرد تمتاز بالفخامة دائماً، غير أنها تبدَّت الآن لعيون أبطالنـــا أكثر روعة، وإن كان ذلك صعباً أن يكـــون. كانت أحجار الزمرد على الجدران والأبراج، وعلى بوابات البيوت وأسطُحِها تتألق ببريقٍ ساحر وكأن المطر قد غسل عنها الغبـــار. وكان القرميد الأخضر والأحمر على الأسطح يتناوب بعشوائية بديعة، حتى خُيِّل أن مدينة الزمرد بأسْرها مثلُ لعبةٍ عجيبة صنعتها يدُ فنان عظيم.

واجتـــاز الرحالة القناة على متن عبّارة كانت قـــد استأنفت عملها منذ مدة طويلة. أمّا الصبي الحديدي فقد عبر القناة ماشياً على قدميه، ولكنه الآن لم يعد يتعثر، بل كانت خطواته ثابتة، وحركاته واثقة.

وجد تيللي فيللي لنفســـه مكاناً في أكبر حديقة في المدينة، إذ إنه لم يعـــثر في المدينة كلِّها على أي منزل يتَّسع له. وراحت هذه الحديقة تضجُّ بأصـــوات الأولاد من الصباح حتـــى المساء، لأن صِبيـــة المدينة وبناتها لم ينقطعـــوا عن المجيء لمشاهدة العملاق الطيـــب الذي يبعث فيهم حجمه الكبـــير قليلاً من الاستغراب، ولكنهم لا يخافـــون من وجهه أدنى خوف. وكان الصبـــي الحديدي يتسلّى معهم ويمازحهـــم راضياً دائماً، فقد كان اللعب في عمره أكثرَ الأمور جدِّيَّة وضرورة.

كانت مفاجأة هائلةٌ مُفرِحةٌ بانتظار رحَّالتنا عند وصولهم إلى بوابة المدينـــة. فقد كانت البوّابة الصغيرة مغلقـــة، كما هي االعادة. ولمّا قرعت إينّـــي الجرس ثلاث مرات، انفتحت كـــوّة الناطور، وأطلّ منها فارامانت. لقد كان يضع علـــى عينيه نظارة خضراء! ثم تبيَّن أن حارس البوابة كان قد غـــادر القافلة قبل ساعة مضـــت، فسبق رفاقَه وعـــاد ليَشغِل مكانه المعهود في المحرَس الذي ألِفه منذ سنين عديدة.

- من أنتم ولماذا أتيتم إلى مدينتنا؟- سأل فارامانت بصرامة، رغم أن ابتسامة كانت تختبئ في عينيه.
- أنا الفزَّاعة ثلاثيٌّ الحكمة، حاكم مدينة الزمرد، جئتُ لأشغل مكاني الذي هو لي وَفقاً للقانون.
- أنــا الحطاب الحديدي، حاكــم الغمّازين، جئتت لزيــارة مدينتكم الساحرة تلبية لدعوة صديقي الفزَّاعة.
- أنا العملاق من وراء الجبال، بحّار المياه المالحة، جئت إلى مدينتكم الرائعــة لأنال قسطاً مــن الراحة بعد حرب قاسية مــع المشعوِذة العظيمة أراخْنا.

ثم قَدَّم باقــي المسافرين أنفسهم رسميّاً حســب الأصول. وفُتحت البوابة الصغيرة على مِصراعَيها، فاستقبل فارامانت القادمين حاملاً سلة مليئة بالنظارات الخضراء:

- إن مدينة الزمرد ترحب بكــم، أيها القادمون،- قال حارس البوابة بمهابــة، - ولكن يجب عليكم أن تلبســوا النظارات الخضراء. إنها أوامر غودفِن العظيم الرهيب، ولا عَجَبَ ؛ فكلمتُهُ قانون!

وشرع المسافــرون يضَعون النظارات الخضــراء على عيونهم وهم يضحكــون ويمازحــون فارامانت، فشــعَّ كلُّ ما حولهــم يتألق بمشتقات اللون الأخضر المختلفة، بدءاً بالفيروزي اللطيف وانتهاءً بالأخضر القاتم والبحري.

ويــا للمشهد الذي كان عندما دخل الفزَّاعــة، والحطّاب، والبحّار تشارلي، والباقون إلى المدينة!

لقــد احتشد الناس على مدارج المنــازل والشرفات، وتجمَّع الأولاد متلاصقين عناقيدَ علــى الأسطح، متمسّكين بالمداخن، وأعمدةِ مؤشّرات اتجاهِ الهواء، وأفاريزِ الزينة، فيما كان الشيوخ والعجائز يُطلُّون من النوافذ المفتوحــة على مصاريعها. وكان لصيحات الإعجاب رنينٌ في الهواء، فيما كانت باقات الورود تتطاير من كل حدبٍ وصوب...

ووسط كلِّ هذه الفوضى من الفرح كان كاغي كار، المسؤولُ الرئيس عن هذا الاحتفال، منفوشَ الريش يروح ويجيء وقد بُحَّ صوته من الصراخ! فهو مَن جاء إلى هنا منذ الأمس، وأخبر سكان المدينة وضواحيها بأن يترقّبوا قدوم الفزّاعة وأصدقائه، ثمّ أعدَّ لهم استقبالاً لم يسبق له مثيل.

انطلق الموكب مصحوباً بآلاف من أبناء المدينة المبتهجين، فسار على بساط من الورود التي تغطّي الشوارع، حتى وصل إلى ساحة القصر. كانت النافورة الرئيسة في المدينة وسط تلك الساحة، كما في الأيام الخوالي، تتدفّق وتترقرق متألّقة بألوان مختلفة، فيما راحت سمكات فضية وذهبية تلعب وتتقافز في حوض النافورة.

كان قصر الفزّاعة بأبوابه المشرَعة على مصاريعها، ونوافذه الزجاجية كالمرايا جاهزاً لاستقبال سيّده الحاكم وضيوفه. فقد جَهِد خَدَمُ القصر في تنظيف الباركيت [19] الخشبي حتّى بات يلمع، ولم يتركوا ذرّة غبار واحدة على الجدران والأسقف، وكانت ستائر الحرير والمخمل تتدلّى من حواملها المذهَّبة فوق الأبواب، وكانت أحجار الزمرّد موجودة في كلِّ مكان يقع عليه النظر!..

كان بريق الزمرُّد باهراً يعمي العيون، فقد كان فارامانت الذكيُّ صائباً كلَّ الإصابة حين أجبر أبطالنا على لبس النظّارات الخضراء. وعند أبواب صالة العرش كان الطباخ بالوول في استقبال الضيوف مرتدياً مئزراً أبيضَ وقبَّعة بيضاء، وهو يحمل قالَباً من الحَلوى هائل الحجم على طبق ذهبي. أمّا في الصالة نفسها فكانت الطاولات مكتظَّة بعدد كبير من شتّى أنواع الأطعمة، وأشدِّ أطباق المأكولات ندرة وتفنُّناً.

وفي صالة العرش كان الأسد الشجاع بانتظار وصول الأصدقاء. لقد أصبح هذا الملك الجليل في عالم الحيوان طاعناً في السن، لا يشارك في الجولات الخطيرة التي تتطلَّب وقتاً طويلاً، ولكنه كان سعيداً سعادة

(١٩) الباركيت هو قِطعٌ صغيرة (تقريباً ٣٠ x ٥ سنتيمتر) مستطيلة من الخشب المصقول جيّداً، تُغطَّى به أرضُ القصور والبيوت... في المناطق الشمالية الباردة. – المترجمة.

لا حـــدود لها بلقاء إينِّي، والعملاق من وراء الجبال، وجميع الآخرين وقد عادوا سالمين ينعمون بالصحـــة. كان يبكي فرحاً، ويمسح دموعه بطرف ذيله.

إلا أن أغــرب ما أصاب إيللي بالذهول هــو اقتراب الدكتور بوريل منهــا بقامته الطويلة النحيلــة، إذِ انحنى يحيّيها بإجــلال، مرتدياً ثياباً أنيقة، وأوسمةً على صدره، وفي يده الحلقةُ الفضية التي ظُنَّ أنها ضاعت بضياع الظبية الأليفة آونا، كما قال الحطاب.

علــى أن تفسير المسألــة بسيط جدّاً. وذلــك أن آونا التي لا تراها العيــون كانت قد جاءت، عندما خيَّم الضبــاب الأصفر على البلاد، إلى القصــر البنفسجي تبحــث عن ملاذ لها عند سيدتهــا فريغوزا، فنُزعت الحلقة الفضية من عنق الظبية الهاربة. ومن المؤسف أن ذلك وقع بعد أن غادر الحطاب الحديدي إلى مدينة الزمرُّد، فبقيت هذه التميمة النفيسة في بلاد الغمّازين إلى أن زال الضباب.

وسرعان ما وضعــت إينِّي المسرورةُ هذه الزينةَ البديعة على رأسها، غــير أنــه، بالطبع، لم يخطر علــى بالها أن تضغط علــى نجمة الياقوت الصغــيرة التي تجعلها متوارية عــن الأنظار. وما هو الداعي للقيام بهذه المقالب بين الأصدقاء؟

قال تيم:

- كــم هو مؤســف أننا لم نحصل على هذا الشــيء قبل الآن، أي قبل أن نمضيَ لمحاربة أراخْنــا. لَكُنتُ تسللت إلى مغارتها وسرقت منها الدفتر السحري.

اعترضت إينِّي:

- أعتقــد أن ذلك ما كان سيفضــي إلى أي شيء. فقد كان الدفتر في مخبأ أمــين، وما كان بالإمكان العثور عليه لــولا مساعدة الأقزام. ولو أنك وجدتَه، وتمكّنّا من فكِّ السحر وحرّرنا البلاد من الضباب الأصفر، لَما عرَف أحدٌ ما كان سيحدث بعد ذلك. فربما كان بحوزة

الساحرة الشريرة تعويذات أشدُّ رعباً، وربّما كانت وجَّهت إلى البلاد ما هو أسوأ من الضباب الأصفر.

وافـق الجميع مع إينِّي علـى أن الأمور سارت سيراً حسناً، رغم كل شيء. ومـن دون مساعدة من الحلقة الفضيّـة تخلَّصت البلاد العجيبة مـن أراخْنا إلى الأبد، ولن يعود سكّانها موضِع تهديدٍ من جانب الساحرة العظيمة بعد الآن.

- ومع ذلك، فإنّني من الآن فصاعداً لن أترك لكم الحلقة الفضية، - قالت إينِّي ضاحكة. - لقد استهنتم كثيراً بالحفاظ عليها. ولكنني، يـا أصدقائي، لا أرى رامينا هنا! فأين هي رامينا الشهمة، حليفتنا الأولى في حربنا على أراخْنا؟

فاعـترف كاغي كار متضايقاً بأنه هـو المذنب المسؤول عن غيابها، لأنه نسيَ أمر ملكة فئران الحقول في غمرة انشغالاته.

- إننـا سنصحّح هذا الخطأ، - ابتسمت الطفلة ونفخت في الصفارة السحرية.

وفي الحال كانت رامينا على يدها الممدودة، وهي في زيِّها الرسميّ، وعلـى رأسهـا التاج البراق. فتبادلـت إينِّي وراميـنـا التحيّة بلطف فيما بينهما.

جلسـ المشاركون في الوليمـة المهيبة حول طاولـة الاحتفال، وإذا بالتنـين أويخّو يلوح برأسه الدميم الذكي عبر نوافذ القصر المفتوحة على الجبـال الثلجية المتألقة. كان هذا الحيوان الـوفيُّ ينتظر محرِّري البلاد العجيبة، متأهِّباً لنقلهم إلى وطنهم الحبيبِ البعيد.

❖ ❖ ❖

الفهرس

الصفحة

الصفحة

الطبعـــة الأولى /٢٠١٣م

عدد الطبع ٢٠٠٠ نسخة